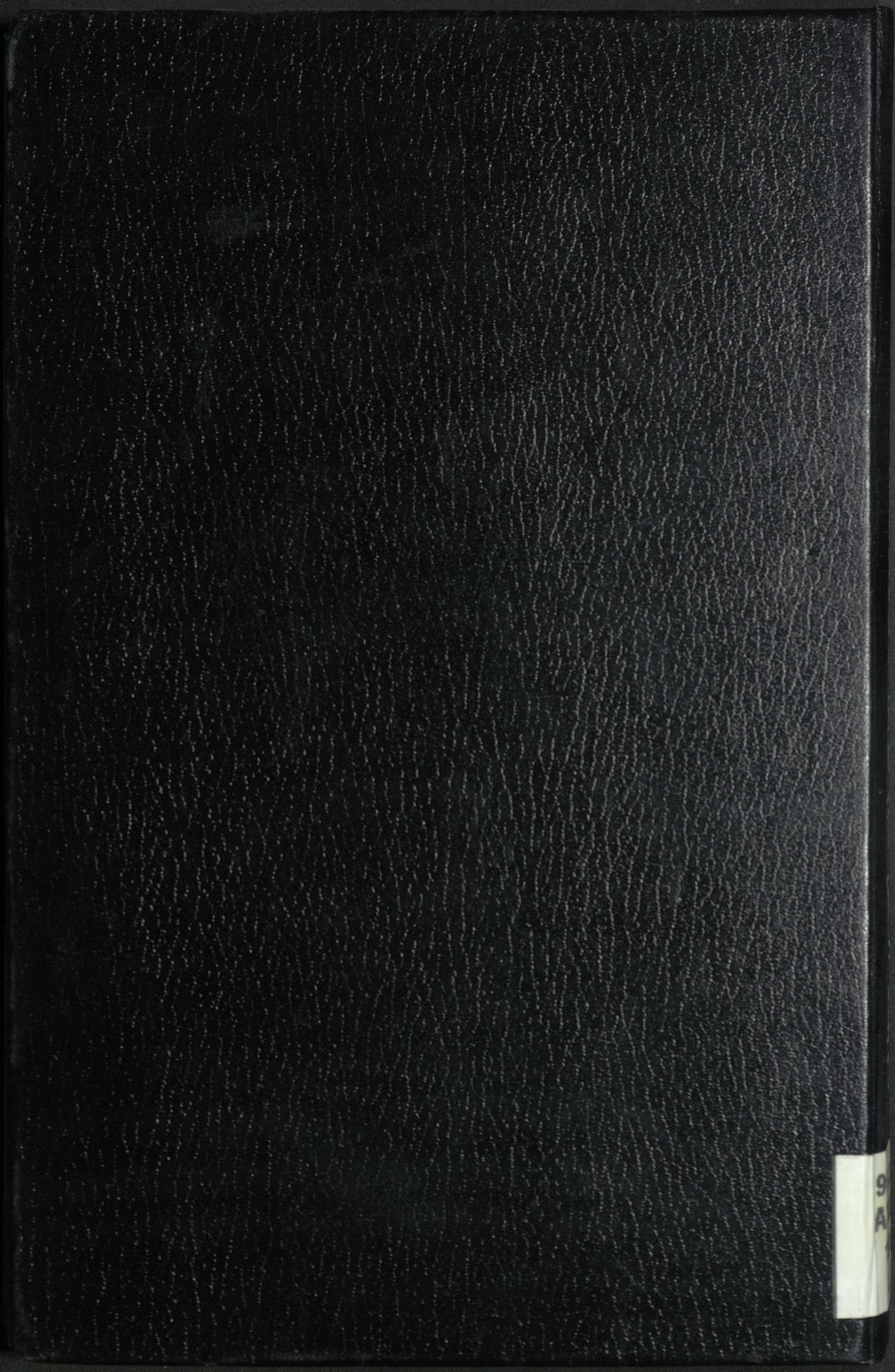
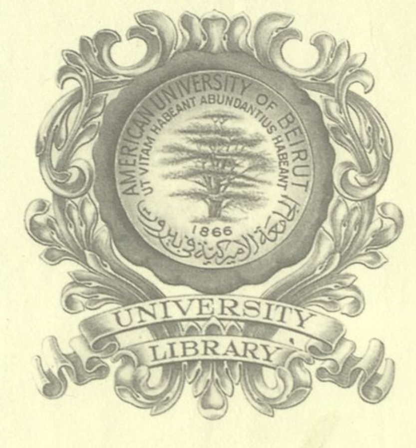



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY

مقدمة التصدير للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأنعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ *

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الآيات من سورة الحج)

يحج بيت الله الحرام، ويزور مسجد رسوله وروضته عليه أفضل الصلاة والسلام، ألوف كثيرة من مسلمي الآفاق، أكثرهم من العوام والفقراء، وبعضهم من العلماء والادباء والكتاب والشعراء، ويقل في جملتهم من يفقه ما يعمل، ومن يعي ما يسمع، ومن يعقل ما ينظر، ويقل في هؤلاء من يكتب لاخوانه المسلمين ما يفيدهم شيئا لا يجدونه في كتب الفقه أو التاريخ والرحلات والادب

بل نرى من حجاج إخواننا المصريين من يكتبون في كل عام ما يغضب الله تعالى ويسوء جيرانه في حرمه ، وجيران رسوله (ص) في روضته،

وخدام قاصدي هذين الحرمين من المطوفين والمزورين ، وحكامهما الحافظين لأمن السكان ، وآمـّين البيت الحرام ، وأطباءهما المحافظين على صحة أهلهما ، وصحة من يتشرف بإداء المناسك والزيارة فيهما ، بل يكتبون ماينفر المسلمين عن اقامة هذا الركن العظيم من أركان الاسلام ، ويصدهم عن إحياء هذه الجامعة العامة التي امتاز بها على جميع الاديان - فهذا يشكو من شدة الحر ، وذاك يتململ من كثرة النفقة ، وآخر يتبرم بما يزعم من تقصير المطوفين وطمعهم

وأغرب من كل هذا أن منهم من ينتقدون منع البدع والخرافات ، والطواف بالقبور والاستغاثة بالاموات ، وان منهم من كتب في هذا الشهر مشنعا على حكومة الحجاز التقصير في عمارة مسجد الرسول (ص) وتجديد فرشه ، وهو يعلم ان حكومة الحجاز الحاضرة على فقرها ، قد فعلت مالم تفعله حكومة قبلها ، من حفظ الامن ، وتسهيل السبل ، وتوفير المياه ، والاسعافات الصحية للحاج ، فان هـذا قد صار متواترا ، ويعلم أيضا ان حكومته هو قد منعت ما كانت ترسله الى الحرمين وأهلهما من الاموال ، والحقوق المقررة لهما التي كانت ترسلها في كل عام ، وان هذه الحقوق هي بعض ماوقفه الملوك والامراء ، وأهل البر من الاغنياء ، ويعلم ان وزارة الاوقاف تجبي من أوقاف الحرمين في كل عام مئات الالوف من الجنيهات ، وتصرفها في غير ما وقفت عليه - ويعلم أيضا ان الحكومة التركية ، قد استحالت حكومة لا دينية ، وضمت أوقاف الحرمين

الى أملا كها ، بل هي تمنع من يريد الحج من شعبها ، وحجتها الظاهرة على هذا المنع ان الترك أحق بأموالهم أن تبقى في بلادهم من أن تصرف في بلاد العرب !!

وخير من هؤلاء الصادين عن سبيل الله ، والمنفرين عن شعائر الله ، والمؤذين لجيران الله ، من يؤلفون كتبا في رحلاتهم الحجازية ، ينقلون فيها أحكام المناسك الفقهية ، وبعض الاخبار التاريخية والأدبية ، ومن كتبوا في رحلاتهم وفي الصحف ما أملاه الحق من وصف أمن الحجاز ، وتوفير أسباب الراحة للحاج ، والثناء على الحكومة السعودية ورجاء الخير العظيم للاسلام فيها.

بيد أنك قلما ترى فيما كتبوا عبرة جديدة ، أو شيئا من الاقتراحات المفيدة ، أو ترغيبا في البذل لعمارة المسجد الحرام ، ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو لتسهيل السبيل على الحجاج والزائرين ، وتوفير المياه لهم وللمقيمين ، اقتداء بما كان من فعل السلف الصالحين

دع ما هو أعلى من ذلك منزعا ، وأروى مشرعا ، وأبعد في الاصلاح غاية ، وأقوى في درء الخطر عن الاسلام وقاية ، فقد علم الواقفون على سياسة الاستعمار الاوربي أن خطره قد أحاط بجزيرة العرب ، ونفوذ بعض دوله تغلغل في بعض انحائها ، ثم طفق يوغل في أحشائها ، ويلغ في دمائها ، فان المستعمرين قد استولوا على سكة الحديد الحجازية ، التي كان الغرض الظاهر القريب من انشائها تسهيل أداء الفريضة ، والباطن البعيد حفظ

الجزيرة نفسها من الاستعمار الاوربي ، ومن قتل الاسلام في عقر داره ، وإزاحته عن قراره ، تمهيداً لمحوه من الارض كلها ،

كذلك كان شأن المسلمين في حجهم وزيارتهم ، وكذلك كان مادونوا في رحلاتهم ومقالاتهم ، الى أن أذن الله تعالى لعبده المجاهد في سبيله بماله ونفسه ، ولسانه وقلمه ، وعلمه وعمله ، الامير شكيب أرسلان ، الذي بحق لقبته أمته بأمير البيان ، أن يستجيب لأذان ابراهيم خليل الرحمن ، فيؤدي فريضة الحج ، ويعرض مرضا يضطره بعداداء المناسك ، إلى الالتجاء الى الطائف ، والتوقل في جبالها وذراها ، والتنقل في مزارعها وقراها ، والهبوط في أخيافها وأوديتها ، فينال الشفاء والعافية من مرضه ، ومن مرض سابق له ، بما شم من هواء نقي ، وشرب من ماء روي ، وجنى من ثمر شهي ، ويشاهد ماتم من قابلية للعمران ، لا يكاد يفضلها مكان ، في عصر عم الحجاز فيه العدل والامان ؛ وأن يصف ذلك بقلمه السيال ، وبيانه السلسال ، الذي يجري فتكبو في غاياته جياد الفرسان ، ومن ذا الذي يطمع في لحاق أمير البيان ، في مثل هذا الميدان ؟ ميدان التاريخ وعلم الاجتماع والعمران ، ومافيه من عبر السياسة في هذا الزمان ، ولاسيما سياسة الامة العربية والاسلام

أحمد الله تعالى أن وفق أخي شكيبا لأداء المناسك ، وشهود ماقرنه بها القرآن من المنافع ، وانما هي منافع أمته ، لامنافع شخصه وأسرته ، وأن يسر له السير في تلك الارض ، لفقه ما أرشد اليه عقله ، وهدى له

قلبه ، فيعرف بنفسه جبالها ووهادها ، وأغوارها وأنجادها ، وسهوبها وصفاصفها ، ومجاهلها ومعارفها ، ثم يبعث مادفن في بطون الكتب من تاريخ عمرانها ، وكنوز معادنها ، مع بيان أماكنها ، ووسائل استخراجها من مكامنها ، ويجلي للعقول ما فيها من العبر البالغة ، ويقرن بها وصف حالتها الحاضرة ، ويستنبط منهما ما يجب على الامة العربية وحكوماتها ، والشعوب الاسلامية وزعمائها ، من توجيه أصدق ما أوتوا من إرادة وعزيمة ، وأفضل ما أعطوا من علم وثروة ، في سبيل عمران الحجاز ، وصيانته من خطر الاستعمار ، وان ذلك لا يتم لهم الا بعمران جزيرة العرب كلها ، لان انتقاصها من أطرافها ، يفضي الى الاحاطة بسائر أكنافها

تلك الغاية البعيدة المرمى ، هي التي وضع لها الامير رحلته الحجازية التي سماها (الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج الى أقدس مطاف) وقد أقام الدلائل على إمكان ما دعا اليه وسهولته ، من قابلية في المكان ، ومواتاة من الزمان ، وأشار الى ما يعترض به على ذلك من شبهات داحضة ، وكر عليها بما ينقضها من حجج ناهضة ، بما لم يبق لمعتذر عذرا مقبولا ، ولا لمقصر قولا معقولا

ثم انه لم يقف في ارتساماته دون هذا المقصد الاسمى ، بل ألمّ فيها بكل ما يهم المسلم من حال الحجاز وأهله وحكومته ، فأفاض القول في تعظيم شأن المياه فيه ، وما يرجى من زيادتها بالوسائل العصرية ، ولاسيما الآبار

الارتوازية ، واستشهد التاريخ على ما كان من عناية السلف الصالح بعمرانه ، وحبس الاوقاف الواسعة عليه ، وعناية الخلف الطالح بتخريب ما عمروا ، واضاعة أكثر ما وقفوا ، وتمهيد حكامهم الفاسقين ، سبيل ذلك لسالبي ملكهم من المستعمرين . وضرب لذلك الامثال ، بتاريخ أكبر المعمرين من الملوك والامراء والوزراء ، وأسهب في بيان أحوال المطوفين والمزورين وقناعتهم ، وما يجب من اصلاح حالهم ، ونوّه فيها بفضل الحكومة السعودية الحاضرة وخدمة ملكها للحجاز ، وأعظمها والمقدم منها تعميم الامنة في بدو البلاد وحضرها ، قريبها وبعيدها ، وما يرجى بحكمته من سائر اركان الاصلاح فيها

***

وقد منّ علي ، بان عهد بنشر هذه الارتسامات إلي ، بان أطبعها بمطبعة المنار ، وأشرف على تصحيحها بنفسي ، لتعذر ارسال مُثُل الطبع اليه في أوربة ليتولى تصحيحها بنفسه ، بل منّ علي بالاذن لي بتعليق بعض الحواشي على بعض المواضع التي أرى التعليق عليها مفيداً لقارئيها ، ليكون اسمي مقرونا باسمه في هذا الاثر الخالد له في خدمة العرب والاسلام ، كما منّ علي قبله بمثله في رسالته التي جعل عنوانها (لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم) وهي هي الرسالة التي

سارت بها الركبان تطوي نفنفا فنفنفا وسبسبا فسبسبا

فاضطربت بها بعض دول الاستعمار وزلزلت زلزالا شديدا ،

حتى قيل لنا انها أغرت حكومة سورية بمنع نشرها فيها ، وهي أحق بها وأهلها ، فانفردت بهذه العداوة للاسلام دون من أغروها بها

ولقد كان سماح الامير حفظه الله لي بهذا وذاك اعلاما لقارئي الرسالة والرحلة بما بيننا من الاخوة الاسلامية الصادقة ، والاتفاق في المقاصد الاصلاحية النافعة ، للامة العربية ، والشعوب الاسلامية ، التي نفخ روحها في كل منا شيخنا الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) بالتبع لاستاذه موقظ الشرق وحكيم الاسلام (السيد جمال الدين الافغاني) قدس الله روحهما ، وأجزل ثوابهما

هـذا وان الامير أمتع الله بعلمه وعمـله ، ولسانه وقلمه ، قد وضع للرحلة حواشي كثيرة عزوتها اليه في مواضعها ، وكان يجب أن أشير إلى ذلك في ديباجتها ، ولكنني ماعلمت بها إلا عند بلوغ أول حاشية منها

وقد كان لي وقفة ونظر في اقتراحه على الحكومات المختلفة في الدين والسياسة أن تشدد على حجاج بلادها الفقراء ، فيما تفرضه من الشروط للسماح لهم بالسفر إلى الحجاز ، لا لأن هذا الاقتراح منكر في نفسه ، بل لان الحكومات الاستعمارية التي تكره للمسلمين المرزوئين بسيطرتها عليهم أن يؤدوا هذه الفريضة ، لم تقصر في ارهاقهم بالشروط المالية والصحية ، بل أنا أعلم علم اليقين أن جميع الدول الاستعمارية تمقت قيام المسلمين بهذه الفريضة ، وتتعاون على صدهم عنها بما تستطيع من حول وحيلة ، ولولا مالبواخرها وتجارتها من المنافع من نقل الحجاج لكان تشديدهم في الصد

أكبر، ولكن ماوضعوه من العوائير والعقاب في سبيل الحج باسم المحافظة على الصحة، قد أنالهم بعض مرادهم منه بقلة من يتحمل مشقته من ملوك المسلمين، وأمرائهم المترفين، وأغنيائهم المحسنين، وزعمائهم المفكرين

وقد كانوا حاولوا ان يقرروا في مؤتمر طبي عقد بمصر في أوائل عهد الاحتلال البريطاني أن الحجاز بيئة وبائية بطبعه، يجب جعله تحت سلطة الحجر الدولي دائماً لذاته، فجاهد المرحوم سالم باشا سالم كبير اطباء مصر (والطبيب الخاص لسمو الخديو توفيق باشا وأسرته) يومئذ جهادا كبيرا دون ذلك، حتى دحض كل شبهة تؤيد هذا الاقتراح، وأثبت بالادلة الفنية الطبية والتاريخية، أن الحجاز ليس بوطن لوباء الهيضة الوبائية، (الكولرة) ولا لغيرها من الأوبئة السارية المعدية. ولكنني لم أضع لهذه المسألة حاشية، بل أدعها الى علم الامير الواسع، ورأيه الناضج، لعله يستدرك ما يرى استدراكه ممحصا لهذا الرأي (١)

(١) ارسلنا الى الامير مثالا من هذه المقدمة قبل طبعها فكتب إلينا هذا الاستدراك: —

«اقتراح تشديد الحكومات على الفقراء بعدم الحج لم يكن مرادي به إلا منع الفقراء المعدمين الذين لايستطيعون الى الحج سبيلا، والذين اذا جاءوا الى مكة صاروا وقراً على أهلها وحكومتها

وأما الفقراء الذين لم يبلغ فقرهم هذه الدرجة فليسوا المراد بكلامي. واني أوافق الاستاذ على كون دول الاستعمار تشدد الشروط عمداً على من يريد الحج المستطيع وغير المستطيع، وذلك قطعا لصلة المسلمين بمكة وعزلا لهم عن اخوانهم في الدين. واذا سمحت احيانا بالحج فيكون على كره منها وتعتاض من ذلك باكراه =

وها أناذا أزف الى قراء العربية هذه الرحلة النفيسة ، والارتسامات اللطيفة ، ولا ريب عندي في أنهم يقدرونها قدرها ، ويُعنون معي بنشرها ، وبث الدعاية الى العمل بما فيها من النصيحة الثمينة ، التي تتوقف عليها حياة هذه الامة المسكينة ، التي كانت هي الناشرة لدعوة الاسلام ، والمفيضة لنور هدايته ، والمفجّرة لأنهار حضارته ، وباحيائها وعمران بلادها يناط بقاؤه ، ويعود رواؤه ، وينضر إهابه ، ويتجدد شبابه ،

= الحجاج على ركوب بواخرها ، وتفرض عليهم أجرة فاحشة وتحشرهم فيها حشراً يزيد قهرهم ، وفي السنة الفائتة لم تزل فرنسة تتنوع في الشروط وتتعنت على الحجاج حتى لم يقدر على الحج إلا ٣٠ شخصاً من كل جزائر الغرب مع أن الذين كانوا نووا الحج هم أكثر من الف وتسعمائة

ولا يكثر على الفرنسيس بعد ذلك أن يمنوا بكرة واصيلا على مسلمي المغرب بالحرية الدينية التي امتعوهم بها ! وان يملأوا جرائدهم بما منحوهم منها ! حتى يخال من لم يطلع على الحقيقة ان مسلمي المغرب راتعون في بحابح الحرية الدينية كما يصفها هؤلاء الخطباء والكتاب

والحقيقة أن أهل المغرب جميعاً في عناء شديد من كل جهة ولا سيما من جهة حرية الاجتماع بسائر المسلمين بل من جهة حرية اجتماعهم بعضهم مع بعض ومنذ نحو شهر نادى المنادي في أسواق فاس بأنه ممنوع ذهاب التجار للبيع أو للشراء بين قبائل البربر . وجميع الناس يعلمون انه لايقدر أحد من الفقهاء ولا من حملة القرآن ولا من مشايخ الطرق الصوفية ان يدخل قرى البربر ولا أن يجول في الجبال التي هم فيها إلا باذن خاص من الحكومة على حين مئات من الرهبان والراهبات والاقسة والمبشرين يجولون في بلاد البربر كيف يشاؤن ويبنون المدارس والكنائس

فهذا هو كنه الحرية الدينية التي تمن بها فرنسة على مسلمي المغارب . ومن كان في شك من كلامنا هذا فليذهب إلى تلك البلاد أو فليسأل الثقات من أهلها »

وأختم هذا التصدير لها بما يؤيد قولي هذا من الاحاديث النبوية في شأن الحجاز ومستقبله، وكونه مأرز الاسلام ومعقله، وحصنه وموئله، عند ما يشتد على المسلمين البغي والعدوان، ويركبون المناكير فينا كرهم الزمان، او تستباح بيضتهم بما أعرضوا عن هداية القرآن

قال رسول الله (ص) « ان الايمان ليأرز الى المدينة كما تأرز الحية الى جحرها » (١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .

وأعم منه وأدل على المراد قوله عليه الصلاة والسلام « إن الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها » رواه مسلم من حديث ابن عمر

وأعم منه وأظهر قوله (ص) « ان الدين ليأرز الى الحجاز كما تأرز الحية الى جحرها، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأُرويّة (٢) من رأس الجبل . ان الدين بدأ غريبا ويرجع غريبا فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي »

وأوسع من ذلك كله وأدل على الباعث عليه ما رواه أحمد والبخاري ومسلم

---

(١) ارز كعلم انضم واجتمع وانكمش (وورد لغة من بابي ضرب وقعد) والمعنى انه سيعود الى المدينة والحجاز كله ويأوي اليه كما تعود الحية الى جحرها ولا سيما اذا خافت

(٢) الاروية بضم الهمزة وكسر الواو وتشديد الياء أنثى الوعول وهي تعتصم في أعالي الجبال . والمعنى أن الاسلام سيضعف ويصير غريباً ومضطهداً في الاقطار فلا يجد له حصناً ومعقلا إلا الحجاز فيعتصم فيه كما تعتصم الاروية في شناخيب الجبال

من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ أوصى عند موته بثلاث أولها «اخرجوا المشركين من جزيرة العرب» وما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن عمر (رض) انه سمع رسول الله ﷺ يقول «لأخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها الا مسلما» وما رواه أحمد من حديث عائشة (رض) قالت آخر ما عهد به رسول الله ﷺ أن قال «لا يترك بجزيرة العرب دينان» وروى عن أبي عبيدة عامر بن الجراح قال: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ «اخرجوا يهود أهل الحجاز ونصارى نجران من جزيرة العرب» والمراد انه آخر ما أوصى به عند موته، وأما آخر كلمة نطق بها ﷺ فهي «اللهم الرفيق الاعلى»

وقد بينت في مواضع من جزء التفسير العاشر وغيره حكمة هذه الوصايا النبوية، وهي ما أطلع الله تعالى عليه رسوله وأخبر به كما في حديث ثوبان (رض) وغيره، من تداعي الامم على المسلمين كما تتداعى الأكلة على قصعتها، وسلبهم لملكهم، واضطهادهم لهم في دينهم، إلى أن يضطروا الى الالتجاء الى مهد الاسلام الاول، ومعقله الاعظم، ومأرزه الآمن، وهو الحجاز وسياجه من جزيرة العرب. ولذلك أوصى بأن يكون هذا المعقل خاصا بالمسلمين لا يشاركهم فيه غيرهم، فهذه الوصية من دلائل نبوته ﷺ قد ظهر سرها في هذا العصر

وهانحن أولاء نرى أعداء الاسلام مازالوا يطاردون المسلمين حتي

انتهوا بهم إلى جزيرة العرب ، وطفقوا ينازعونهم فيها ، بل وصلوا إلى الحجاز واستولوا بمساعدة بعض أمرائه على أعظم موقع من معاقله البرية والبحرية (ما بين العقبة ومعان) وصاروا باستيلائهم على سكة الحديد الحجازية على مقربة من المدينة المنورة التي خصها الرسول ﷺ من هذه الوصايا بالذكر، وأنشأوا يؤسسون وطنا لليهود في جوارها من فلسطين التي يدعون أنها لهم وحدهم ، وسيطلبون ضم خيبر اليها ، بأنها كانت لهم وأخرجهم عمر بن الخطاب منها .

فاذا لم تتعاون جميع الشعوب الاسلامية على مساعدة حكومة الحجاز بالمال والنفوذ الصوري والمعنوي على حفظ الحجاز وعمرانه ، بل إلجائها الى ذلك واضطرارها اليه ، فستقطّع قلوبهم اسفا وندما ، ويذرفون بدل الدموع دما، إذ لاذات مندم ، ولا متأخر ولا متقدم؛ ولقد كنت في حيرة لاأهتدي السبيل إلى أقرب الوسائل لهذا العمران ، حتى وجدته مرسوما في هذه الارتسامات ، داحضة أمامه جميع الشبهات ، فبادروا اليه أيها المسلمون (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) .

وكتبه ناشر الارتسامات .

السيد محمد رشيد رضا

منشىء مجلة المنار

الارتسامات اللطاف

في خاطر الحاج الى أقدس مطاف

وهي الرحلة الحجازية لأمير البيان ونادرة الزمان

الأمير شكيب أرسلان

وقف على تصحيحها وعلق حواشيها

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

الطبعة الاولى في سنة ١٣٥٠

مطبعة المنار بمصر

شارع الأنشا رقم ١٤

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الخلاق ، وسبحان الله وبحمده في العشي والإشراق ، ونشهد أن لا اله الا الله شهادة الاخلاص التى نرجو بها الخلاص يوم التلاق ، وتهون بها سكرات الموت اذا حشرجت الانفس في التراق ، ونشهد ان محمداً عبد الله ورسوله اشرف الخلق على الاطلاق ، المبعوث لاقامة الحق والعدل وإتمام مكارم الاخلاق ، بكتاب باهر الحجة ، وسنة واضحة المحجة ، وبراهين كالصبح في الانفلاق ، والشمس في الائتلاق ، صلى الله عليه وعلى آله الغطاريف ، وعلى اصحابه الصناديد ، وعلى انصاره الكرام العتاق ، الذين نشروا التوحيد المحض في الآفاق ، وجمعوا كرم الافعال الى كرم الأعراق ، ما هبت نسائم الاسحار ، وتفتقت كمائم الازهار ، وسجعت الورق على الاوراق ، وسلم تسليما كثيرا

(وبعد) فقد مضت علي حجج كثيرة وانا اهمّ باداء فريضة الحج ، والعوائق تعوق ، والموانع من حول الى حول تحول ، الى ان يسر الله بلطفه وحسن توفيقه لي اداء هذا الفرض في سنة ١٣٤٨ أي منذ سنتين كاملتين . فكان قصدي الى الحجاز من لوزان بسويسرة ، عن طريق نابولي

بايطالية ، اذ ركبت منها البحر على باخرة انكليزية الى بور سعيد حيث نزلت ، وفي اليوم التالي ذهبت الى السويس ، ومنها ابحرت الى الحجاز ، في باخرة مكتظة بالحجاج ، فأحرمنا ولبينا من بحر رابغ ، ووصلنا الى جدة من السويس في اليوم الرابع ، على ماوصفت في رحلتي الحجازية التي سيقرأها المطالع . وفي مساء يوم وصولي الى جدة يسر الله دخولي الى البلد الامين . مبادرا الى البيت العتيق بالطواف ، والى المروة والصفا بالسعي ، وبعد ذلك بيومين صعدنا الى منى فعرفة ، ثم افضنا منها الى المزدلفة ، حيث بتنا ليلة ، ثم عدنا الى منى حيث لبثنا ثلاث ليال ، وعدنا الى البيت الحرام ، وتممنا مناسك الحج ، والله يتقبل منا ، ويتوب علينا ، انه قابل التوب غافر الذنب العلي الكبير ، لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ويعفو عن كثير

ولقد وجدت مناسبا ان انشر ما ارتسم في مخيلتي من هذه المشاهد ، وما انطبع في لوح دماغي من مناظر تلك المشاعر المباركة والمعاهد ، مقرونا بما يعن لي من الآراء ، مشتملا على ما عندي من الملاحظات التي احب أن يطلع عليها القراء ، فارسلت الى جريدة « الشورى » بمقالات كنت أنشرها فيها الفينة بعد الفينة ، ذاكراً فيها مكة وعرفة ، ومنى والمزدلفة ، وتلك البقاع المعظمة المشرفة ، ولما كنت بعد ذلك قد صعدت الى الطائف مستشفيا من سقم اصابني في اثناء اداء الفريضة ، كتبت

أيضا عن الطائف وجبالها ومرابعها ومنازهها، وجنانها وكرومها وفواكهها، ولم أقتصر في الوصف على جنانها الناضرة ، وأحوالها الحاضرة ، بل كررت النظر الى الوراء من امور تاريخية ماضية ، ومددته الى الامام في امور اجتماعية مستقبلة ، بحيث جمعت في هذه الرسائل بين مباحث جغرافية وتاريخية ، ومواقف سياسية واجتماعية ، ومسائل عمرانية واقتصادية ، ودقائق لغويه وأدبية ، متناولا من القديم والحديث، ومتنقلا بين التالد والطريف . ومن حيث اني كنت أصدرها من وقت الى آخر في جريدة سيارة كانت هيئتها اقرب الى اسلوب الجرائد منها الى أسلوب الكتب، لان الكاتب اذا كتب بين أسبوع وآخر متأثرا بالعوامل المختلفة ، ملاحظا المتجددات اليومية ، مراعيا حالة قرائه الروحية ، ذهب به الاستطراد كل مذهب ، وشردت به شجون القول فشرق وغرب ، ولهذا جاء في هذا الكتاب استطراد ليس بيسير من فصل الى فصل ، وان كان جميعه مرتبطا بالموضوع ومردودا الى الاصل

ثم رأيت ان اكمال هذا التأليف على الخطة التي انتهجتها اولا من نشره رسائل متفرقة على الاسابيع قد يأخذ وقتا طويلا ولا ينتهي باقل من سنتين أو ثلاث ، على أني صرت مشغولا مستغرقا برحلتي الاندلسية ، التي قد تأخذ مجلدات عدة ، ولا يتأتى لي الاشتغال بغيرها هذه المدة ، فعدلت مؤخرا عن الطريقة الاولى ، وقطعت رسائل هذه « الارتسامات » عن الشورى ، وانصرفت الى اكمال هذا التصنيف توًّا

حثا مطية القلم الى غايته ، ماضيا به بلا توقف الى آخره ، فكان ما نشر منه في الشورى نحو الثلث ، وما لم ينشر في الشورى ولا في جريدة غيرها نحو الثلثين

هذا ولما تسنى اكماله ، وبلغ الابدار هلاله ، رأيت ان أتوجه باسم جلالة الملك الهمام ، الذي هو غرة في جبين الايام ، عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ، تذكارا لجميل الامن الذى مد على هذه البلدان سرادقه ، وعرفانا لقدر العدل الذى وطد فيه دعائمه وناط بالاجراء مواثقه ، وابتهاجا بالملك العربي الصميم الذي صان للعروبة حقها وللاسلام حقائقه ، أدام الله تأييده ، واطلع في بروج الاقبال سعوده ، وخلد شمسه الشارقة ووفقه للاتفاق مع سائر ملوك العرب وامرائها ، والعمل مع رجالاتها العاملين لرقيها وعلائها ، ولا سيما الملكين الهمامين ، الفاضلين الكاملين ، الماهدين المجاهدين ، المتوكل على الله الامام يحيي بن محمد بن حميد الدين صاحب اليمن ، والملك فيصل بن الحسين ، صاحب العراق والرافدين ، أدام الله توفيقهم جميعا لما به حفظ تراث الامة العربية ، وابلاغها المقام الذى تسمو اليه نفوس العرب الابية ، وحياطتها بوحدة الكلمة من سطوات الغدر ، وغوائل المكر ، التي لا تفارق حركات الدول الاجنبية ، والله تعالى سميع الدعاء ، كفيل بتحقيق الرجا : آمين

وكتب بلوزان في ٥ ذي الحجة الحرام ١٣٤٩

شكيب أرسلان

من السويس الى جدة

(ووصف الاحرام والتلبية)

فصلنا من ميناء السويس في ٨ مايو على باخرة تقل نحواً من ١٣٠٠ حاج من اخواننا المصريين ، وفيهم بعض المغاربة ، فسارت بنا الباخرة رهواً ورخاء لم نشعر فيها الى جدة بأدنى حركة للبحر تزعج الراكب ، وانما كان المزعج هو اكتظاظ السفينة بالراكبين حتى لا يقدر أحد أن يمر من شدة الزحام

وفي اليوم الثالث من مسيرنا ناوحنا ميناء رابغ ، ولما كان الحجيج الوارد من الشمال في البحر الاحمر عليه أن يحرم من رابغ فقد احرم جميع الحجاج الذين في الباخرة ، وارتفعت الاصوات من كل جهة «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك» فاستشعر الناس من الخشوع في اثناء ضجيج الحجيج هذا ما اتصل باعماق القلوب ، وتغلغل في سرائر النفوس ، وأحس الجميع ان البيت الذي يخلع الناس تعظيما له اثوابهم قبل الوقوف بعتبته بمسيرة يومين، ويشتملون في القصد اليه ما ليس فيه شيء من المخيط ، لبيت مقدس ، لايؤمه الناس كما يؤمون سائر البيوت ، وانه فوق بيوت الملوك ، وفوق مقاصير القياصرة، وأواوين الاكاسرة ، التي لايحرم في الطريق اليها احد لا من بعيد ولا من قريب

وما زال الناس مستشعرين الخشوع تلك الليلة ، مواظبين على التلبية، مترقبين طلوع الفجر الذي يدنيهم من جدة، ميناء البيت العظيم الذي يؤمونه، إلى أن انفلق الصبح ، وأخذت تبدو جبال الحجاز للعين المجردة ، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتسبيح والتكبير، وازداد ضجيج التلبية للعلي الكبير ، وخالط الهيبة والخشوع

بالقدوم على البيت الحرام ، الفرح والابتهاج بالوصول إلى أطهر بقعة وأقدس مرام ، ولم تكن ترى إلا عيونا شاخصة ، ولا تحس الا قلوبا راقصة ، والجميع متطلعون إلى سواحل الحجاز منتظرون بذاهب الصبر أن يقبلوا على جدة . فلما كان ضحى اليوم الرابع من ذي الحجة دخلت الباخرة مرسى جدة ، لكن بتؤدة عظيمة لما في هذا المرسى من الجبال والصخور التي تكاد رءوسها تبرز من تحت لجج البحر وإذا بخمس عشرة باخرة راسيات في ذلك الميناء على أبعاد متفاوتة من البر

وصف جدة وغرابة الوان بحرها

ولقد طاب لي من ميناء جدة منظران لا يزالان إلى الآن منقوشين في لوح خاطري (احدهما) رؤية هذه البواخر الواقفة في الميناء ناطقة بلسان حالها : انه وإن كانت هذه السواحل قفاراً لا تستحق ان ترفأ اليها البوارج ولا السفن فان وراءها من المعنوي امراً عظيما ، ومقصداً كريما ، هذه البواخر الكثيرة ماثلة أمام جدة من أجله ، ولقد قيل لي في جدة ماذا رأيت ؟ فمن العادة ان تجتمع في مياه جدة ثلاثون باخرة وأربعون باخرة ، وقد يبلغ عدد الراسي فيها الى خمسين باخرة ، حتى يعود البحر هناك غابا أشباً ، وتظن نفسك في هامبورغ أو نيويورك

وأما المنظر الثاني فهو منظر مياه هذا الميناء ، فلقد طفت كثيراً من البحار وعرفت أكثر البحر المتوسط والبحر الاسود وبحر البلطيك وبحر المانش والاوقيانوس الاطلانتيك ، ولم يقع بصري على شيء يشبه مياه بحر جدة في البهاء واللمعان . كنت كيفما نظرت يمنة أو يسرة اشاهد خطوطاً طويلة عريضة في البحر اشبه بقوس قزح في تعدد الالوان ، وتألق الانوار ، من احمر وأزرق وبنفسجي وعنابي وبرتقالي وأخضر الخ . ولا فرق بين هذه الخطوط وبين قوس قزح سوى ان هذه الخطوط مستقيمة وان قسي قزح مقوسة ، وان هذه في السماء ، وهاتيك في الماء ، وقد تشبه هذه الخطوط ذيول الطواويس ، لا فرق بينهما إلا في كون هذه الذيول

المنسحبة على وجه البحر عظيمة جداً تمتد مئات من الامتار وبعرض عشرات منها ، ولكن في تعدد الالوان وموازاة بعضها لبعض وشدة تألقها الآخذ بالابصار لا تجد بينها بونا . فكأن في كل جهة من بحر جدة مسرح طواويس سابحة في اللجج الخضر وظهورها إلى سطح الماء الواحد منها بقدر الف طاووس مما نعهد

قضيت العجب من هذا المنظر وقلت ان مثل هذا الميناء لا تمله النواظر ، ولا تشبهه المناظر ، مهما كانت نواضر . ثم سألت ربان الباخرة - وهي من البواخر الهندية ربانها انكليزي - عما إذا كان رأى هذا المنظر في بحر آخر وقلت له إني جلت كثيرا في الدنيا ، ورأيت أبحرا وبحيرات وأنهارا لا تحصى ، ولم أعهد مسرح لمحة على سطح ماء يحاكي في البهاء هذا الميناء ، فماقولك انت ؟ قال لي : مهما يكن من سيرك في الارض ومعرفتك للبحار فلا تعرف منها جزءاً مما اعرف ، وانا اقول لك اني لا اعهد هذه المناظر البديعة الا لهذا الميناء وحده . فسألته عن السبب في تشكل هذه الالوان . فقال : ان قعر البحر هنا ليس ببعيد وان فيه اضلاعاً مكسوة نباتا بحريا متنوع الالوان والاشكال ، وان هذه الاضلاع ناتئة قريبة من سطح الماء فتنعكس مناظرها الى الخارج ، ويزيدها نور الشمس رونقا واشعاعا

وقيل لي فيما بعد ان ملوحة البحر الاحمر زائدة ، وان هذه الملوحة هي السبب في تكون هذه الشعاب التي تكثر في هذا البحر وتجعل مسالكه خطرة ، وان هذه الشعاب تنمو وتعلو حتى تقارب سطح الماء ، ومنها مايبرز عن سطح الماء فيكون جزيرة . وان هذه الشعاب متكونة من أعشاب وحيوانات بحرية من طبقة الاسفنج ، وهي ذوات ألوان شتى كلها ناصع ، ومنها ماهو أحمر ساطع ، ومنها ماهو أخضر ناضر ، ومنها ماهو اصفر فاقع ، ومنها ماهو دون ذلك ، وقد يقتلع الملاحة والغواصة منها أشجاراً تسمى بشجر المرجان ، وهي في غاية الجمال ، ومن ابهى مايوضع في ابهاء القصور للزينة .

فهذه الشعاب هي التي تنعكس ألوانها على سطح الماء فتكون اشبه بذيول الطواويس أو بقسي السحاب ، وهي في الوقت نفسه الاخطار الدائمة على السفن، والغيلان المتحفزة لابتلاعها. فسبحان الذي أودع فيها الحسن ولكنه أنزل فيها البأس ، وجعلها غائلة للمراكب . ولقد صدق المثل (ان من الحسن لشقوة)

قالوا : وان آمن مرسى في الحجاز مرسى رابغ، ذلك لعمق غوره وقلة شعابه، وعللوا ندور الشعاب فيه بكون ملوحة بحر رابغ اقل من ملوحة سائر المراسي، وهذا من كثرة السيول المنصبة على رابغ ، فالماء الحلو قد نقص من ملوحة ميناء رابغ ، وعافاه من تلك الشعاب التي هي آفة الموانىء الاخرى في البحر الاحمر

وحبذا لو قامت هيئة جيولوجية بالفحص اللازم لاحوال البحر الاحمر الطبيعية وأعطت حكمها في اسباب تكون هذه الشعاب وكثرتها في هذه الموانىء ، وفي منشأ هذه المناظر الجميلة التي تلوح للرائي اذا أقبل عليها، فان الاسباب التي ذكرناها لم نتوكأ فيها على تقرير فني، بل على الكلام الذي يدور على ألسنة الناس

هذا ما كان من تأثير بحر جدة في خاطري . فأما بر جدة فالبلدة لا بأس بها ، ولا يوحش الداخل منظرها . نعم ان بناءها لا يزال كأنه من القرون الوسطى، ولكن بناء القرون الوسطى ليس كله منبوذاً . وقد بدأ المهندسون يقلدونه ويرجعون إلى كثير منه . ولعمري لست ممن يحب الجدة لجدة في طرز البناء ولكني اتمناها لها في استعمال الآلات الميكانيكية الحديثة ، والطرق العصرية في مرافق الحياة وفي الصناعة والتجارة وسائر أركان العمران ، وأما اسلوب البناء فليس فيه مايستهجن بل أرى نجارة الابنية فيها راقية . وهذه الرواشن الكثيرة اللطيفة التي قد أعجبت الكولونل لورانس الانكليزي — يوم جاء جدة في الحرب الكبرى — قد أعجبتني انا ايضا

وقد اخنت الحرب الكبرى على معظم عمران جدة فيما اخنت عليه من عمران هذا العالم . وازداد جزرها في الحصار الاخير ـ قبل ان استولى عليها الملك ابن سعود فلما ألقت بمقاليدها إلى جلالته بدأ يتراجع اليها العمران ، واستؤنف النشوء . ولا تمضي سنوات معدودات حتى تسترجع درجة عمرانها السابقة

شعوري القومي

في جدة والحجاز

يلذ الانسان عند دخوله إلى جدة تذكره انها باب مكة المشرفة وان المزار أصبح قريبا . وقد لذني انا يوم دخولي اليها زيادة على ذلك ماشعرت به من اني هنا لست تحت سيطرة أوربية ... نعم شعرت منذ وطئت بقدمي رصيف جدة اني عربي حر في بلاد عربية حرة . شعرت اني تملصت من حكم الاجنبي الثقيل الملقى بكلكله على جميع البلاد العربية - ويا للاسف - حاشا مملكتي الامامين عبدالعزيز ابن سعود ويحيى بن محمد حميد الدين .

شعرت اني حر في بلادي وبين أبناء جلدتي ، لا يتحكم في رقبتي المسيو فلان ولا المستر فلان الخ بحجة انتداب او احتلال ، او سيطرة او حماية او وصاية ، او غير ذلك من الاسماء المخترعة التي يراد بها تنعيم مس «الفتوحات» وتخفيف مرارتها في الاذواق .

شعرت اني إن كنت خاضعا هنا لحكومة فكخضوع لويد جورج لحكومة إنكلترة ، وكخضوع كليمنسو لحكومة فرنسة ، اي اني خاضع لحكومة عربية بحتة رأسها وأعضاؤها مني وإلي وانا منها واليها ، وبعبارة أخرى اني هنا خاضع لنفسي ، وان كل من أراه من رعاياها انما هو خاضع لنفسه ، وأن الامر في هذه الديار مع العرب هو على حد ماقال الصوفية : المكلف هو المكلف . وان تعداد الوجودات هو تعداد ألوان لا تعداد أنواع

شعرت ان رئيسي هنا هو ابن جلدتي الذي يغار علي كما أغار على نفسي ، وان الجند الذى يحيط بي ويحفظ الامنة علي وعلى غيري هم ممن أجتمع واياهم في ارومة واحدة ، وممن أرمي واياهم الى هدف واحد ، فلا تثقل علي سلطتهم ، ولا يتكاءدني

الخضوع لنظامهم، لاني أرى فيه نظام أمتي وانتظام شملي . وليس هنا ذلك الرئيس الغاشم ، الثقيل الوطأة ، السيء النية ، المتكبر المتجبر المتغطرس ، الغريب عني ، الذى لست منه ولا هو مني ، الآتي إلى بلادي ليتحكم في أمورها ويستغل خيراتها ، ويضرب على سكانها الذل والمسكنة ،لانه لا يقدر ان يعتز إلا بذلهم ، ولا ان يثري إلا بفقرهم ، ولا ان يقوى إلا بضعفهم ، ولا ان ينصع وجهه إلا بفقر دمهم . وسيأتي يوم نقول فيه : ولا يحيا إلا بموتهم

لم أكن هنا في البلاد التي مع انها وطني ووطن آبائي وأجدادي ، ووطن قومي وأمتي ، وجنى سواعدهم ، وثمرة دمائهم التي سالت فيها أنهاراً ، لا يؤذن لي ان ألقي عليها نظرة بعد غربة متطاولة ، ونبوة متمادية ، ولا ان أدوس على ترابها بقدم خفيفة ولو ساعة من الزمن ، وذلك لان غريبا غلب عليها فقبض على أعنتها وتصرف بها كيف شاء ، يدخل من يشاء ويخرج من يشاء ، فأصبح هو صاحب البيت وأصبح أصحاب البيت هم الغرباء . .

شعرت في الحجاز اني تظللني راية عربية محضة حقيقية ، لا راية مشوبة بشعار أجنبي ، ولا راية ليس يسير من تحتها جند عربي إلا ما كان من قبيل مرتزقة او مستأجرين تحت قيادة من لا يرقب في هذه الامة إلاً ولا ذمة ، وانما ينظرون اليها كطعام للامم التي تدعي عليها الوصاية وكتمم لاسباب رفاهيتها ونعيمها

لقد صدقت الجريدة الدمشقية التي قالت : انه لم يبق في البلاد العربية بلاد أقدر ان أدخلها إلا الحجاز . والحقيقة اني أدخل أية بقعة أردت دخولها من جزيرة العرب حامداً لله على بقاء هذه الجزيرة تحت سلطان أهلها دون سواهم ، وعلى ان حكومات الحجاز ونجد واليمن لا تعرف شيئا من الامتيازات الاجنبية التي تكاد تغرق في لججها الامم التي تحت الوصاية ، والتي لا يزال منها رسيس حتى في تركيا فالافرنجي - سواء في مملكة ابن سعود او في مملكة الامام يحيى - خاضع للشريعة الاسلامية بجميع أحكامها

الملك ابن السعود

ثم شاهدت جلالة ملك هذه الديار وخادم الحرمين الشريفين عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن سعود وكان في جدة ذلك اليوم ،فوجدت فيه الملك الاشم الاصيد، الذي تلوح سيماء البطولة على وجهه ، والعاهل الصنديد الانجد الذي كأنما قدّ ثوب استقلال العرب الحقيقي على قده ، فحمدت الله على ان عيني رأت فوق ماأذني سمعت،وتفاءلت خيراً في مستقبل هذه الامة؛

لاأقصد في اعجابي هذا بشخصية الملك ابن سعود تنقص أحد من ملوك العرب الآخرين ، ولا التعريض باي ملك او أمير ينطق بالضاد ، بل نحن نتمنى تأييد الجميع وتسديد الجميع كما نتمنى تأييد ابن سعود وتسديده بدون فرق ، وحبا بمصلحة الامة العربية التي استقلالها مربوط باستقلالهم فأما اذا كانوا يشترطون على المحب لهم والمتواجد على خيرهم ان يكره لهم ابن سعود ، او ان يسكت عن الاشادة بحسناته، والاعجاب بما آتاه الله من المواهب ،فان شرطا كهذا ليس من الانصاف في شيء ويكون من البديهي اننا لانقبله

ركبت بدعوة جلالة الملك ابن سعود إلى يساره في السيارة (اصطلحوا في الحجاز على تسمية الاوتوموبيل سيارة وقد يقولون موتر اي Moteur ويجمعونها على مواتر) وسرنا بمعيتـه مساء يوم وصولي ، وذلك إلى البلد الامين ، حماه رب العالمين

ولم أجد الحرارة في جـدة فوق ماتتحمله النفس حتى نفس الذي لم يتعود الحر، نظير هذا العاجز. بل هواء البحر يرطب جو جدة ويخفف من سموم الصحراء، وذلك بخلاف مكة التي حرها شديد

الطريق من جدة الى مكة

فأما الطريق من جدة إلى مكة في هذا الفصل فليس فيها مايسرح به النظر في مؤنق او ناضر . فلا ترى من أولها إلى مايقارب آخرها غصنا أخضر يلوح، ولا رقعة بقدر الكف خضراء . ولا يكاد يقع بصرك من الجانبين إلا على رمال

محرقة تدخل العشايا ويجن الليل وهي حافظة لحرارة النهار ، وعلى آكام وأهاضيب أكثرها من الحجارة السود كأنها من بقايا البراكين

ولما وصلنا الى بحرة ظننت اني أرى فيها قرية أشبه بالقرى فاذا بمجموع عشاش واخصاص وبيوت لاترضي ناظراً ، وهناك اماكن استعاروا لها اسم المقاهي ،وهي في الحقيقة اخصاص تشتمل على مقاعد من خوص يجلس عليها المسافرون الذين بلغ بهم الجهد ، فيشربون شيئا من الشاي او ينقعون غلتهم بماء لا غناء فيه . وكان الاولى بأهل مكة وجدة ان يجعلوا من بحرة منزلا تقرّ به عين المسافر ويجد فيه خضرة ونعيما بعد تلك الرمال المحرقة والآكام الجرداء والامل ان حكومة الملك ابن سعود تنظر الى هذه العلة فتزيلها

وقد قيل لي ان طريق جدة الى مكة ليست طول السنة في هذه القسوة التي رأيتها فيها ، بل هي في الربيع غيرها في الصيف إذ يرى منها المسافر في الربيع كلأً كثيراً ، وخصباً نضيرا ، وقتاداً وطلحا ، وشجراً وسرحا

وكانت قوافل الحجاج من جدة الى مكة خيطا غير منقطع والجمال تتهادى تحت الشقادف ، وكثيراً ماتضيق بها السبيل على رحبها ، وكان الملك أيده الله من شدة اشفاقه على الحاج وعلى الرعية لايرفع نظره دقيقة عن القوافل والسوابل ولا يفتأ ينتهر سائق السيارة كلما ساقها بعجلة قائلا له : تريد ان تذبح الناس . وكل هذا لشدة خوفه ان تمس سيارته شقدفا او تؤذي جملا او جمالا ، وهكذا شأن الراعي البر الرؤف برعيته ، الذي وجدانه معمور بمعرفة واجباته

وما زلنا نسير حتى دخلنا حدود مكة التي يحرم فيها الصيد فالمسافة بالسيارة لاتتجاوز اربع ساعات ، وبعد ذلك وصلنا الى الثكنة العسكرية وصرنا بين البيوت ، فعلمنا اننا تشرفنا بدخول البلدة التي تشرفت بمولد محمد سيد الوجود ، وبالبيت الذى طهره ابراهيم واسماعيل للطائفين والعاكفين والركع السجود ، فقصدنا توّاً الى البيت الحرام حيث طفنا وسعينا ، وجأرنا ودعونا ، والله يتقبل الدعاء ويغفر الذنوب في ذلك المقام الكريم (قل ياعبادي الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم)

الكلام على مكة المكرمة

(صفتها الحسية ، ومكانتها المعنوية ، وكعبتها البهية ؛ وهوي القلوب اليها من جميع البرية ، ورزقها من جميع الاغذية والثمرات ، استجابة لدعاء ابراهيم عليه السلام)

جعل الله مكة مكانا لعبادته تعالى لاغير . وكأنه سبحانه وتعالى لما قضى بأن تكون محلا للعبادة ومثابة للناس وأمناً، قضى ايضاً بتجريدها من كل زخارف الطبيعة، ولم يشأ أن يطرزها بشيء من وشي النبات ، ولا أن يخصها بشيء من مسارح النظر المؤنقة، حتى لايلهو فيها العابد عن ذكر الله بخضرة ولا غدير ، ولا بنضرة ولا نمير ، ولا بهديل على الاغصان ولا هدير ، وحتى يكون قصده إلى مكة خالصاً لوجه ربه الكريم، لايشوبه تطلع إلى جنان أو رياض ، ولا حنين الى حياض او غياض . وحتى يبتلي الله عباده المخلصين الذين لا وجهة لهم سوى التسبيح له والتأمل في عظمته تعالى، فكانت مكة أجرد بلدة عرفها الانسان، واقحل بقعة وقعت عليها العينان .

مكة هذه البلدة المقدسة التي هي فردوس العبادة في الارض وجنة الدنيا المعنوية ، عبارة عن واد ضيق ذي شعاب متعرجة ، تحيط بذلك الوادي جبال جرداء صخرية صماء ، لاعشب ولا ماء ، قاتمة اللون كأنها بقايا البراكين ، إذا مر عليها الانسان يوم من أيام الصيف في هاجرة ظن نفسه يدوس بلاط فرن او يضطجع في حمام. وان ترك على تلك الصخور لحما كاد يشتوى بلا نار ، او ماء كاد يغلي بلا وقود . وليس في تلك الشعاب اشجار ولا أنهار ، ولا مروج ولا عيون تلطف من حرارة تلك الحجارة السود في حمارة القيظ . وكأن القاصد

إلى هذا الوادي انما يزداد بهذه القسوة الجغرافية أجراً وثوابا وارتفاع درجات . فبقدر ما أفاض الله على هذا المكان من الشعاع المعنوي قضى بحرمانه من الحلية المادية .

وقد وصف الله تعالى هذه الحالة فقال عن لسان ابراهيم ﷺ (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة) وظاهر من هنا انه واد مجرد للعبادة دون غيرها ، وانه غير ذي زرع ولا ضرع ليزداد اجر الناس بالقصد اليه والعكوف فيه . ولما كان شد الرحال الى واد كهذا خال من جميع اسباب الحياة تقريبا ليس مما يرغب فيه الناس الذين من عادتهم ان يقصدوا الاماكن الرغيدة والمتنزهات ، وأن يعولوا على البقاع المريعة التي يأتيها رزقها رخاء ورغداً دعا ابراهيم ربه فقال (فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)

فبدعوة ابراهيم هذه هوت الى هذا المكان والى المتمكنين فيه أفئدة ورفرفت عليهم جوانح من جميع فجاج الارض ، وترى الناس منذ ألوف من السنين يحجون هذا البيت المحرم ، ويحرمون قبل الوصول اليه بمراحل ، ويوفضون اليه كأنما يوفضون الى انزه بقاع البسيطة واطيبها نجعة واكثرها خيراً وميرا ، وتجد قلوبهم في الرحلة اليه ملأى بالفرح ، لايكادون يصدقون انهم مشاهدوه من شدة الوجد ، وغلبة الهيام ، حتى اذا شاهدوه فاضت العبرات وخفقت الجوانح وتمايلت الاعطاف ، وانتقل الناس الى عالم تكاد تقول انه غير هذا العالم قال ابن دريد :

يحملن كل شاحب محقوقف   من طول تدآب الغدو والسرى
ينوى التي فضلها رب السما   لما دحا تربتها على البنى
حتى اذا قابلها استعبر لا   يملك دمع العين من حيث جرى

وهم اذا وصلوا الى مكة وجدوا عندها من الثمرات والخيرات مالا يجدونه

في البقاع التي تشقها الانهار، وتظلها الاشجار . وذلك أن المجلوب الى مكة من أصناف الحبوب والخضراوات والفواكه والمحمول اليها من البضائع والمتاجر واللباس والفراش والرياش والطيب وغير ذلك يفوق مايجلب الى عشر مدن من أمثالها في عدد السكان وربما أكثر .

ولا يكاد الحاج يشتهي شيئا إلا ويجده في هذه البلدة القاحلة ، فحول مكة من المزارع والمباقل والمباطخ والمقاثي، وفي جبال الطائف من الجنان والبساتين والكروم مالا يأخذه العد، ومالا يدرك منه شيء في فصل من الفصول إلا انحدر به اهله الى مكة ، فالثمرات التي دعا ابراهيم ربه من أجلها تفيض على البلد الأمين كالسيل المتدفق ،أو العارض المغدق

مياه مكة في الجاهلية والاسلام

وأما الماء فقد كان في أم القرى من أيام الجاهلية آبار نبع ومصانع مما يجتمع من مياه المطر . ومن هذه الآبار اليسيرة التي حفرها لؤي بن غالب ، والروي التي حفرها مرة بن كعب، وخم ورم وهما من حفر كلاب بن مرة، والجفر والعجول وبذر التي حفرها هاشم بن عبدمناف . وسجلة وخم ورم أخريان حفرهما عبدشمس بن عبد مناف وأم احراد ، والسنبلة وهي حفر بني جمح، والغمر لبني سهم، والحفير لبني عدي ،والسقيا لبني مخزوم، والثريا لبنى تيم،والنقع لبني عامر بن لؤي، وبئر حويطب لحويطب بن عبدالعزي من بني عامر بن لؤي، وبئر أبي موسى الاشعري بالمعلاة ، وبئر شوذب ، وبئر بكار، وبئر وردان ، وسقاية سراج ، وبئر الاسود للاسود ابن سفيان من مخزوم، وغيرها، ومن هذه الآبار ماهو معروف الى اليوم باسمه ومكانه ، ومنها ماقد طوي اسمه أو ردم مكانه، فاذا سألت علماء مكة لم يعرفوه. والظاهر ان جميع هذه الآبار لم تكن لتكفي مكة في الجاهلية، الى أن وسع عبدالمطلب بئر زمزم فكثر الماء وارتوى الحجيج .

عين زبيدة رحمها الله

أما بعد الاسلام فكثر الحجاج أضعافا مضاعفة عن ذي قبل ، واشتدت أزمة الماء ، لاسيما في عرفة ومنى أيام الحج ، فانتدبت زبيدة امرأة الخليفة هارون الرشيد رحمها الله لهذا الامر وأسالت العين المسماة بعين زبيدة من مسافة نحو اربعين كيلو متراً ، وهو عمل عظيم جداً يستنطق الالسن بالترحم عليها كلما ذكرت أو كلما روى حاج ظمآه أو أسبغ وضوءه منذ نحو ١١٠٠ سنة الى اليوم - والى ماشاء الله

ولقد جرت زبيدة رحمها الله هذا الماء من وادي نعمان الشهير في قناة كانت تنتهي قبل الوصول الى مكة بمسافة ثلاثة ارباع الساعة ، وهذه القناة اكثرها تحت الارض ، وفي بعض الاماكن تظهر على وجه الارض تابعة لخطتها الهندسية ، وأما علو سقف القناة ففي بعض الاماكن يقدر أن يمر فيها الفارس راكباً ، وفي غيرها لايقدر أن يمشي إلا الراجل ، وليس خطها مستقيما على اطراد بل فيه تعاريج كثيرة قد تكون اقتضتها طبيعة الارض أو يكون مهندسو القناة مروا بعيون أرادوا أخذها في طريقهم فعرجوا عليها. وحيطان القناة من الجانبين غير مطلية بالجير ولا مجصصة، بل مبنية بالحجر البسيط وذلك حتى ترشح الماء من خلال الحيطان ، لان الجص من شأنه أن يمنعه كما لايخفى ، ومن دقائق هندسة هذه القناة انهم جعلوا انحدار الماء في المجرى خفيفا وذلك خشية من ان يحفر في الارض فيما لو كان شديداً فتصير أرض المجرى مع توالي القرون أسفل كثيراً من الحيطان فتصبح هذه على شفا جرف هار ، ولهذه القناة خرزات مفتوحة من سطحها على مسافة كل ٢٠ أو ٣٠ ذراعا واحدة وذلك لاجل سهولة التعزيل

قالوا ان زبيدة انفقت على هذه العين مليون دينار ، وانها لما انتهت من العمل جيء اليها بدفاتر الحسابات لمراجعتها فأمرت بطيها وقالت انما عملنا ماعملناه في سبيل الله، فلا فرق بين أن تكون النفقة اكثر او اقل

وكان في الماضى موكلا بهذه القناة ثلاثمائة رجل من بيشة ، وكانوا يحرسونها ليلا ونهارا ومنهم أناس عند كل خرزة ، فأما الآن فان الحكومة جاعلة لها دركا خاصاً ومفتشين لايزالون يتعهدونها من رأس نبعها الى مكة . وقيل لي انه لايزال في وادي نعمان عيون من الممكن شراؤها واضافتها الى عين زبيدة ،

ثم انه يوجد عين أخرى اسمها عين الزعفران جددتها ملكة أخرى اسمها زعفران قيل لي انها من إحدى الأسر المالكة كانت بمصر ، ولم اجد ذلك في كتاب . فهذه العين مجرورة من وادي حنين من مسافة لاتقل عن مسافة قناة عين زبيدة إلا ان ماء عين زبيدة اغزر واعذب ، وتتصل قناة الزعفران بقناة عين زبيدة في محلة المعابدة في اول مكة من جهة الداخل من منى ، وكان احد سلاطين بني عثمان قد اوصل هذه المياه الى مكة فأكمل ذلك العمل العظيم الذي قامت به زبيدة واقتدت بها الزعفران فيما قالوا ، وبعد ذلك منذ نحو اربعين سنة جاء احد الهنود المسلمين وتبرع بمبلغ من المال وجمع من مسلمي الهند مبلغاً آخر وبنى بهذه الاموال بضعة عشر خزانا للماء ، في كل حارة من حارات مكة خزان ، فكان بذلك للناس مرفق عظيم ، وهذا الخزان يقال له اليوم بمكة « بازان » وهي لفظة انكليزية جاءتهم من الهند معناها بركة او صهريج ، ومع هذا فقد بقي الماء عزيزاً في موسم الحج فربما بيعت قربة الماء بأربعين قرشا

ولما تولى الحجاز الملك عبد العزيز بن سعود زاد سبل الماء في مكة ومنى فأزاح جانبا كبيرا من العلة ، وفي ايامه تأسس في مكة معملان للجمد (الثلج) فكان في هذين المعملين من إزاحة العلة وشفاء الغلة مالا يخفى على من يعلم حر مكة في ايام السرطان والاسد والسنبلة ، فقد اصبح اكثر الحجاج والسكان يشفون أوامهم بالماء المثلوج ، ولعمري لا اجد مؤنسا في حر كهذا الحر كألواح الجمد التي ترتاح النفس الى مجرد النظر اليها ، قبل النهل والعلل منها ، وكأنها في فصل كهذا حصون منيعة يتقي بها الانسان لفحات السموم ،

الحر في الحجاز وما يقتضيه من كثرة المياه

والحر في الحجاز نوعان: احدهما الومد وهو الحر الشديد مع انقطاع الريح ، والثاني السموم وهو الريح الحارة ، وهذه الريح اذا اتقاها الانسان بمنشفة مبلولة بالماء او بحصير مرشوش بالماء معلق فوق باب او نافذة انقلبت باردة

وبالجملة فأشد مايعاني المرء من حر مكة هو فيما لو تعرض للشمس في وسط النهار، أما المتعودون وابناء مناطق خط الاستواء فلا كلام لنا فيهم، فقد كنت اراهم في وقت الظهيرة يمشون ويتهادون في الشمس كما يمشي الواحد منا في ظلال جنة ،ولم يكن يصيبهم ادنى ضرر، ولم يكن يصاب بضربة الشمس إلا من تعرض لها من حجاج الشمال لا غير

من فوائد هذه الحرارة الشديدة في مكة في أيام الموسم انها تقتل بشدتها جميع الجراثيم المضرة ، فلا تجد في الحج شيئاً من الاوبئة السارية . وقد مات في هذا الموسم من مائتي الف حاج نحو ٢٥٠ نسمة فقط كلهم تقريبا ذهبوا بضربة الشمس . ولا أريد أن أجعل الفضل كله في قلة الامراض لحمارة القيظ بل الادارة الصحية في الحجاز بفضل تدابير مديرها وهمة الخمسة والعشرين طبيبا الذين يعاونونه هي خير ادارة صحية عرفها الحجاز الى اليوم ماعدا الايام التي كان فيها المرحوم قاسم بك عز الدين في زمن الامير عون الرفيق ،وأسس الترتيبات الصحية التي لاتزال نبراسا إلى هذه الساعة . فالدكتور محمود حمدي يحذو حذو المرحوم الدكتور عز الدين وتجده هو واطباؤه في أيام الموسم لايعرفون لذة الكرى من أجل سهرهم على صحة الحجاج . وكل سنة يستزيد الدكتور حمدي جانباً من المخصصات المالية لاجل القيام بتدابير صحية جديدة ؛وفي هذا الموسم رأيت العربات في منى ترش الحوامض المطهرة ، فكان لذلك أحسن وقع في النفوس .

وأما الجد فتقاتل به الصحية كثيراً من الامراض ولا سيما الحمى وان كانت

تنهى عن الافراط في شرب الماء المذاب من الثلج . فالثلج إذا اقتصد في شربه روح للارواح ، وشفاء الملتاح ، في مثل الحجاز - حاشا الطائف وجبالها حيث لا لزوم له ألبتة - وكنت هممت بنشر رسالة اسمها « قطف العثلوج ، في وصف الماء المثلوج ، بجوار البيت المحجوج » أصف فيها محاسن هذا الماء في مكة ايام القيظ وأجعلها تقدمة للاستاذ الاكبر السيد محمد رشيد رضا

ونعود إلى حديث الماء في مكة فقد سمعت انهم حفروا فيها في محلة الشهداء فعثروا على قني قديمة عدملية تحت الارض وعلى مياه جارية وأخرى مطمورة ، ولعل الحكومة السعودية تتابع الحفر في هذه المحلة فتنشر هذه المياه من قبرها ولعلها تهتم باضافة مياه من وادي نعمان إلى عين زبيدة . ولكن هذا العاجز يرى ان كل هذه الجهود لا تغني عن مشروع آخر لا بد منه للبلد الحرام والمشاعر العظام وهو احتفار الآبار الارتوازية

ان مكة اليوم اصبحت لا تكتفي بسد حاجتها من جهة الشرب ولوازم البيوت ولو فاض فيها الماء فيضانا يغني الحاج والسكان عن شراء الماء بالدرهم . بل مكة محتاجة إلى مياه تكفي لرش طرق وسقيا حدائق بلدية واحدار شلالات من مرتفعات مكة الكثيرة ، وان مكة بعد اليوم لمحتاجة إلى ري الشجر فضلا عن ري البشر .

ذلك ان فصول مكة الاربعة تنحصر في فصلين : أحدهما الشتاء وهو في غاية اللطف وكأنه فصل الصيف في اعالي لبنان . والثاني فصل القيظ المصادف ما يسمونه باشهر السرطان والاسد والسنبلة ، وهو فصل قد تصعد فيه الحرارة في الظل بميزان سنتيغراد إلى الدرجة ٤٥ والى ٤٩ وفي الليل يتعذر النوم حتى على سطوح المنازل . فان الذي يبقى لاصقاً بتلك الصخور من لعاب الشمس يكفي لتسخين صفحة الليل إلى أن ينبلج الصبح . وان اليوم الذي تكون فيه الحرارة ٣٨ او ٣٩ يعده المكيون معتدلا ويقولون « اليوم براد » فاذا نزلت الدرجة إلى

٣٥ قالوا « براد بالحيل » بفتح فسكون أي « برودة زائدة » وقد تأتي في هذه الاشهر الثلاثة أيام وليال مقبولة الا ان هذا من النادر الذي لايعتد به .

فالحج الشريف يصادف على مدة ستة أشهر فصل القيظ الذي فيه حر شديد وحر أشد هو حر السرطان والاسد والسنبلة . وهذا لايطيقه إلا اهالي خط الاستواء والتكارنة ومن هم في ضربهم . فاما حجاج مصر والشام والمغرب والاناضول والبلقان وتركستان وشمالي فارس وافغانستان وشمالي الهند فانهم يتطوقون من هذا الحر عذابا واصباً . وقد شاهدت علماء من العراق فسألتهم عن نسبة حر العراق إلى حر تهائم الحجاز فقالوا ان حر الحجاز أشد . وأكثر من يموت من الحجاج في المواسم المصادفة لفصل القيظ انما هم من حجاج الشمال، وذلك بضربة الشمس . وأكثر ماتصيبهم هذه الضربة في عرفات حيث يجب أن يكونوا مكشوفي الرءوس . فليتأمل المتأمل في قضية الحسر عن الرأس في عين الشمس عند ماتكون درجة الحرارة في ظل الخيمة ٤٨ بميزان سنتغراد . ومع انه يجوز للحاج اتقاء للضرر ان يستظل بمظلة عالية فوق رأسه فتجد أكثر الحجاج يتورعون عن ذلك ابتغاء زيادة الاجر والثواب وعملا بان الاجر على قدر المشقة. وهم ينسون ان الله نهى عن القاء الانسان بيده إلى التهلكة ، وان احتمال المشقة ان كان فيه أجر وثواب، فلتهور في الهلكة ليس فيه اجر ولا ثواب، بل يكاد يكون انتحاراً والانتحار ممنوع حتى في العبادة . ان الانسان لايجوز له أن يهدم بنية الله تعالى ابتغاء مرضاة الله تعالى الذي لايرضى بذلك منه . وانه ليس في الشرع الاسلامي مايجيز للمسلم أن يضر بجسمه ضرراً بيناً متحققاً ولو في سبيل التعبد. فعدم الاستظلال بمظلة عند ماتكون درجة الحرارة كما وصفنا نراه مخالفاً لروح الشرع (١) ومن باب

---

١) قد احتاط الأمير في قوله هذا ولو قال لنص الشرع لم يكن مخطئا، فالغلو في الدين منهي عنه ولو لم يكن فيه ضرر بدني محقق ولا مرجح ونصوص الكتاب والسنة في ذلك كثيرة . والافضل للمحرم أن يضحى (أي يبرز للشمس) إذا كانت الشمس لاتضره ، فان خشي الضرر كره له ، فان تحققه بالتجربة أو بقول طبيب يعتقد صدقه حظر عليه ووجب الاستظلال ، وكتبه مصححه

طلب الزيادة والوقوع في النقصان

ان الهنود الهندوس الذين يرون في فصال النفس عن هذه الحياة الدنيا رجعى منها إلى الروح الكلية التي الاتحاد بها أعلى درجات السعادة عندهم يقصدون الهلاك ويستعذبون العذاب، ويرون في المحن سبكا للنفوس وتصفية لها كما يصفي الذهب الابريز بالنار. فتجدهم في عبادتهم ينزعون إلى الموت نزوعا. ولكن الشرع الاسلامي خال من هذه العقائد وهو شرع دنيا واخرى، وكما انه نهى عن الافراط في حب الدنيا نهى عن الافراط في كرهها. وان كان الاسلام انتدب المؤمن إلى عزائم هي قوام الرجولية والانسانية فقد أوجب عليه القيام بها مالم يتحقق منها عليه ضرر او خطر. وان الموطن الوحيد الذي حبب فيه القرآن احتقار الموت هو موطن الجهاد حيث يموت البعض لحياة الكل، ولان الامة التي يعز على أفرادها أن يموتوا لا يمكنها أن تحيا. فلهذا قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فالشهادة انما وعد الله بها الذين يموتون في الذب عن بيضة الاسلام، وفي صد العدو عن أن يستذلهم ويستعبدهم، ولكنه لم يعد بها الذين يموتون من ضربة الشمس في عرفات او منى لانهم أبوا أن يتقوا لهيب حرارتها بمظلة. فتحمل المشاق في القيام بمناسك الحج واجب وفيه تمحيص للذنوب ولكن اوجب من ذلك الوقوف فيه عند الحد الذي لا يؤذن بالخطر. وكان حقاً على العلماء أن يعطوا هذا المعنى حقه في الدروس التي يلقونها في الحرم أمام الحجاج المتواردين فان قتل النفس في العبادة أشبه بان يكون منزعا هنديا من أن يكون منزعا اسلاميا.

على ان منع جميع الحجاج من مثل هذه الامور مع كثرة العامة بينهم سيبقى متعذراً. فكان الاولى أن ينظر في امر عرفة ومنى وان تقلبا عن حالتهما الرملية

الصحراوية الحاضرة . فينبغي أن يبادر إلى حفر آبار ارتوازية في طول صحراء عرفة وعرضها حتى تفيض من تحت الارض المياه إلى مافوق الارض ثم تبني القنوات والصهاريج وتغرس حفافيها صفوف الاشجار والرياحين، فتتهدل هناك الاغصان، وتتدلى الافنان، وترف الظلال، ويتسلسل الزلال، فتخف حرارة الشمس ويلجأ الحجاج في مثل هذه الايام العصيبة إلى ظل ظليل ، وهواء بليل . فتكون درجة الحرارة تحت فينان الدوح ادنى منها في الشمس بخمس عشرة درجة، ويصير الحاج إذا تعرض للشمس قادراً أن يفيء إلى الظل . وقد يجد القاريء هذا الفكر خيالا، ويصعب عليه أن يرى في تلك الصحراء حياضا وجنانا، وروحا وريحانا، وهذا كله خطأ في خطأ او استخذاء في الهمم .

فالاوربيون احتلوا بلدانا كثيرة من افريقية وآسية هي في الحرارة مثل مكة، ومنها ما هو اشد حرارة من مكة ، وترى هذه البلدان الآن - بفضل العلم والفن والدأب والثبات - غير ما كانت من قبل ، قد بدلت فيها الارض غير الارض ، وقد خفت فيها الحرارة درجات عما كانت بما اسالوا اليها من مياه ، وما غرسوا من أشجار وما احدثوا من مروج خضر وما أزالوا من غبار ، وهكذا صارت قابلة للسكنى وصار كثيرون من الاوروبيين يقيظون فيها بالسهولة ، وذلك انهم سألوا العلم فأجابهم ، واستدروا ضرع الفن فجاد عليهم واعتصموا بحبل الثبات فأورثهم الثبات نباتا ، وتغلبوا على الطبيعة وخففوا بأسها ونعموا حرشتها، ونحن باقون على ما كنا عليه في القرون الوسطى اوقريب من ذلك ، نجد كل تغيير بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وننسى ان من البدع بدعا مستحسنة لابد منها ، وان الضلالة كل الضلالة هي الجمود على القديم الذي لاقوة

له إلا حكم العادة، ولا كتاب يأمر به ولا سنة(١) وان لم يبق لنا عذر من قبل الدين والعرف رجعنا نلتمس لانفسنا المعاذير من عدم اجابة الطبيعة نفسها إلى ما نريد وأجيب ـ بشأن عرفة ـ بان صحراءها رملية وانها بحذاء جبال عالية وكل من رآها يحكم بان في باطن أرضها مياها، لا بل فيها آبار قديمة مسمولة تدل على وجود المياه، فما علينا إلا أن نجرب عملية الآبار الارتوازية في عدة مظان منها، فان رأينا الارض لم تبض بالماء في كل ذلك السهل الافيح تركنا المشروع من أساسه.

ولقد بلغني ان الملك ابن سعود ـ أيده الله ووفقه إلى كل خير ـ قد أذن لاناس من الهولانديين أن يجربوا حفر آبار ارتوازية بين جدة ومكة، فشكرت لجلالته هذا الاذن، ورجوت أن تثمر هذه التجربة بما ينشط الملك على الامر بالحفر في مواضع كثيرة من هذه البلاد من جملتها عرفة والمزدلفة ومنى. فالله قد جعل من الماء كل شيء حي في الاقاليم الباردة، فكيف في الحجاز والارض الرملية التي مثل عرفة؟ هي أسرع نباتا وابدر إلى الخضرة، فاذا جاءها الماء لم تكن إلا سنة واحدة حتى اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. وقد يؤتى من البلاد الحارة كالهند والجاوى باشجار سريعة البسوق، ورياحين باكرة السموق، لا تمضي سنوات حتى ترى فروعها في السماء، وأغصانها لاحقة بالارض، فتنقلب عرفات من هذه الغبرة الباسرة، إلى الخضرة الناضرة، التي لا تضر شيئاً بمناسك الحجاج، بل تزيدهم من الفرح والابتهاج

«١» قوله (ص) «كل بدعة ضلالة» مراده به البدعة في الدين نفسه كما يدل عليه السياق. وقول العلماء ان البدعة تنقسم الى حسنة وسيئة مرادهم به ما يتجدد للناس من المصالح والمنافع العلمية والعملية ودليلهم عليه حديث «من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء» رواه مسلم

عرفة في القديم

وخبر عبد الله بن عامر بن كريز

ان في صحراء عرفة آباراً معطلة احتفرها آباؤنا وأهملناها نحن ، فدلت على ان الابناء قصروا عن شأو الآباء، وان الابناء انما ارتفقوا بما عجز الحدثان عن طمسه من مآثر الآباء ، ولكنهم لم يزيدوا عليها شيئاً، بل هم لم يصلحوا ماعطله الدهر من حلاها . والحال ان الآخر حقيق بان يزيد على الاول، وان الذي يتسنى للخلف بما استفادوه من عبر الدهر المتراكمة ، واستثمروه من التجاريب المتكررة، لم يكن يتسنى للسلف ، فنحن نرانا بعكس القاعدة نعجز في عنفوان المدنية عن مباراة ماحققه أجدادنا في حداثتها . وليت شعري لو لم تكن زبيدة امرأة هارون الرشيد جرت مياه نعمان إلى عرفات ، من يقول ان رجلا من مسلمي اليوم فضلا عن امرأة تسمو همته إلى القيام بمشروع كهذا ؟

فعرفات التي هي ماهي اليوم من القحولة واليبوسة، والتي كان الحاج يظمأ فيها إلى الموت لولا قناة عين زبيدة المارة بها قد كانت في الماضي ذات رياض وغياض، وسقايات وحياض، انظر مافي معجم البلدان بشأن عرفات فهو يقول :

« قال ابن عباس حد عرفة من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبالها إلى قصر آل مالك ووادي عرفة . وقال البشاري فرعة قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ وبها دور حسنة لاهل مكة ينزلونها يوم عرفة والموقف منها على صيحة عند جبل متلاطىء (أي متدان إلى الارض) وبها سقايات وحياض وعلم قد بني يقف عنده الامام الخ »

وقد ذكروا في أخبار عبد الله بن كريز العبشمي الذى كان من شجعان

الصحابة واسود فتوحات الاسلام وهو الذى فتح فارس وخراسان وسجستان وكابل (بضم الباء) « انه اتخذ النباج (١) وغرس فيها فهي تدعى نباج ابن عامر واتخذ القريتين او غرس بها نخلا وأنبط عيونا تعرف بعيون ابن عامر بينها وبين النباج ليلة على طريق المدينة وحفر الحفير، ثم حفر السمينة ،واتخذ بقرب قباء قصراً وجعل فيه زنجا ليعملوا فيه ، فماتوا فتركه ، واتخذ بعرفات حياضا ونخلا وولي البصرة لعثمان بن عفان فاحتفر بها نهرين وحفر نهر الابلة . وكان يقول : لو تركت لخرجت المرأة في حداجتها على دابتها ترد كل يوم ماء وسوقا حتى توافي مكة . وكان علي بن ابي طالب يقول عنه انه فتى قريش .مات سنة ٥٩ »

فالاسلام ولا سيما العرب في أشد حاجة اليوم إلى رجال كعبد الله بن عامر ابن كريز العبشمي الفاتح المائح المعمر المثمر الذى كان مغرما بالعمارة حيث حل وأينما ارتحل. وناهيك بمن يقول فيه أمير المؤمنين كرم الله وجهه انه «فتى قريش»(٢)

ولنا الرجاء في معالي همم جلالة ابن سعود الذى حضر طائفة كبيرة من الاعراب وبنى لهم « الهجر» (جمع هجرة — وأصل معنى المهاجرة في العربي النزوع من البادية إلى الحضرة (٣) وحملهم على الحرث والزرع ولا يزال يشوق الناس إلى الحضارة- ان تنصرف تلك الهمم الشماء ، إلى استنباط المياه ، واحتفار الآبار

١) هو بالكسر ككتاب اسم قرية

٢) قال الحافظ ابن حجر في ترجمته من الاصابة : ولد على عهد النبي (ص) وأتى به اليه وهو صغير فقال «هذا اشبهنا» وجعل يتفل عليه ويعوذه فجعل يتبلع ريق النبي (ص) فقال النبي (ص) «انه لمسقي» وكان لايعالج أرضاً إلا ظهر له الماء حكاه ابن عبدالبر اه ثم قال وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة وأجرى اليها العين

٣) أي ثم عم استعماله في كل تحول من مكان سكنى الى غيره ومنه هجرة النبي ﷺ واصحابه (رض) من مكة الى المدينة. ولفظ الهجرة اسم للمهاجرة واسم المكان « مهاجر» بفتح الجيم بوزن اسم المفعول ، وفي نجد يسمونه هجرة

الارتوازية في الصحارى المحرقة، حتى يعود بها الغامر عامراً، واليابس ناضراً، والموات حيا، والجماد غضا طريا

ولنذكر شيئا عن البقاع التي عمرها الصحابي الجليل عبد الله بن عامر بن كريز.

فالنباج كما نقله ياقوت عن أبي منصور نباجان أحدهما موضع على طريق البصرة يقال له نباج بني عامر وهو بحذاء فَيد، والآخر نباج بني سعد بالقريتين، وقال غيره: النباج لحجاج البصرة، وقيل النباج بين مكة والبصرة للكريزيين، وقال عبد الله السكوني: النباج من البصرة على عشر مراحل، وقال النباج استنبط ماءه عبد الله بن عامر بن كريز شق فيه عيونا وغرس نخلا وولده به، وساكنه رهطه بنو كريز ومن انضم اليهم من العرب» انتهى

وأما الحفير فانه اسم لاكثر من عشرين بئراً ومنزلا في بلاد العرب، هذا على تقدير انه بوزن فعيل بفتح الاول وكسر الثاني، وأما اذا كان لفظه مصغر حفر أي بضم الاول وفتح الثاني فهو اسم لمنازل عدة أيضاً (١) وقال الحفصي اذا خرجت من البصرة تريد مكة فتأخذ بطن فلج فاول ماء ترد الحفير. قال بعضهم:

ولقد ذهبت مراغما أرجو السلامة بالحفير

فرجعت منه سالما ومع السلامة كل خير

وأما السمينة - بضم الاول وفتح الثاني على التصغير - ففي المعجم انه أول منزل من النباج للقاصد إلى البصرة. وأما قباء التي اتخذ بها عبد الله بن عامر بن كريز

(١) قال في المصباح: والحفر بفتحتين بمعنى المحفور مثل العدد والخبط والنقض بمعنى المعدود والمخبوط والمنقوض ومنه قيل للبئر التي حفرها ابوموسى بقرب البصرة «حفر» وتضاف اليه فيقال: حفر ابي موسى وقال الازهري: الحفر اسم المكان الذي حفر كخندق أو بئر والجمع احفار مثل سبب وأسباب، والحفيرة ما يحفر في الارض فعيلة بمعنى مفعولة والجمع حفائر والحفرة مثلها والجمع حفر مثل غرفة وغرف اه

قصراً فلا نظنها قباء التي في المدينة على مسافة ميلين منها على يسار القاصد إلى مكة والتي فيها المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم، ولكنني أظنها قباء التي يقول عنها ياقوت في معجمه انها «موضع بين مكة والبصرة» والدليل على ذلك ان عبد الله بن عامر ولي البصرة لعثمان بن عفان فأكثر من البناء والحفر والغراس على الطريق المؤدية من البصرة إلى مكة، فالنباج والحفير (بضم ففتح على التصغير) والسمينة (بالتصغير أيضاً) كلها على هذا السمت. فالاشبه ان تكون قباء التي بنى عبد الله فيها صرحا هي قباء التي موقعها بين مكة والبصرة. ولقد أورد ياقوت بعد ذكره قباء التي بين مكة والبصرة أبياتا للسري بن عبد الرحمن بن عتبة بن عويم بن ساعدة الانصاري، مما يوهم ان هذه الابيات قيلت في قباء هذه والاولى هو ان تكون قباء المقصودة في شعر السري بن عبد الرحمن الانصاري هى قباء المدينة المنورة لان الانصار كان لهم مساكن فيها، ولأنه يصف فيها ماء بئر عروة الشهيرة بالعذوبة والتي يقال انه كان يحمل من مائها إلى هارون الرشيد وهو بالرقة. وبئر عروة هي في ضواحي المدينة كما هو معلوم، وعندها بستان لطيف، وقد قسم الله لي النزهة «او القيلة كما يقول أهل الحجاز» عند هذه البئر منذ خمس عشرة سنة قبل الحرب العامة بقليل، ووجدت من خفة مائها وحلاوته ماتذكرته هذه المرة عند شربي من بئر جعرانة التي في ضواحي مكة.

أما الابيات التي استشهد بها ياقوت فهي هذه:

ولها مربع ببرقة خاخ ومصيف بالقصر قصر قباء

كفنوني إن مت في درع أروى واغسلوني من بئر عروة مائي

سخنة في الشتاء باردة الصيف سراج في الليلة الظلماء

وخاخ هي روضة خاخ بقرب حمراء الاسد من المدينة كانت من الاحماء التي حماها النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون يقال انها في حدود العقيق بين الشوطي

والناصفة . وقد أكثر من ذكرها الشعراء ، وكانت فيها منازل لأئمة من آل البيت وغيرهم من أعيان المدينة ،

وأما نهر الابلة الذي يقال ان عبدالله بن عامر شقه فهو نهر بالبصرة وهو إحدى جنان الدنيا الاربع بحسب قول بعضهم وهي غوطة دمشق ، وصغد سمرقند ، وشعب بوان ، ونهر الابلة. وحكي ان بكر بن النطاح مدح ابادلف العجلي بقصيدة فأثابه عليها عشرة آلاف درهم فاشترى بها ضيعة بالابلة ثم جاء بعد قليل وأنشده:

بك ابتعت في نهر الابلة ضيعة عليها قصير بالرخام مَشيد
إلى جنبها أخت لها يعرضونها وعندك مال للهبات عتيد

فقال ابو دلف : وكم ثمن هذه الضيعة الاخرى فقال : عشرة آلاف درهم فأمر ان يدفع ذلك اليه فلما قبضها قال له ابو دلف « اسمع مني يابكر ان إلى جنب كل ضيعة أخرى إلى الصين وإلى مالا نهاية له فاياك أن تجيئني غداً وتقول إلى جنب هذه الضيعة ضيعة أخرى فان هذا شيء لاينقضي » خاف ابو دلف أن تصير ضياع بكر ابن النطاح مثل مستعمرات الانكليز كل واحدة تجر جارتها وهلم جراً .

المناهل في مكة

وذكر الاعتداء على الاوقاف التي وقفها السلف

نعود إلى عرفات التي كنا فيها ، وإلى عبد الله بن عامر بن كريز المغرم كان بالعمارة وإحياء الارضين فنقول :

قال ابن حوقل -صاحب كتاب المسالك والممالك الذى عاش في أوائل القرن الرابع للهجرة ، وهو من أشهر جغرافيي العرب « وعرفة ما بين وادي عرنة الى حائط بني عامر (الحائط البستان) الى ما أقبل على الصخرات التي يكون بها موقف الامام وإلى طريق حصن ، وبحائط بني عامر نخيل ، وكذلك في غربي

عرفة بقرب المسجد الذى يجمع فيه الامام بين صلاتي الظهر والعصر في يوم عرفة ونخل الحائط والعين تنسب الى عبدالله بن عامر بن كريز — إلى أن يقول — وليس بمكة ماء جار إلا شيء قد أجري اليها من عين قد عمل فيها بعض الولاة واستتم في أيام المقتدر ، ويمتح (اى يمتد) إلى مسيل قد جعل إلى باب بنى شيبة في قناة عملت هناك ، وكانت اكثر مياههم من السماء إلى مواجن بها كانت عامرة فخربت باستيلاء المتولين على أموال أوقافها، واستئثارهم بها، وليس لهم آبار تشرب وأطيبها زمزم ولا يمكن الادمان على شربه »

هذا ما يقوله ابن حوقل ، ولا أعلم هل يقصد بهذه العين قناة زبيدة أم عيناً غيرها(١) وكنت أود لو سألنا عن ذلك القرشي العريق والعبدري العتيق الشيخ عبد القادر الشيبي زعيم بني شيبة سدنة البيت الكريم ، ومقام ابراهيم ، والذين اليهم مفاتيح الكعبة بمحكم الذكر الحكيم ، فان الشيخ الشيبي من أعلم الناس بخطط مكة، وأهل مكة أدرى بشعابها ، فكيف إذا كانوا من أعرق بيت فيها؟

وأما (المواجن) فالظاهر انه بريد بها ما نسميه اليوم (بالسبل) ولكننا لم نجد في متون اللغة المواجن بهذا المعنى وإنما (المواجن) جمع (ميجنة) وهي مدقة القصار كما لا يخفى . نعم يوجد في اللغة (ماء مجان) أى كاف مستفيض . ويوجد (مجان) اى بدون ثمن . وكلاهما يطابق هذا المعنى ، ولكن على هذا يكون ابن حوقل عدل عن (فعال) الى (فاعل)ولو أن المؤلف ذكرها مرة واحدة في كتابه لكننا نقول لعلها من غلط النسخ او الطبع ، ولكنها وردت في كلامه مراراً بالجمع (مواجن) وبالمفرد (ماجن) وكل ذلك بالنون. وأما الازرقي أبو الوليد محمد صاحب كتاب [أخبار مكة] فقد أوردها باللام فهو يقول عند ذكر العيون التي أجريت إلى الحرم (ومنها) حائط خرمان وهو من ثنية اذاخر إلى بيوت جعفر العلقمي

١) الراجح انه يعنيها إذ لم يكن ثم غيرها يطلق الكلام عليها دونها

وبيوت ابن أبي الرزام ، وماجله قائم إلى اليوم وكان فيه النخل والزرع حديثاً من الدهر وكانت له عين ومشرع يرده النـاس» ويقول في موضع آخر « وكانت عيون معاوية تلك قد انقطعت وذهبت فأمر أمير المؤمنين الرشيد بعيون منها فعملت وأحييت وصرفت في عين واحدة يقال لها (الرشاد) تسكب في الماجاين اللذين احدهما لامير المؤمنين الرشيد بالمعلاة ثم تسكب في البركة التي عند المسجد الحرام

وفي القاموس : الماجل كل ماء في أصل جبل أو واد . وقال الزبيدي في التاج : ان بعض ثقات اللغة رواه بدون همز وان الآخرين تحفظه بالهمز . وجاء في القاموس ماهو أصرح وهو ان الماجل موضع بباب مكة يجتمع فيه ماء يتحلب اليه واستدرك صاحب التاج في هذه المادة بقوله : وفي حديث أبي واقد كنا نتماقل في ماجل او صهريج ، قال ابن الاثير هو المـاء الـكثير المجتمع ، وقيل هو معرب والتماقل التغاوص في الماء

وبالاختصار المـاجل هو في مكة مايسمونه اليوم (بالبازان) وهي Bacin الانكليزية ، او Bassin الافرنسية . وهكذا الالفاظ مثل سائر الاشياء تحيا وتموت بآجال مقدرة ، ففي دور من الادوار يقولون حوض ، وفي آخر بازان الخ والمعنى واحد ، ولعلهم في زمان ابن حوقل (نحو سنة ٣٣٠) كانوا حرفوا هذه اللفظة من اللام الى النون كما قالوا في جبريل جبرين (١) وأما في زمان الازرقي (نحو المائتين للهجرة) فقد كانوا يلفظونها باللام

«١» لاشك في تحريف الكلمة وان أصلها باللام والارجح أن المحرف لها الناسخ ويحتمل أن يكون ابن حوقل نفسه فقد قال صاحب كشف الظنون انه لم يضبط الاسماء

سوء تصرف المسلمين فى أوقاف سلفهم

وأكلها بالباطل

وأما الذى لم نجده – مع الاسف – تحرف ولا تغير فهو اكل أموال الاوقاف حتى التي على حياض المـاء فقد رأيت كيف ان ابن حوقل يذكر خراب تلك المواجن أو المواجل (باستيلاء المتولين على اموال اوقافها واستئثارهم) وهذه شنشنة قلّ ان يخلو منها بلد من بلدان الاسلام ، وبسببها تعطلت هذه البلدان من الحلي التي تجدها في بلاد الافرنج . فآباؤنا لم يقصروا في حبس العقـارات الدارة على كل مايخطر في البال من طرق الانسانية ، ووسائل المدنية ، ولكن الخلف (إلا من رحم ربك) خانوا امانات السلف ، وخاسوا بعهدهم وتركونا خجالى أمام الاجانب في مساكننا ومدائننا . وكل ما اورده الشرع من الاعظام والاكبار لكبيرة الاكل من الاموال المرصدة للخير العام، بل ماقذف به من الصواعق على من يستبيح لنفسه الغلول منها، قد ذهب سدى. فالوقف لايمضي عليه قرن أونصف قرن حتى تتعاوره الايدى بالاكل والبلع(١) وكثيراً ماينـدرس ولا يبقى إلا ذكره في الكتب او على ألسنة الناس ، يأكلون في بطونهم ناراً ولا يخافون الله ولا يشعرون. ويا ليت شعري ماذا تنفع صلاة من يفعل ذلك ؟ وماذا يفيده صيامه وتلك النار في بطنه ولهذا تحامى كثير من المتورعين والمتحققين بالشرع الشريف النظـارة على الاوقاف ، وأخْذ مقابل عمله من ريعها . قال الامام خير الدين الرملي رحمه الله :

بورك لي في المر والمسحاة فمـا هو الموجب للجهات
وهي لمن قام عليها صدقة وللذي فرط نار محرقة

١) احفظ عن أخي جدي السيد احمد أبي الكمال وكان يعني بالتاريخ : في كل مائة سنة يتحول وقف طرابلس ملكا ، وملكها وقفا

أهمية المياه في الحجاز

أعود الى ذكر المياه والعيون بمكة . وقد يقال لي : لماذا هذا الاسهاب كله في قضية الحياض والقني والمواجل والبازانات وفيما عملته زبيدة وفيما عمله عبدالله ابن عامر بن كريز وغيرهما من المعمرين والمنظمين الخ

والجواب : من لم يعرف الحجاز لم يعرف قيمة المياه في الارض واذا كانت آية (وجعلنا من الماء كل شيء حي) صحيحة في اسوج ونروج ، لا بل في القطب الشمالي حيث الثلوج عامة للاقطار طامة للانظار ، فلم تكون هذه الآية الكريمة صحيحة في قطر مثل الحجاز تصعد درجة الحرارة فيه بالصيف الى ٤٧و٤٨ بميزان سنتغراد ، و كثيراً ما يعز فيه المطر فتنضب من ذلك عيون كانت جارية ، وآبار كانت دافقة ، وتتوقف سوان كانت دائرة ، وتصوح جنان كانت بهجة للناظرين ، وتموت اشجار كانت آية للسابلين ، وتصوح الرياض التي كانت اشبه بالزمرد قاحلة غبراء مربدة كأنها فيافي بنى اسد .

ان شأن الحجاز في هذا المعنى هو غير شؤن سائر البلاد ، فالماء فيه يجوز أن يوزن بالمثقال والماء فيه هو الذهب ، والماء فيه هو الماس ، ونقط الغيث فيه هي اللآلىء . وبالجملة فالماء فيه هو الحياة نفسها ، وهي اغلى من كل هذه . ولو ألف حجازي قاموس لغة وعند تعريف الحياة قال انها الماء او عند تعريف الماء قال انه الحياة لكان جديراً .

ورب قائل : ان هذا لا يخص الحجاز دون غيره بل الماء هو الحياة في كل أقسام الكرة . والجواب : انه في سائر البلاد لاتبدو من الماء هذه العزازة والكزازة التي تبدو منه في الحجاز ، واينما تحولت تجد عيوناً جارية ، واودية سائلة ،

وأحيانا تجد انهاراً مثل البحار، وبحيرات تسير فيها السفن الكبار . هذا والامطار في بعض البلاد تسح في اشهر الشتاء سحاً لا يخشى معه ظمأ ولا قحط ، وقد تشح آونة لكن سحاً لا تنضب به العيون ولا تجف الآبار، وإنما تنقص نقصا قد تنقص معه الثمرات وتذبل الاشجار، وتذوي الزروع ولكن لا يقتلها العطش هذا القتل الوحيّ الذى يقتلها في الحجاز . ومن بلاد الله ما الامطار فيها لا تكاد تقلع لا صيفاً ولا شتاء فتجدها دائما زمردة خضراء

وأما الحجاز فالغيث فيه قلما يعم وأ كثر ما ينزل نفضاً (جمع نفضة بضم أوله وهي المطرة تصيب القطعة من الارض وتخطىء القطعة) فاذا اصابت النفضة ارضاً زهت تلك السنة واثمرت وعاش أهلها . واذا اخطأتها أو جاءت بها رذاذا يبس كل ما هناك من زرع ، وعطش كل ما هناك من ضرع ، ولم يبق امام أهلها إلا التحول عنها الى ارض أخرى يكون الغيث قد سقاها . ولا يعودون الى الارض الاولى إلا اذا اصابتها الرحمة ، وقد تكون الارضات متجاورة، وانك لتجد هذه زاهية ناضرة، وهذه على مسافة ربع ساعة منها غامرة باسرة ، وذلك لأن الغيث اصاب هذه واخطأ هذه

وصادف انه لما كنا بعرفة جاءنا عارض صحبته رواعد (١) بينما نحن مفيضون من عرفات الى المشعر الحرام وكان المطر على الجبال أشد منه على الاماكن التي كنا فيها . وبعد ذلك بثلاثة اشهر كنا نتنزه في جبال الطائف فقصدنا قرية « الهدا » الموصوفة التي يفضلها كثيرون على الطائف بحجة انها أعلى مكانا وأفسح منظرا . وهي أعلى من الطائف بنحو مائتي متر. تعلو الهدا عن سطح البحر نحو ا ٠ ن

(١) العارض السحاب الذي يعرض فى الافق قبل أن يطبق السماء وحده بعضهم بما يعرض في قطر من أقطار السماء من العشي ثم يصبح وقد حبا واستوى، والرواعد السحاب التي فيها رعد . قال في الاساس : سحابة راعدة وسحاب رواعد

١٨٠٠ متر فلما دخلنا القرية لم يبق الا قليل حتى نقول انها خاوية على عروشها : وجدنا بعض أهلها نازحين الى حيث يقدرون أن يشربوا والبعض الآخر يردون المناهل البعيدة. ووجدنا تلك البساتين قد علتها غبرة الموت، فمنها ماصوح شجره، ومنها ما مات موتا لاحياة بعده. وقصدنا الى ساقية كانت مشهورة بغزارة المياه فنظرنا الى قعرها فوجدنا الذى فيها قد يكفي لشربنا فجلسنا نقيل تحت شجرات هناك ونزعنا بالدلو حتى سقينا نحن وربعنا، ولكن الانفس ارمضها منظر الاشجار المحزن فلم نمكث الا ساعتين حتى فارقنا الهدا مهرولين الى واد قريب منها يقال له وادي الكمل (بضم ففتح مع التشديد) وقد علمنا من أهل الهدا أن العارض الذى جاء الحاج يوم عرفة لم يكن ممطرهم ولقد امطر جيرانهم على درجات متفاوتة، فمنهم من رزقوا ثمرات وغلات وافرة، ومنهم من اتهم غلة متوسطة، ولكن الهدا كانت محرومة مغمورة تماما هذا الصيف كله وبقيت في هذه اللأواء ليس فيها نبت أخضر إلا الصبير حتى دخل فصل الخريف (وفي الحجاز يقولون له الشتاء ويقولون للشتاء الذي عندنا الربيع) فجاءنا الخبر ونحن في الطائف أن الهدا سقيت وأغيثت ورجعت إليها روحها .

وليس في الحجاز أوحى من أخبار المطر ، فهى لشدة غزارة القطر تسري من واد إلى واد ومن نجع الى نجع بسرعة اللاسلكي ، وتراهم من شدة ترقبهم للامطار يعرفون من مواقعها بمجرد النظر مالا نعرفه نحن في بلادنا ، فاذا تلبدت السحب في افق من الآفاق أو قصف رعد أو أومض برق قالوا لك: هذا في ارض عسير أو في بلاد ثمالة أو في الشفا أو في بلاد هذيل وهلم جرا ، وقد تكون المسافة ساعات بل أياما وتجدهم يخمنون ويصيبون . وبالجملة سكان البوادي أقرب الى الطبيعة الفجة وآلف لها ، وأعرف بالسحب ومساقط الغيث وبالارض وأنواعها والتراب وخواصه وروائحه ، والنبات وحياته ، والنجوم ومطالعها ومغاربها وما أشبه ذلك — من سكان الحواضر .

لذة الماء والخضرة فى البلاد الحارة

﴿غيرها في البلاد الباردة﴾

ترى مما تقدم ان مطرة واحدة في الحجاز تحيي وتميت ، وليس الامر كذلك في سائر البلاد التي تهطل فيها الامطار فتعم وان لم يصب هـذه القطعة عارض ممطر هذه المرة أصابها مرة أخرى . نعم ان الودق في الحجاز — وفي جميع البلاد الحارة — أشد منه في البلاد الضاربة إلى الشمال ، وان مزنة واحدة في الاحايين لاتستمر اكثر من نصف ساعة فتسيل لها اودية بقـدرها ، وتجرف وتجحف ، وقد تذهب بالحيطان والبيوت ، وقد تغتال القوافل والسوابل إذا جاءتهم على غرة . ولكن طغيان المياه هذا لايستمر الا ريثما ترفع النقطة ، فعند ذلك تنظر في الارض فاذا هى قد بلعت ماءها ، وعاد ماكنت تراه نهراً هداراً قد نضب ماؤه ، وصحت سماؤه ، وكأنه لم يمر من هناك ماء ، ولم تمطر سماء . وفي مدينة الطائف واد شهير مذكور في الكتب يقال له (وج) إذا سال هذا الوادي شبعت الطائف وكل ماجاورها خيرات وأقواتاً ، ومع هذا لايسيل في السنة كلها إلا مرة اومرتين، وكل مرة ساعة أوساعتين

فمن أجل هذا كان الماء في الحجاز أثمن وأغلا منه في سائر الاقطار ، وكان ألذ وأبهج وأعلق بالقلب وأشرح للصدر ، وكأن الماء في الحجاز يساوي المـاء خمسين مرة في الشام ومائة مرة في سويسرة مثـلا . وكأن الغصن الاخضر في الحجاز أحلى منه مائة مرة في أوربة . وكم من عين لو كنت في سورية ومررت على مثلها لم أقف دقيقة ولا نظرت اليها إلا كما أنظر إلى التراب ، فأما في الحجاز فقد كنت أقيل إلى جانبها ، وأحدق في قطرات مائها ، ولا ابرح أتحدث إلى الاخوان عن قسطلة جريها ، وصفاء لونها ، وكم من مرة جلسنا في الحجاز الى ثماد وأوشال ،

لا تمر في غير الحجاز على بال، فكنا نستعذبها ، ونتلذذ بالمقيل عندها ، كما لو كنا على نبع الباروك أو نبع الصفا في جبل لبنان

لا جرم ان الامور في الغالب نسبية تغلو وترخص وتحسن وتسمج بحسب الزمان والمكان ، وقد يلذ لك في الصيف ما تجده ثقيلا في الشتاء ، وترتاح في الاقاليم الحارة إلى ماتنفر منه في الاقاليم الباردة ،والثلج فاكهة الجروم، على حين ان النار فاكهة الصرود ، وهلم جرا . ولذلك أراني أتلذذ بالماء والظل والخضرة في الحجاز وفي الشرق كله اكثر مما أتلذذ بها في اوربة لاسيما في القسم الشمالي منها . ففي أوربة مياه تتدفق ، وأنهار تهدر، وشلالات تتحدر ، ولكن كل ذلك في جو لا ترتفع حرارته عن ١٥ او ٢٠ بميزان سنتيغراد إلا أياما قلائل من السنة ، وكل ذلك في جو مطير متلبد بالسحب اكثر السنة. فأي لذة لماء الجداول والانهار الجارية على الارض حينما تكون المياه نازلة من السماء ؟ وأية لذة يجدها الانسان في الظل الظليل والحرجات الملتفة إذا كانت الشمس في الغالب محجوبة بالغمام ؟ والماء البارد انما يولع به الخلق في بوارح القيظ يتبردون به بالعل والنهل والغسل والمجاورة . فأما إذا كان الهواء بارداً من أصله فما لك وللتبرد والابتراد ؟

ان الانسان بني مزاجه على التعديل فتجده لا يعرف الراحة والهناء الا بتسليط العناصر بعضها على بعض حتى تصل الى درجة الاعتدال ، فاذا أفرط به الحر لجأ الى الماء والثلج وأهوية الجبال، واذا افرط به البرد لجأ الى النار والشمس والصوف وأهوية السواحل . فما دام الانسان لا يشعر بالحرارة ، فالبهجة التي عنده للماء الزلال والظل والمرج الاخضر والشجر الملتف لا تكاد تذكر بالقياس الى البهجة التي عنده بها والسموم تهب والجوف يتلهب

فالجنات والعيون والانهار والاشجار انما جعلها الله نعيما في البلاد الحارة والمعتدلة كجزيرة العرب ومصر والمغرب والشام والعراق وفارس وما في ضربها

ففي هذه الاقاليم تظهر قيمتها ، ويغالي المرء في ثمنها . ويلحق بهذا الضرب من البلدان ايطالية واسبانية والجزائر التي في البحر المتوسط وجميع جنوبي أوربة

ولقد وُجدت مرة في رومية في فصل القيظ فنزرت منها الى بلدة تيفولي على مسافة ساعتين من رومية في سفح الجبل ، ونعمت من النهر العذب الفياض المنحدر من هناك ، وبشلالات ذلك النهر وبحيراته وحياضه بما لا أنساه طول حياتي ، وانما كانت درجة الحرارة البالغة ٣٤ هي التي توحي الي تلك المحاسن التي رأيتها على نهر تيفولي ، وتنطقني بهذه الفقر الشاعرة في وصفها

اثر السيدة زبيدة

من حيث قد تقرر ان الماء هو في البلاد الحارة والمعتدلة أحيا وأعذب وأبرد على الاكباد وأطيب أضعافا مضاعفة منه في البلاد الباردة فقد كان أعظم مايرزق به الانسان من الصواب والثواب، وما ترتفع به درجته في المبدأ والمآب ، هو تفجير الينابيع واسالة الجداول وتقريب المشارع في بلاد نظير الحجاز تقصد اليها الحجاج من الحار والبارد والرطب واليابس، بالالوف وعشرات الالوف ومئات الالوف زائداً إلى من فيها من السكان

فالمشروع الذي شرعته زبيدة بنت جعفر في هذا المشروع العظيم الذي فتحته لجيران البيت الحرام ، ولقصاده من جميع بلاد الاسلام ، هو كما تقدم عمل قصر عن مثله الاولون والآخرون . وانظر إلى ماقاله ابو الوليد محمد الازرقي الغساني في هذا الشأن وقد عاش في عصرها

« ثم كان الناس بعد في شدة من الماء وكان أهل مكة والحاج يلقون من ذلك المشقة حتى ان الراوية لتبلغ في الموسم عشرة دراهم وأكثر وأقل فبلغ ذلك أم جعفر بنت أبي الفضل جعفر بن أمير المؤمنين المنصور ، فأمرت في سنة أربع

وتسعين ومائة بعمل بركتها التي بمكة فاجرت لها عينا من الحرم (لا يقصد بالحرم هنا المسجد الحرام وانما يقال حرم لمنطقة مخصوصة معينة حول مكة (١) كما لا يخفى) فجرت بماء قليل لم يكن فيه ري لاهل مكة وقد غرمت في ذلك غرما عظيما فبلغها فامرت جماعة من المهندسين أن يجروا لها عيونا من الحل (أي من الارض الخارجة عن الحرم) وكان الناس يقولون ان ماء الحل لا يدخل الحرم لانه يمر على عقاب وجبال، فارسلت باموال عظام ثم امرت من يزن عينها الاولى فوجدوا فيها فساداً فأنشأت عينا أخرى إلى جانبها وأبطلت تلك العيون فعملت عينها هذه باحكم ما يكون من العمل، وعظمت في ذلك رغبتها وحسنت نيتها، فلم تزل تعمل فيها حتى بلغت ثنية « خل » فاذا الماء لا يظهر في ذلك الجبل فامرت بالجبل فضرب فيه وأنفقت في ذلك من الاموال مالم تكن تطيب به نفس كثير من الناس حتى أجراها الله عز وجل لها وأجرت فيها عيونا من الحل منها عين من المشاش (جاء في معجم البلدان : المشاش بالضم قال عرام : ويتصل بجبال عرفات جبال الطائف وفيها مياه كثيرة اوشال وعظائم قني منها المشاش وهو الذي يجري بعرفات ويصل إلى مكة) واتخذت لها بركا تكون السيول إذا جاءت تجتمع فيها ثم اجرت لها عيونا من حنين، واشترت حائط حنين فصرفت عينه إلى البركة وجعلت حائطه سداً يجتمع فيه السيل فصارت لها مكرمة لم تكن لاحد قبلها وطابت نفسها بالنفقة فيها بما لم تكن تطيب نفس أحد غيرها به فاهل مكة والحاج انما يعيشون بها بعد الله عز وجل.

ثم أمر أمير المؤمنين المأمون صالح بن العباس في سنة عشر ومائتين أن

(١) حرم مكة هو ما حرم الله فيه القتال والصيد وقطع النبات وعضد الشجر وله حدود معروفة من كل جهة بأعلام مبنية كالذي بين جدة ومكة وبين المزدلفة وعرفة، فعرفات ن الحل لا يحرم فيها الصيد على غير المحرم

يتخذ له بركا في السوق خمسا لئلا يتعنى أهل اسفل مكة والثنيـة واجيادين (بالتثنية) والوسط إلى بركة ام جعفر فأجرى عيناً من بركة ام جعفر من فضل مائها في عين تسكب في بركة البطحاء عند شعب ابن يوسف في وجه دار ابن يوسف ، ثم يمضي إلى بركة عند الصفا ثم يمضي إلى بركة عندالحناطين ، ثم يمضي إلى بركة بفوهة سكة الثنية دون دار أويس ، ثم يمضي الى بركة عند سوق الحطب باسفل مكة ثم يمضي في سرب ذلك إلى ماجل ابي صلابة ، ثم إلى الماجلين اللذين في حائط ابن طارق باسفل مكة، وكان صالح بن العباس لما فرغ منها ركب بوجوه الناس اليها فوقف عليها حين جرى فيها الماء ونحر عند كل بركة جزوراً وقسم لحمها على الناس » انتهى

وقال ابن خلكان : « ام جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم هي أم الامين محمد بن هارون الرشيد، وكان لها معروف كثير وفعل خير ، وقصتها في حجها وما اعتمدته في طريقها مشهورة فلا حاجة إلى شرحها . قال الشيخ ابو الفرج ابن الجوزي في كتاب الالقاب انها سقت اهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار ، وانها أسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال ونحت الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم، وعملت عقبة البستان فقال لها وكيلها يلزمك نفقة كثيرة فقالت أعملها ولو كانت ضربة فاس بدينار . وكانت وفاتها سنة ست عشرة ومائتين في جمادى الاولى ببغداد رحمها الله تعالى » انتهى

وأما ابن جبير الاندلسي وقد كانت حجته في سنة ٥٧٩ فانه ذكر زبيدة في كلامه الذي يلي:

« فاجتمع بعرفات من البشر جمع لايحصي عدده إلا الله عز وجل . ومزدلفة بين منى وعرفات من منى اليها مامن مكة إلى منى وذلك نحو خمسة أميال ومنها

إلى عرفات مثل ذلك او أشف قليلا، وتسمى المشعر الحرام وتسمى جمعا (قال الحريري في مقاماته :

وقلت لعاذلي مهلا فاني ۰ سأختار المقام على المقام
وأنفق ماجمعت بارض جمع ۰ واسلو بالحطيم عن الحطام

فلها ثلاثة أسماء . وقبلها بنحو الميل وادي محسر، ومضت السنة بالهرولة فيه وهو حد بين مزدلفة ومنى لانه معترض بينهما ، ومزدلفة بسيط من الارض فسيح بين جبلين وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء في زمان زبيدة رحمها الله »

أقول هذه الخمسة الاميال من عرفات إلى منى أخذت معنا أ كثر من خمس ساعات من بعد المغرب إلى نصف الليل على اننا كنا في سيارة . وهذا مع سعة الطريق الذي هو أحيانا سهل افيح . ولا عجب فإن نحواً من مائتي الف نسمة كانوا مفيضين ذلك المساء في وقت واحد من عرفات الى مزدلفة فمنها قطر الجمال بالالوف لا بالمئات، وعليها الهوادج يخيل لرائيها من كثرتها وارتفاعها وحركة الاباعر من تحتها ان هناك مدينة سائرة على متون الايانق . وهناك الركبان والفرسان، والمشاة على الاقدام، وبالاختصار محشر من الخلائق . وقد يبلغ الحاج في بعض الاعوام ثلاثمائة الف وأربعمائة الف وجميعهم لا بد لهم من الافاضة في وقت واحد . وقد يتأخر حجاج الشيعة ليلة أخرى ان لم تثبت عندهم رؤية الهلال وبعضهم يرى انه يسعهم ما وسع أهل السنة . وعندي ان الاولى ترك الناس وحريتهم في أمور كهذه، إذ ليس في ذلك مخالفة للشرع وانما هو مجرد اجتهاد لا غير (١)

---

(١) اما تركهم وشأنهم فذلك ما جرت ولا تزال تجري عليه الحكومات من أهل السنة — واما هدي أئمة السلف وهو اللائق بالوحدة الاسلامية فهو عدم الخلاف واجتناب التفرق في الشعائر الاسلامية العامة وذلك بأن يترك امر اثبات اول ذي الحجة الى حكومة الحجاز ولا يحاول الشيعة اثبات ذلك فيها بشهادة من يشهد منهم برؤية الهلال في حال مكان الرؤية الخ وانما كان يعمل كل احد باجتهاده الشخصي في المسائل الشخصية ، وحكم الحاكم برفع الخلاف في المسائل الاجتهادية المتعلقة بمصلحة الامة ، وتفصيل الموضوع ليس هذا محله

روعة موقف عرفات العام

(ومواكب الحج فيها أيام دول الاسلام)

﴿ ووصف ابن جبير الاندلسي لها في القرن السادس ﴾

ما أنس لا أنس منظر عرفات ليلا . فهو من أبهج ما ارتسم في خاطري من مناظر هذه الدنيا الفانية مع كثرة ماشاهدت في حياتي وما تقلبت في الامصار والعواصم . فقد أقبلنا عليها غلساً آتين من منى ، فكانت أشبه بسماء في كواكبها وطرائقها ، منها بسهول وهضاب في خيامها ، وقبابها المضروبة ، ومصابيحها المعلقة ونيرانها المشبوبة . فكان منظراً قيد النواظر لايشبع منه الرائي تطلعاً ، ولا يزداد به إلا ابتهاجا . وليست عرفات في النهار باقل حسنا وجلالا في تموج جموعها وتراص قبابها ، ولاسيما في مناظر الخشوع التي تأخذ بالالباب ، ومسامع الادعية التي ليس بينها وبين الله حجاب .

واني أترك وصف عرفات في مثل ذلك اليوم لكاتب شهير لايلتفت إلى فقير فقرتي بجانب ملء أمليه ، ولا يؤبه بحقير خرزاتي في معرض بديع لآليه الا وهو ابن جبير الكناني الاندلسي برد الله ثراه قال :

وصف ابن جبير لموقف عرفات

« فأصبح يوم الجمعة المذكور في عرفات جمعا لاشبيه له الا الحشر ، لكنه إن شاء الله حشر للثواب ، مبشر بالرحمة والمغفرة يوم الحشر للحساب . زعم المحققون من الاشياخ المجاورين انهم لم يعاينوا قط في عرفات جمعا أحفل منه ، ولا رؤي كان من عهد الرشيد الذي هو آخر من حج من الخلفاء جمع في الاسلام مثله ، جعله الله جمعا مرحوما معصوما بعزته ، فلما جمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور وقف الناس خاشعين باكين ، وإلى الله عز وجل في الرحمة متضرعين ، والتكبير قد علا ، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع ، فما رؤي يوم أكثر مدامع ،

ولا قلوبا خواشع ، ولا اعناقا لهيبة لله خوانع خواضع ، من ذلك اليوم ، فما زال الناس على تلك الحالة والشمس تلفح وجوههم الى أن سقط قرصها ، وتمكن وقت المغرب ، وقد وصل أمير الحاج مع جملة من جنده الدارعين ، ووقفوا بمقربة من الصخرات (١) عند المسجد الصغير ، وأخذ السرو اليمانيون مواقفهم بمنازلهم المعلومة لهم في جبال عرفات المتوارثة عن جد فجد من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، لا تتعدى قبيلة على منزل أخرى ، وكان المجتمع منهم في هذا العام عدداً لم يجتمع قط مثله ، وكذلك وصل الامير العراقي في جمع لم يصل قط مثله ، ووصل معه من أمراء الاعاجم الخراسانيين ، ومن النساء العقائل المعروفات بالخواتين ، ومن السيدات بنات الامراء كثير ، ومن سائر العجم عدد لا يحصى فوقف الجميع وقد جعلوا قدوتهم الامام المالكي »

إلى أن يقول :

« أشار الامام المالكي بيديه ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعاً ارتجت له الارض ، ورجفت الجبال ، فيا له موقفا ما أهول مرآه ، وأرجى في النفوس عقباه ، جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه ، وتغمده بنعماه ، انه منعم كريم حنان منان ،

« وكانت محلة الامير العراقي جميلة المنظر ، بهية العدة ، رائقة المضارب والابنية ، عجيبة القباب والاروقة ، على هيئات لم ير أبدع منها منظراً ، فأعظمها مرأى مضرب الامير ، وذلك انه أحدق بسرادق كالسور من كتان ، كأنه حديقة بستان ، أو زخرفة بنيان ، وفي داخله القباب المضروبة وهي كلها سواد في بياض ، مرقشة

« ١ » هذه الصخرات التي يتكرر ذكرها معروفة وهي التي وقف النبي الاعظم صلى الله عليه وسلم عندها في حجة الوداع ولكنه قال « وقفت ههنا وعرفة كلها موقف » رواه مسلم - يعني ان وقوفه هنا لاتفاق لا لفضيلة في المكان ، لئلا يتهافت الناس بعده عليه ، ولكنهم يفعلون ذلك ما استطاعوا

ملونة كأنها أزاهير الرياض ، وقد جملت صفحات ذلك السرادق من جوانبه الاربعة كلها أشكال درقية (الدرقة هي الترس) من ذلك السواد المنزل في البياض يستشعر الناظر اليها مهابة يتخيلها درقا لمطية (نسبة إلى قبيلة في المغرب الاقصى عندهم أحسن التراس) قد جللتها مزخرفات الاغشية . ولهذا السرادق الذي هو كالسور المضروب أبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ، ثم يفضي منها إلى الفضاء الذي فيه القباب ، وكأن هذا الامير ساكن في مدينة قد أحدق بها سور تنتقل بانتقاله ، وتنزل بنزوله ، وهي من الابهات الملوكية المعهودة ، وداخل تلك الابواب حجاب الامير وغاشيته ، وهي أبواب مرتفعة يجيء الفارس برايته فيدخل عليها دون تنكيس ولا تطأطؤ ، قد أحكمت ذلك كله احراش (من حرش اى خشن) وثيقة من الكتان يتصل باوتاد مضروبة ، أدير ذلك كله بتدبير هندسي غريب .

ولسائر الامراء الواصلين صحبة هذا الامير مضارب دون ذلك ، لكنها على تلك الصفة ، وقباب بديعة المنظر عجيبة الشكل ، قد قامت كأنها التيجان المنصوبة ، إلى مايطول وصفه ويتسع القول فيه من عظيم احتفال هذه المحلة في الآلة والعدة ، وغير ذلك مما يدل على سعة الاحوال وعظيم الانحراف (لعلها الاحتراف وهو الكسب والتصرف وحرف لعياله كسب ومنه الحرفة) في المكاسب والاموال .

ولهم أيضاً في مراكبهم على الابل قباب تظلهم بديعة المنظر عجيبة الشكل ، قد نصبت على محامل من الاعواد يسمونها القشاوات وهي كالتوابيت المجوفة ، هي لركابها من الرجال والنساء كالامهدة للاطفال ، تملأ بالفرش الوثيرة ، ويقعد الراكب فيها مستريحا كأنه في مهاد لين فسيح ، وبازائه معادله أو معادلته في مثل ذلك من الشقة الاخرى والقبة مضروبة عليهما ، فيسار بهما وهما نائمان لايشعران أو كيفما أحبا ، فعند مايصلان إلى المرحلة التي يحطان بها ضرب سرادقهما للحين إن

كانا من أهل الترفه والتنعم، فيدخل بهما إلى السرادق وهما راكبان وينصب لهما كرسي ينزلان عليه فينتقلان من ظل قبة المحمل إلى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما، ولا خطفة شمس تصيبهما، وناهيك من هذا الترفيه فهؤلاء لا يلقون لسفرهم وإن بعدت شقته نصباً، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعبا،

ودون هؤلاء في الراحة راكبو المحارات وهي شبيهة الشقادف لكن الشقادف أبسط وأوسع وهذه أضم وأضيق وعليها ظلائل تقي حر الشمس، ومن قصرت حاله عنها في هذه الاسفار فقد حصل على نصب السفر الذى هو قطعة من العذاب الخ» إه

أقول: وكم رأت عرفات من هذه القباب والسرادقات وهذه المناظر الشائقات، وكم رأت طريق البيت الحرام من هذه المحارات وهذه الشقادف، وكم رأت من راكب وفارس وحاف وناعل، وكم تطهرت نفوس، وتهذبت أرواح، وصفت قلوب، وزكت أعمال، وخزيت شياطين، وحقنت دماء، وكفكفت دموع، وصينت أموال، كل ذلك بسبب هذه الآية الكريمة (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) وكم عاشت بهذه الآية مخلوقات ودخلت على الحجاز أموال، اللهم إن كل ذلك لما هو فوق تصور العالمين

أما النعمة والرفاهية اللتان أشار اليهما ابن جبير من حال حجاج العراق وفارس وخراسان في ذلك الوقت فلم يبق منها شيء تقريباً إلى الاعصر الاخيرة لان تلك الحال تحولت بسبب الحروب المتواصلة ولا سيما غارة المغول التي أتت على الحرث والنسل، ونسفت عمران المشرق نسفاً، فاقفرت البلاد، وتقلصت الزراعة، وتشتت العباد، ونضبت موارد التجارة، وجاء فتح ترعة السويس في الزمن الاخير فتحولت به تجارة الهند والصين عن فارس والعراق والشام، واستأثر بها الاوربيون رأساً مع ان ثروة بغداد والبصرة وشيراز واصفهان وسيراف الخ كانت أيام العباسيين مما تعجز عن وصفه الاقلام، وتتقاصر الارقام، وتلك الايام نداولها بين الناس

ولقد أخطر ببالي ذكر المحامل التي ينتقل منها إلى المنازل بدون أن يخرج الراكب من الظل إلا إلى الظل عمل الملك ليوبولد ملك بلجيكا السابق فقد رأيت له في بروكسل قصراً حوله حديقة فيحاء وكان أنشأ فرعا من سكة الحديد إلى الحديقة فالقصر داخلا في نفق تحت الارض إلى ماتحت القصر فيأتي القطار الخاص بالملك من الخارج فيدخل إلى ماتحت القصر ويخرج الملك من العربة التي هو جالس فيها بخطوة واحدة إلى المصعد الذى هو محاذ لباب العربة فيرقى به المصعد تواً إلى غرفة نومه الخاصة . وهكذا ينتهي من السكة الحديدية إلى غرفة مبيته بدون أن يتكلف لامشياً ولا صعوداً ولا نعلم هل كانت عنده آلة ترفعه من أرض الغرفة إلى السرير !؟

الوزير الجواد الاصفهاني جمال الدين

وزير أتابك زنكي صاحب الموصل

من حيث اننا في ذكر المعمرين (عمر المنزل بالتشديد جعله آهلا) والمثمرين (ثمر المال بالتشديد أيضاً كثره) والمسدين للمبرات، والسابقين الى الخيرات، والمشيدين للممالك، والممهدين للمسالك، وان سيرة مثل هذه الطبقة في الاسلام هي أحسن السير، وبها يحسن المبتدأ ويعطر الخبر، فليسمح لنا القراء بنشر شيء من سيرة الجواد الاصفهاني، وزير صاحب الموصل اتابك زنكي بن آق سنقر. فهو الوزير أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، اتصل بخدمة اتابك زنكي في الموصل في الثلث الاول من القرن السادس للهجرة، وبعد أن قتل الملك المذكور على قلعة جعبر استوزره سيف الدين غازي بن اتابك زنكي، وفوض الامور وتدبير أحوال الدولة اليه. قال ابن خلكان:

« فظهر حينئذ جود الوزير المذكور، وانبسطت يده، ولم يزل يعطي

ويبذل الاموال، ويبالغ في الانفاق، حتى عرف بالجواد، وصار ذلك كالعلم عليه حتى لا يقال إلا جمال الدين الجواد» إلى ان قال «وأثر آثاراً جميلة وأجرى الماء الى عرفات أيام الموسم من مكان بعيد وعمل الدرج من أسفل الجبل الى اعلاه(١) وبنى سور مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان خرب من مسجده، وكان يحمل في كل سنة الى مكة شرفها الله تعالى والمدينة على ساكنها افضل الصلاة والسلام من الاموال والكسوات للفقراء والمنقطعين ما يقوم بهم مدة سنة كاملة، وكان له ديوان مرتب باسم أرباب الرسوم والقصاد لا غير، ولقد تنوع في فعل الخير حتى جاء في زمنه بالموصل غلاء مفرط فواسى الناس حتى لم يبقِ شيئا. وكان إقطاعه عُشر مغل البلاد، على جاري عادة وزراء الدولة السلجوقية» الى ان قال عن وفاته

«توفي في العشر الاخير من شهر رمضان المعظم — وقيل من شعبان — سنة تسع وخمسين وخمسمائة وصلي عليه، وكان يوما مشهوداً من ضجيج الضعفاء والارامل والايتام حول جنازته، ودفن بالموصل الى بعض سنة ستين فنقل الى مكة حرسها الله تعالى، وأطيف به حول الكعبة، وكان بعد أن صعدوا به ليلة الوقفة الى جبل عرفات، وكانوا يطوفون به كل يوم مراراً مدة مقامهم بمكة شرفها الله تعالى، وكان يوم دخوله مكة يوما مشهوداً من اجتماع الخلق والبكاء عليه، وقيل انه لم يعهد عندهم مثل ذلك اليوم، وكان معه شخص مرتب يذكر محاسنه ويعدد مآثره» الى ان قال :—

«ثم حمل الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ودفن فيها بالبقيع بعد ان أدخل المدينة وطيف به حول حجرة الرسول صلى الله عليه وسلم مراراً، وأنشد الشخص الذي كان مرتبا معه:

«١» يعني جبل عرفات الذى في وسطها المعروف بجبل الرحمة فانه مقسم الى درج بعضه فوق بعض كما يرى من وقوف الناس عليه طبقة فوق طبقة وهذا الجبل هو الذى كان يسمى إلا لا ـ بكسر الهمزة وحكي فتحها

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادي فتثني رماله عليه وبالنادي فتبكي أرامله

انتهى كلام ابن خلكان (١)

وانظر الى مايقوله عن هذا الوزير ومآثره — الرحالة ابن جبير الاندلسي وقد عاش في ذلك العهد وهو

« ولهذه البلدة المباركة (أي مكة) حمامان (أحدهما) ينسب للفقيه الميانشي أحد الاشياخ المحققين بالحرم المكرم (والثاني) وهو الاكبر ينسب لجمال الدين، وكان هذا الرجل كصفته جمال الدين. له رحمه الله بمكة والمدينة شرفهما الله من الآثار الكريمة، والصنائع الحميدة، والمصانع المبنية في ذات الله المشيدة، مالم يسبقه اليه أحد، فيما سلف من الزمان ولا أكابر الخلفاء، فضلا عن الوزراء، وكان رحمه الله وزير صاحب الموصل، تمادى على هذه المقاصد السنية المشتملة على المنافع العامة للمسلمين في حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ أكثر من خمس عشرة سنة لم يزل فيها باذلا أموالا لاتحصى في بناء رباع بمكة مسبلة في طرق الخير والبر، مؤبدة محبسة، واختطاط صهاريج للماء، ووضع جباب في الطريق يستقر فيها ماء المطر، الى تجديد آثار من البناء في الحرمين الكريمين. وكان من أشرف أفعاله أن جلب الماء الى عرفات وقاطع عليه بني شعبة سكان تلك النواحي المجلوب منها الماء بوظيفة من المال كبيرة، على أن لا يقطعوا الماء عن الحاج. فلما توفي الرجل رحمة الله عليه عادوا الى عادتهم الذميمة من قطعه

(١) هذه الاعمال من نبش القبر والسفر بالجثة أو العظام وأعمال المناسك والزيارة والندب كلها محرمة في الاسلام ؛ فهل أنكرها العلماء ولم يسمع لهم كلام ؟ أم اشتركوا مع الحكام والعوام ؟ والعبرة في هذا أن بذل المال في المنافع العامة ولا سيما عمران الحرمين الشريفين وتسهيل الحج والزيارة فيهما له أكبر شأن في قلوب المسلمين ويكبرون من شأن صاحبه حياً وميتاما يرفعونه على العلماء والخلفاء والسلاطين

« ومن مفاخره ومناقبه أيضا أنه جعل مدينة الرسول ﷺ تحت سورين عتيقين أنفق فيهما أموالا لاتحصى كثرة . ومن أعجب ماوفقه الله تعالى اليه انه جدد أبواب الحرم كلها، وجدد باب الكعبة المقدسة وغشاه فضة مذهبة، وهو الذي فيها الآن حسبما تقدم وصفه ، وجلل العتبة المباركة بلوح ذهب ابريز، وقد تقدم ذكره أيضا، فأخذ الباب القديم وأمر بأن يصنع له منه تابوت يدفن فيه. فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع في ذلك التابوت المبارك ويحج به ميتا، فسيق الى عرفات ووقف به على بعد، وكشف عن التابوت فلما أفاض الناس أفيض به وقضيت له المناسك كلها وطيف به طواف الافاضة. وكان الرجل رحمه الله لم يحج في حياته

ثم حمل الى مدينة الرسول ﷺ وله فيها من الآثار الكريمة ماقدمنا ذكره، وكاد أشرافها يحملونه على رءوسهم، وبنيت له روضة بازاء روضة المصطفى ﷺ وفتح فيها موضع يلاحظ الروضة المقدسة، وأبيح له ذلك على شدة الضنانة بمثله لسابق أفعاله الكريمة . ودفن في تلك الروضة وأسعده الله بالجوار الكريم، وخصه بالمواراة في تربة التقديس والتعظيم ، والله لايضيع أجر المحسنين »اه

ثم يعود الى سيرته أيضا فيقول « ولهذا الرجل رحمه الله من الآثار السنية، والمفاخر العلية التي لم يسبقه اليها أكابر الاجواد ، وسراة الامجاد ، فيما سلف من الزمان مايفوت الاحصاء ، ويستغرق الثناء ، ويستصحب طول الايام على الألسنة بالدعاء ، وحسبك انه اتسع اعتناؤه باصلاح عامة طرق المسلمين بجهة الشرق من العراق الى الشام الى الحجاز حسبما نذكره . واستنبط المياه وبنى الجباب واختط المنازل في المفازات، وأمر بعمارتها مأوى لأبناء السبيل وكافة المسافرين. وابتنى بالمدن المتصلة من العراق الى الشام فنادق عينها لنزول الفقراء ابناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الاكرية، وأجرى على قومة تلك الفنادق والمنازل

مايقوم بمعيشتهم، وعين لهم ذلك في وجوه تأبدت لهم فبقيت تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها الى الآن. فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرفاق، وملئت ثناء عليه الآفاق، وكان مدة حياته بالموصل - على ما أخبرنا به غير واحد من ثقات الحجاج التجار ممن شاهد ذلك - قد اتخذ دار كرامة واسعة الفناء، فسيحة الارجاء، يدعو اليها كل يوم الجمعة (الوليمة العامة) من الغرباء، فيعمهم شبعاً ورياً، ويرد الصادر والوارد من أبناء السبيل في ظله عيشاً هنياً، لم يزل على ذلك مدة حياته رحمه الله، فبقيت آثاره مخلدة، وأخباره بألسنة الذكر مجددة، وقضى حميداً سعيداً والذكر الجميل للسعداء حياة باقية، ومدة من العمر ثانية » اه

قلت: ولو لم تكن آثار هذا الرجل مخلدة، وأخباره بألسنة الذكر والشكر مجددة، لما جئنا نحن بعد سبعمائة وثمانية وثمانين سنة نجددها، وننوه بها، ونجعلها مناراً للمهتدين، وقدوة للمقتدين، ولاشك أن التاريخ انما يشرف ويكرم بتراجم رجال كهؤلاء جعلوا أنفسهم مصداق الحديث الشريف «الخلق كلهم عيال الله فاحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » (١)

فتأمل في هذا الرجل وما أجراه من الخيرات العامة، وما برد من حر، وما أغنى من فقر، وما آوى من قفر، وما أمن من خوف، وما قوى من ضعف. وتبصر فيما شاده من الفنادق في الطرقات، وما بناه من المنازل في الفلوات، وما حبس على هذه المؤسسات الخيرية من الاوقاف الدارة، الى غير ذلك من المآثر التي يتحلى بها تاريخ الاسلام، وتطيب بقراءتها الانفس، وترتفع الارؤس.

العبرة بتعمير السلف وتخريب الخلف

وقابل هذا الصبر على الخير، وهذا الجلد في الانسانية، وهذا الثبات في الفعل الجميل بما تعرفه من غيره، ممن هم وياللأسف أكثر عدداً في ولاة الامور وأعز نفراً، وذلك في صرفهم أموال المسلمين الى جيوبهم، وإنفاقهم ريع اوقافهم وغلة رباعهم على شهوات أنفسهم، وفي إعراضهم عن المصالح العامة الى المنافع الخاصة بل المنافع الخاصة

(١) رواه ابو يعلي والبزار من حديث أنس والطبراني من حديث ابن مسعود

الخسيسة، والمطامع الشخصية الدنيئة، ولهوهم بسفساف الامور عن معاليها، وخيانتهم الامة في أماناتها التي حملوها بالاجرة، وتراهم لاتهتز لهم أريحية الى مبرة، ولا تسمو لهم همة الى عمل شريف، ولا اذا تداعى جدار جددوا بناءه، ولا اذا توعرت طريق أزالوا حرشتها، ولا اذا جفت عين أسالوا غيرها، ولا اذا تشعثت قناة بادروا الى رمها. لا يهمهم حفظ الماضي على حاله فضلا عن أن يبدأوا مأثرا، ويفترعوا مفاخر، بل دأبهم في ولاية أمور المسلمين كما جاء في المثل العامي (يأكلون الخضراء ويقطعون اليابسة) وكأنما أورثهم الله خراج المسلمين لينفقوه في السرف والسفه، ولذات الكروش والفروج، كأنما هو تراث آبائهم وأجدادهم، بل لو كان تراث آبائهم وأجدادهم ما ساغ لهم ذلك فيه، ولمنعهم القضاة العادلون عن هذا السفه، ولكن أين القضاة العادلون، وأين العلماء العاملون، الذين يقولون الحق في وجه الملوك ويخاطرون بأنفسهم ومصالحهم لاجل نصح الامة؟ فوالله ما أفسد أمر الاسلام الا أمراؤه — الا من رحم ربك — وما أفسد هؤلاء الامراء الا العلماء الذين أخذ عليهم المواثيق بأن لا يقاروا على معصية، ولا يواطئوا على معرة فكانوا يقارون على المعاصي ويزلفون الى الامراء بالاباطيل، ويفتون لهم بتأويل النصوص الشرعية بغير معناها الحقيقي، ويسهلون لهم الموبقات بأجمعها، والمرديات بحذافيرها، طمعاً في الدنيا الفانية، والمطاعم الوبيئة الذاهبة، وهكذا تحول أمر هذه الامة من العظمة إلى الصغار، ومن التمكن في الارض إلى البوار، ومن المآثر والمباني إلى الدمار، ومن أحاديث المعالي الى أقاصيص العار والشنار

ولما كان يستحيل أن تسوء الادارة في الداخل بدون أن يستأسد العدو من الخارج، لان الامم المتجاورة بعضها لبعض بالمرصاد، يهتبل الغرة ويقتحم العورة، لم يلبث ظلم الامراء بتساهل العلماء وما نشأ عن ذلك من اضطراب الدهماء ان أحدث الاثر المنتظر، وأتى بالنتيجة البديهية من امتداد يد الغريب وطمعه في ممالك المسلمين واقتطاعه العالم الاسلامي قطراً بعد قطر، وضرب به على المسلمين الذل والمسكنة، بعد أن كانوا سادة الارض وحلفاء النصر: وما أحسن قول شوقي في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم

أقطعتهم غرر البلاد فضيعوا   وغدوا وهم في أرضهم غرباء

الاسلام دين العمران بريء من تبعة الانحطاط

الذي عليه المسلمون الآن

وتاريخ سلفهم المعمرين ، حجة على خلفهم المخربين

لم يخسر المسلمون بلدانهم فقط وما تسلط عليها الاجنبي وأخذ كل ما فيها أخذ عزيز مقتدر فحسب، بل خسروا في نظر الناس حقائقهم وفضائلهم ومعاليهم واحسابهم وآدابهم ، وصار الناس يمارون في مآثرهم السوابق ومعاليهم السوامق ويجادلون في صحة نظرياتهم الاجتماعية، ويرونهم من أبعد الخلق عن العمران ، وينسبون ذلك الى الدين الاسلامي وإلى القرآن،وإلى التوحيد وإلى عقيدة القضاء والقدر، وإلى غير ذلك من الاسباب التي يعلمها من له ألفة بكتب الافرنج أو من بمجالس الناشئة الحاضرة في الشرق، وصدق هذه الاقاويل كثير من المسلمين أنفسهم واتخذوا تلك السفسطة قضية مسلمة،ونبذوا الاسلام بتاتا، وأوشك آخرون أن ينبذوه بحجة انه مصدر الانحطاط، ونسوا انه ما من أمة على وجه الارض وقد سعدت وشقيت وعلت ونزلت،وتداولتها أدوار مختلفة وكانت ديانتها واحدة في دوري علوها وهبوطها وان الاسلام لهو أجدر من غيره بان لا يكون مسؤولا عن انحطاط أحد وانه طالما نهض باهله الى الدرجات العلى عندما كانوا يعملون بمقتضاه حق العمل. وإنما كان المسؤول عن هذا الانحطاط ،المسلمون لا الاسلام،والقراء لا الكتاب،والحملة لا المحمول، والخزنة لا المخزون ، وهؤلاء هم الذين فقدوا الممالك وخسروا المجد القديم ، وجنوا هذه الجناية على الشريعة الاسلامية،والمبادىء القرآنية والآداب العربية ،والثقافة الشرقية، وجعلوا كل أولئك مسؤولا عن أمور لا مسؤول فيها غير الاشخاص في الحقيقة ، ولا مجرم غير الخلف الفاسد الذي اضاع الصلاة واتبع الشهوات ولقي الغي. وإنك لتجد كل كلمة من القرآن شاهدة عليهم وكل نص

من الشرع حاكما بسوءسيرتهم، ولو أنفقت ما في الارض جميعاًلم تقدر أن تطبق اعمال هؤلاء الملوك والخلفاء والوزراء ، والقضاة والعلماء من المسلمين الذين وصلوا بالأمة الى ما وصلت اليه على آية واحدة من القرآن الكريم مفهومة حق الفهم ، أوحديث مشهور لا يتطرق الى اسناده الشك، بل خالفوا قواعد الاسلام من أولها الى آخرها واتخذوا كتاب الله لمجرد الترتيل والتجويد ولم يعملوا بعشر معشار مافيه من الاوامر والنواهي، ورجعوا يعاتبون الله على الخذلان الذي هم فيه والله قد اجابهم من قبل على اعتراضهم وقال لمثلهم : (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)

مثل هذه الاحوال من رجال الاسلام الموكول اليهم أمر الامة قد أوسع للطعن أشداقا وللنظر بالازدراء أحداقا وصار الاوربيون يقولون لنا: أنتم لا تعرفون إلا التخريب وليس لكم حظ من العمران ولا من سداد الادارة، وما الادارة عندكم إلا فوضى وبينكم وبين النظام ما بين المشرق والمغرب، الى غير هذا من المثالب .

وكذلك أنهال اكثرهم بالطعن على نفس الاسلام يقولون فيه : لو كان خيراً لكان أهله قد أثلوا مدنية ووفقوا الى حضارة حقيقية والشجرة إنما تعرف من ثمارها !

ولم ينفرد بهذا القول الضابط الافرنسى (سيكار) ولا اليسوعي (لامنس) ممن نشرنا كلامهم في مجلة المنار مردوداً عليه بالبراهين الساطعة والحجج الدامغة التي اجبرت سيكار نفسه أن يعترف باهميتها . ولكن تشدق بهذا الكلام كثيرون من علماء الافرنج ومؤلفيهم، وزعموا أن الاسلام والمدنية هما على طرفي نقيض حتى قالوا ان المدنية التي يقال لها في التاريخ « المدنية الاسلامية » لم يكن منها شيء من عمل المسلمين ، وكابروا في هذه القضية المحسوس ،وانكروا بدائه الامور ،وكل هذا من اجل انهم ادركوا أعمال هؤلاء الظلمة الخاسرين من أولياء أمور الاسلام ، وساحوا في بلاد المسلمين فوجدوا الغربان تنعق في الاماكن التي كانت معمورة في القديم بملايين البشر، ووجدوا الآثار الجميلة الباقية من الماضي

أشبه بواحات في وسط صحاريّ من القذارة والشناعة والغبرة، ووجدوا الطرقات لا يكاد السالك يسلكها من الدعارة وفقد الأمنة، ووجدوا شوارع المدن لا يقدر السائر فيها أن يسير إلا محولا نظره ساداً أنفه من كثرة مافيهامن الاوضار والاوساخ، ووجدوا القنى مقطمة، والآبار معطلة، والقصور غير مشيدة والقناطر مهدمة مبعثرة.

ونحن وجدنا هذه المرة في تسيارنا في جبال الحجاز فضلا عما نعرف من غيرها من بلداننا من آثار العمران الدراسة والسدود الداثرة، والقنوات المنقورة في الصخور، المنقطعة عنها المياه الجارية، مالا يكاد يأخذه الاحصاء، ورأينا منها شيئاً كثيراً ليس ترميمه بالأمر المعجز مع شدة ضرورته، وقضينا العجب من إهمال الولاة الغابرين اياه، وتهاونهم بعمارة البلاد إلى هذا الحد، كأن البلاد بلاد أعدائهم (١)

فمن أجل ذلك فسحنا مكانا واسعا في كتابنا هذا لابن كريز وزبيدة العباسية والوزير الموصلي جمال الدين الجواد ومن في ضربهم من رجالات العمران وبناة المدنية ونمثلها لهم بقول المعري:

جمال ذي الارض كانوا في الحياة وهم بعد الممات جمال الكتب والسير

وإذا كان قد جرى ذكرى المنازل في الفلوات فسنأتي على أخبار أخرى لطيفة من هذا الموضوع لاتضيق بها رسالة «الارتسامات اللطاف» بل تكون بالعكس وشياً لطرازها

(١) قد حبس المسلمون المتقدمون على الحرمين الشريفين من الاوقاف الكثيرة في كل قطر ما يكفي لجعل الحجاز اعظم بلاد الله عمرانا، وقد اكل المسلمون اكثر تلك الاوقاف، ولا يزال المعروف منها يكفي لعمران الحجاز، ولكن يحول دون وصوله حكامهم الظالمون، واعداؤهم الكافرون، الذين استولوا على اكثر بلاد المسلمين

شغف بعض ملوك الاسلام بالعمران

(مثال منه)

﴿ آثار عبد الرحمن الناصر الاموي في الاندلس ﴾

أردنا أن نردف أخبار أبطال العمارة وصناديد البناء والتشييد ، و كفاة الشبع والري من مسلمي المشرق، باخبار بعض أقرانهم من مسلمي المغرب، ليعلم الناس أن الاسلام أنجب ملوكا وسلاطين كانوا يحتفلون بالعمران ، ويعمرون القفار ، ويرتبون من أمور المدنية ما يرتبه الافرنج اليوم وما لم يكونوا يحسنون مثله في تلك القرون التي كان المسلمون فيها هم الاعلون في كل شيء

فمن هؤلاء في المغرب الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر الاموي ولست بمتعرض الآن إلى ذكر خلافته التي استمرت خمسين سنة ومغازيه في بلاد الافرنج ، ومآثره الباهرة التي اتفقت عليها تواريخ الشرق والغرب ولكني أريد أن أذكر من علو همته في البنيان ما تتحير به العقول

وذلك أنه بنى قصر الزهراء بقرطبة فكان طول هذا القصر من الشرق إلى الغرب ألفين وسبعمائة ذراع أي نحو كيلو مترين ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ألفا وخمسمائة ذراع ، أي نحو كيلو متر ، و كان في الزهراء أربعة آلاف وثلثمائة سارية ، وكان فيها ما يزيد على خمسة عشر ألف باب . وكان يتصرف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة ، وكان من الرجال من له الدرهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة .

وكان يصرف كل يوم في الزهراء من الصخر المعدل المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدل . قالوا وكان الناصر يثيب على كل رخامة كبيرة أوصغيرة عشرة دنانير سوى ماكان يلزم لقطعها وحملها ، وجاب

الناصر الرخام إلى الزهراء من كل البلاد فالابيض من « المرية » والمجزع من «رية» والوردي والاخضر من صفاقس وقرطاجنة بافريقية. وجلب اليها الحوض المنقوش المذهب من الشام، وقيل من القسطنطينية، وفيه نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان، ولما جلبه أحمد الفيلسوف - وقيل غيره - أمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، ونصب عليه اثني عشر تمثالا.

قالوا وبنى في الزهراء القصر المسمى بقصر الخلافة، وكان سمكه (سقفه) من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه، وكانت حيطان هذا القصر مثل ذلك، وجعلت في وسطه اليتيمة التي أتحف الناصر بها (ليون) ملك القسطنطينية، وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة. وكان في وسط المجلس صهريج مملوء من الزئبق، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب، وأصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي، وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار.

وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور، ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس أن المحل قد طار بهم. وهذا المجلس لم يتقدم لاحد بناء مثله لافي الاسلام ولا في غيره، وانما تهيأ للناصر لكثرة الزئبق في ملكه.

وأجرى الناصر إلى الزهراء المياه وأحدق بها البساتين، وبنى فيها مسجداً من أبدع المساجد، وقيل إن العمل في الزهراء استمر أربعين سنة من ملك الناصر، وقيل انه كان بقصر الزهراء من الوصفاء ثلاثة عشر ألفاً، وكان الجاري لهم من اللحم فقط كل يوم عدا الطير والحوت ثلاثة عشر ألف رطل، وكان في القصر

من الجواري والخوادم أكثر من ستة آلاف امرأة . وقيل ان المرتب من الخبز لحيتان الزهراء السابحة في بركها العظيمة اثنا عشر ألف خبزة كل يوم ،

قالوا وكان يرد من الجير والجص في كل ثالث من الايام إلى الزهراء ألف ومائة حمل . وقدر بعض أهل الخدمة في الزهراء أنه كان ينفق فيها كل عام ثلثمائة ألف دينار وان ذلك استمر خمساً وعشرين سنة إلى نهاية ملك عبد الرحمن الناصر. وذكروا أن الحوض المنقوش المذهب الذي جلبه الفيلسوف أحمد مع ربيع الاسقف من القسطنطينية لم يكن وحده بل جلبوا اليه أيضاً حوضا آخر يقال له الحوض الصغير أخضر منقوشا بتماثيل الانسان ، وأن الناصر نصبه في بيت المنام بالمجلس الشرقي وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الاحمر مرصعا بالدر النفيس العالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة :صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وفيل وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاوس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها

قالوا وفي يوم الخميس لسبع بقين من شعبان سنة تسع وعشرين وثلثمائة كمل الناصر بناء القناة الغريبة الصنعة التي أجراها بالماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة في المناهر المهندسة وعلى الحنايا المعقودة، يجري ماؤها بتدبير عجيب ، وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر، مطلي بذهب ابريز وعيناه جوهرتان لهما وبيص شديد يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الاسد فيمجه في تلك البركة من فيه فيبهر الناظرين بروعة منظره ونجاجة صبه ، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجنباته. ويمد النهر الاعظم بما فضل منه.

قالوا واستمر العمل في هذه القناة إلى أن انتهت أربعة عشر شهراً ، ولما انطلق فيها الماء إلى تلك البركة كان يوما احتفل فيه الخليفة رحمه الله وعمل دعوة جفلى ، وأفضل على عامة الخلق ، ووصل المهندسين والقوام بصلات حسنة جزيلة

عمران قرطبة العجيب في عهد الناصر

وكان عمران قرطبة في أيام الناصر عاما تاما، وليس من المعقول أن يتناهى هذا التناهي كله في اتقان البنيان وتفخيمه في عاصمة لم يستبحر عمرانها ولم تزخر لجج الاجتماع فيها ، فقد رووا أن عدد دور قرطبة كان لعهد الناصر وابنه الحكم نحو ٢٠٠ ألف دار . وهذه دور الاهالي ، فأما دور الوزراء والعمال والكتاب والاجناد وخاصة الملك فكانت ستين ألف دار هذا عدا الحمامات والخانات والفنادق ، وقالوا انه كان فيها ثمانون ألف حانوت . وكان لقرطبة ٢٨ ربضاً وقيل ٢١ ربضاً كل واحدة منها بلدة فيها منبر تقام فيه الجمعة

وقيل إن الطرق من قرطبة إلى جميع هذه الارباض كانت تنار ليلا بالقناديل وهي مسافات من ١٠ الى ١٥ كيلو متراً . فأما مساجد قرطبة لذلك العهد فقد جاءت فيها روايات مختلفة فقيل ثلاثة آلاف وثمانمائة . وقال ابن حيان : بلغت المساجد بقرطبة في مدة ابن أبي عامر (بعد الناصر بمدة غير طويلة) ألفاً وستمائة مسجد ، والحمامات تسعمائة حمام .

وأما مسجد قرطبة الاعظم فان القلم ليعجز عن وصفه ، فمن شاء فليقرأ ذلك في نفح الطيب وغيره من تواريخ الاندلس أو فليذهب إلى اسبانية ويشاهده فهو لا يزال أكثره قائما وإن كان قد تحول إلى كنيسة، وقد ذهب كثير من النفائس التي كانت تزينه. ولا أعلم هل أبقاه الاسبانيول على مساحته الاولى أم اختصروا منه فالذي في كتب العرب أن تكسيره كان نحو ٣٣ ألف ذراع وانه كان فيه ١٢٠٠ عمود و٩٣ عموداً كلها رخام . وقد كان لعهد الناصر وأهله باب مقصورة هذا الجامع من الذهب ، وقد أجرى الذهب في جدار المحراب وما يليه على الفسيفساء . وكانت الصومعة من بناء الناصر تعلو ثلاثاً وسبعين ذراعا إلى

أعلى القبة المتفحة التي يستدبرها المؤذن ، وفي رأس هذه القبة تفافيح ذهب وفضة ودور كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف ، فاثنتان من التفافيح ذهب ابريز وواحدة فضة ، وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة قد هندست بابدع صنعة ، ورمانة ذهب صغيرة على رأس زج .

وكان في الجامع مائتان وثمانون ثريا وثمانمائة وخمس كؤوس ، وكان يوقد فيه في شهر رمضان فقط ثلاثة قناطير من الشمع ، وكان له كل ليلة جمعة رطل عود وربع رطل عنبر ، وكان من فيه من الائمة والمؤذنين والسدنة نحو ١٥٠ رجلا ، وروى بعضهم ٣٠٠ ويجوز أن يختلف العدد باختلاف الاوقات ،

وقالوا أن الحكم المستنصر بنى لهذا الجامع أربع ميضآت منها ثنتان للرجال وثنتان عند مقاصير النساء وأجرى في جميعها الماء من سفح جبل قرطبة وصبها في أحواض رخام ، وأجرى فضل هذا الماء العذب إلى سقايات اتخذهن على أبواب الجامع وهي جواب ثلاث من حياض الرخام اقتطعها من مقطع المنستير بسفح جبل قرطبة واحتفر الرخاميون هناك أجوافها بمناقيرهم في المدة الطويلة حتى استوت في صورها البديعة ، فخفف ذلك من ثقلها وأمكن من اهباطها إلى أماكن نصبها با كناف المسجد الجامع ، فتهيأ حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط على قتل موثقة بالحديد المثقف محفوفة بوثاق الحبال ، قرن لجرها سبعون دابة ، ومهدت قدامها الطرق ، وتيسر نقلها في مدة ١٢ يوما ، فنصبت في الاقباء المعقودة لها . وابتنى الحكم المستنصر غربي الجامع دار الصدقة واتخذها معهداً لتفريق صدقاته المتوالية ، وابتنى للفقراء البيوت قبالة باب المسجد الكبير

وربما ينسب بعض القراء شيئاً من هذه الروايات إلى المبالغة ويجوز أن يكون فيها زيادة في الوصف لاجل نقل الحقيقة إلى ذهن السامع ، إلا أن كثيراً من هذه الآثار محفوظ إلى اليوم ، فجامع قرطبة لا يزال قائما وإن كانت الزهراء والزاهرة

وغيرهما قد درست . وقصر اشبيلية لايزال قائما ، وحمراء غرناطة لاتزال ماثلة ومباني العرب في طليطلة أكثرها لم يتهدم وكل من رأى الباقي من تلك الآثار لاينسب مجمل تلك الروايات إلى المبالغة

ثم ان ابن خلدون شيخ فلاسفة التاريخ برصانته وجلالة قدره وزيادة نعيه على المبالغين في الاخبار يقول :

« ولما استفحل ملك الناصر صرف نظره الى تشييد القصور والمباني ، وكان جده الامير محمد وأبوه عبد الرحمن الاوسط وجده الحكم قد احتفلوا في ذلك وبنوا قصورهم على أكمل الاتقان والضخامة ، وكان فيها المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف ، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم وسماه دار الروضة ، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل ، واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر ، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ثم أخذ في بناء المستنزهات فاتخذ منية الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة

ثم اختط مدينة الزهراء (صدق ابن خلدون لان الزهراء في الحقيقة كانت مدينة لاقصراً) واتخذها لنزله ، وكرسياً لملكه ، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ماعفا على مبانيهم الاولى ، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء ، متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، واتخذ فيها دور الصناعة لآلات السلاح للحرب والحلي للزينة وغير ذلك من المهن وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس » اه .

وأما الزاهرة فقد بناها المنصور بن أبي عامر الشهير الذي يعد من أعاظم رجال الاسلام جعلها على نهر قرطبة الاعظم واحتفل جداً ببنائها حتى صارت أشبه بمدينة أيضاً

ومن أحلى ماقرأت من غرام عبد الرحمن الناصر الاموي بالعمران والاتقان والفراهة ، والرفاهة واستكمال أدوات الرفق على نسق العصر الحاضر ماجاء في

« الاستقصاء في أخبار المغرب الاقصى » ان أبا العيش احمد بن قاسم كنون من ملوك الادارسة بالمغرب كان قطع دعوة العبيديين خلفاء مصر وتونس وبايع الخليفة عبدالرحمن الناصر صاحب الاندلس وخضع المغرب كله لابي العيش بنفوذ الناصر وقوته . ولما كان الخليفة في جهاد دائم مع الافرنج أراد ابو العيش أن يلحق بساحة القتال، واستأذن الخليفة في ذلك فأذن له وأمر بان يبني له في كل منزل ينزله قصرا وذلك من الجزيرة الخضراء (بقرب جبل طارق) إلى الثغر (حدود بلاد الافرنج وكانوا يقولون لسرقسطة الثغر الاعلى) وأن يجري له فيها الف دينار في كل يوم ضيافة له، ومن الفرش والاثاث والطعام والشراب مايقوم بالقصر ، فلم يزل على ذلك حتى وصل إلى الثغر، فكانت منازله من الجزيرة إلى الثغر ثلاثين منزلا اه

مثـــال آخر

من النظام عند المسلمين ، من خبر عبد المؤمن صاحب دولة الموحدين

ومن هذا النمط وأبلغ منه في ترتيب المنازل والمناهل ماعمله عبدالمؤمن بن علي صاحب دولة الموحدين في المغرب . فقد كانت افريقية (بلاد تونس) في يد بني زيري ابن مناد الصنهاجيين ، عمالا للعبيديين خلفاء القاهرة، ولكن كانت دولة بني زيري قد أشرفت على الهرم وزاحمتهم الثوار من العرب ، فانتهز الفرنج أصحاب صقلية هـذه الفرصة فيهم وملكوا منهم عدة ثغور ، مثل صفاقس وسوسة وغيرهما، ثم ملكوا المهدية وهي دار ملك الحسن بن علي الصنهاجي، فذهب هذا إلى عبدالمؤمن بن علي القائم بدولة الموحدين واستعداه على الافرنج، وبينما هذا يهم بذلك إذ أوقع الافرنج باهل زويلة التي هي على مقربة من المهدية، وكانت وقعة شنيعة قتلوا فيها النساء والاطفال ففر جماعة منهم إلى عبدالمؤمن بن

علي يستنصرونه وهو بمراكش، وقالوا له لم يبق في ملوك الاسلام من يكشف هذا الكرب غيرك، فدمعت عيناه وأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: ابشروا، لانصرنكم ولو بعد حين. ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج اليه العسكر في السفر، وكتب إلى من بطريقه من نوابه يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات، وأن يترك الزرع في سنبله ويخزن في مواضعه، وأن يحفروا الآبار في الطرق، ففعلوا جميع ما أمرهم به وجمعوا غلات الحب ثلاث سنين ونقلوها إلى المنازل التي على الطريق وطينوا عليها، فصارت كأنها تلال

فلما كان صفر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة سار عبدالمؤمن من مراكش يؤم بلاد افريقية واجتمع عليه من العساكر مائة الف ومن السوقة والاتباع أمثالهم، وكان هذا الجند يمتد أميالا، وبلغ من حفظه وضبطه انهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة، وإذا نزلوا صلوا بامام واحد بتكبيرة واحدة لا يتخلف منهم أحد كائنا من كان. ولم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس وأقبل أسطوله في البحر في سبعين شينيا وطريدة وشلندا، ونازل البلدة وأخذها وسار إلى المهدية واسطوله يحاذيه في البحر، وكان بالمهدية يومئذ خواص الفرنج من أولاد ملوكها وأبطال فرسانها، وأخلوا مدينة زويلة ودخلها عبدالمؤمن بعساكره والسوقة الذين معهم فصارت مدينة معمورة في ساعة واحدة، ونزل بظاهرها من لم يجد موضعاً فيها. وانضاف إلى جيش عبد المؤمن من صنهاجة والعرب مالا يدخل تحت احصاء، وأقبلوا يقاتلون المهدية فلا يؤثر فيها لحصانتها وضيق مجال القتال عليها لان البحر دائر با كثرها، فكأنها كف في البحر وزندها متصل بالبر. وركب عبدالمؤمن شينياً ومعه الحسن بن علي الصنهاجي وتطوف بها في البحر فهاله مارأى من حصانتها، وعلم انها لا تفتح بقتال براً ولا بحراً وليس لها إلا المطاولة، وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن؟ فقال له: لقلة من

يوثق به وعدم القوت وحكم القدر، فقال صدقت وعاد وأمر بجمع الغلات والاقوات وترك القتال فلم يمض غير القليل حتى صار في المعسكر مثل الجبلين من الحنطة والشعير . فكان من يصل إلى المعسكر من بعيد يقول : متى حدثت هذه الجبال؟ فيقال هي حنطة وشعير فيقضي العجب مما يرى ، وتمادى الحصار وفي أثنائه استولى عبد المؤمن على طرابلس وصفاقس، وسوسة وجبال نفوسة وفتح قابس بالسيف، وأطاعه أهل قفصة، وإذا باسطول صقلية آت مدداً للافرنج في المهدية وكان عدده ١٥٠ شينيا غير الطرائد ، وكان هذا الاسطول غزا جزيرة يابسة (بقرب ماجورقة من جزر اسبانية) وسبى أهلها، فأراد الدخول إلى ميناء المهدية فخرج اليهم أسطول عبد المؤمن، وركب المعسكر جميعه إلى جانب البحر، فانهزمت شواني الافرنج وتبعهم المسلمون وأخذوا منهم سبع شواني، وعاد أسطول المسلمين مظفراً منصوراً ، ويئس افرنج المهدية من النجاة ومع ذلك فقد صبروا على الحصار أربعة أشهر أخرى إلى أن نزل من فرسانهم عشرة وسألوا عبد المؤمن الامان على أن يخرجوا باموالهم وكان قد فني عندهم القوت حتى أكلوا الخيل فعرض عبد المؤمن عليهم الاسلام فقالوا : ما جئنا بهذا وانما جئنا نطلب فضلك ، وترددوا اليه أياما وقالوا إذا أنعمت علينا كنا لك أرقاء في أرضنا ، فعفا عنهم، وكان الفضل شيمته وأعطاهم سفنا ركبوا فيها إلى بلادهم ، وكان الفصل شتاء فغرق أكثرهم قبل الوصول إلى صقلية وكان صاحب صقلية قد قال ، أن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين عندنا بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم ، فأهلك الله الفرنج غرقا ، وكانت مدة استيلائهم على المهدية اثنتي عشر سنة ، انتهى كلام صاحب الاستقصا ملخصا

وذكر ياقوت في معجم البلدان المهدية ووصف حصانتها با كثر مما وصف صاحب الاستقصاء وقال: انها من بناء المهدي العبيدي الفاطمي وان روجار صاحب

صقلية أنفذ اليها جرجي سنة ٥٤٣ واستولى عليها وبقيت في يد الافرنج اثنتى عشرة سنة حتى قدم عبد المؤمن سنة ٥٥٥ فأخذها ولم تغن حصانتها في جنب قضاء الله شيئاً انتهى

فاما قول صاحب صقلية انه لو قتل عبد المؤمن افرنج المهدية لقتل هو مسلمي صقلية فقد كان يصدر مثل هذا الفعل من الافرنج ... فاما المسلمون فكانوا يأنفون من ذلك ، وصالح معاوية بن أبي سفيان الروم وارتهن منهم رهناء فوضعهم ببعلبك ثم غدر الروم وقتلوا المسلمين فلم يشأ معاوية والمسلمون قتل من في أيديهم من رهائن الروم وخلوا سبيلهم، وقالوا : وفاء بغدر، خير من غدر بغدر، وهو قول العلماء والامام الاوزاعي رضي الله عنه . وهو من قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى)

وقد كان شاهد هذا الحديث هو صنيع عبدالمؤمن بن علي السلطان الكبير الذي قيل فيه :

ماهز عطفيه بين البيض والاسل مثل الخليفة عبدالمؤمن بن علي

فقد ساق مائة الف مقاتل ومعها مائة الف من سوقة واتباع من مراكش إلى تونس بدون أن تتأذى بهم سنبلة قمح ، ولما أراد حصار المهدية جعل الحبوب جبالا . فمثل هذا بين الملوك يقدر له النجاح ، ويصحب دولته الفلاح

ولعبد المؤمن بن علي آثار كثيرة منها بمراكش بستان المسرة طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها ، ورووا انه كان مبيع زيتون هذا البستان وفواكهه ثلاثين الف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش

وقد درس هذا البستان كما درس غيره حتى جدده المنصور السعدي بعد ذلك باربعمائة وخمسين سنة

مثـــــال آخر

عبد العزيز... (handwritten-style title)

من سيرة المنصور السعدي فاتح تنبكتو والنيجر والسودان

كان المنصور السعدي صاحب المغرب وفاتح تنبكتو والسودان و بلاد النيجر من أشهر الملوك الذين عمروا وتمروا في الاسلام . ولو لم يكن كذلك ماتمكن من ارسال تلك الجيوش الجرارة إلى تلك البلاد القاصية العاصية ، ومن تدويخها واضافتها إلى مراكش حيث بقيت مدة طويلة تابعة للمغرب . فهو له مايفتخر الافرنج اليوم بمثله مع تقدم وسائل النقل وترقي جميع أسباب العمران أضعافا مما كانت منذ ثلاثة قرون ونصف . وكانت جيوش المنصور السعدي لاتحصى ، وكان له في ترتيب جيوشه وحالات أسفاره من فنون النظام مايدهش العقول ، وقد نلم بذلك في فرصة أخرى

والمنصور السعدي هو باني القصر المسمى بالبديع في حاضرة مراكش مكث يبني فيه ست عشرة سنة ، لم يتخلل ذلك أدنى فترة ، وحشد المنصور له الصناع حتى من بلاد الافرنجة ، وجلب له الرخام من بلاد الروم ، وكان المنصور قد اتخذ معاصر السكر ببلاد حاحة وشوشاوة وغيرهما ، فكان عنده سكر كثير ، فكان ـ حسبما قالوا ـ ربما اشترى الرخام بالسكر وزنا بوزن

وكان المنصور السعدي الملقب بالذهبي يحتفل بالعمران إلى الغاية القصوى ، ويحسن إلى الاجراء ويجزل صلة العارفين بالبناء ، ويوسع عليهم في العطاء ، ويقوم بمؤن أولادهم حتى لاتتشوف اليهم نفوسهم ، ولا تتشعب أفكارهم ، واما قصره « البديع »

فلا أجد هنـا فسحة لوصف محاسنه الباهرة، فمن أراده فليقرأ ذلك في الاستقصا او غيره من تواريخ المغرب

وأتذكر أني قرأت لجيروم وجان نارو من أشهر كتاب الفرنسيس كتابين في وصف بلاد مراكش ومن جملة ماذكرا بافتتان لايوصف قبة مدافن الملوك السعديين، وقد قالا ان فيها من بديع الصنعة مالا يخطر على بال أحد، وان من لم يشاهد هذه القبة وماهناك من المباني «لا يعرف إلى أية درجة تناهت المدنية الاسلامية»

مثـال آخر

سيرة مولاي اسماعيل

(سلطان المغرب في اواخر القرن الحادي عشر الى منتصف القرن الثاني عشر)

ومن أعظم ذوي الآثار بين ملوك المغرب بل بين ملوك الاسلام بل بين ملوك العالم بأسره السلطان المولى اسماعيل جد العائلة الشريفة المالكة الى اليوم في المغرب. وكان ملكه بعد الثمانين وألف للهجرة، وهو الذي قلع الاسبانيول والبرتغال من سواحل المغرب، وقلع الانكليز من طنجة، وألف الجيش الدائم المسمى بالبخاري، وكان مركبا من مائة ألف من العبيد السود. واستمر حكمه أربعا وستين سنة منها سبع سنوات بالنيابة عن أخيه المولى الرشيد وسبع وخمسون سنة بالاصالة، حتى كان جهلة الاعراب يعتقدون انه لا يموت وكان الذين يستبطئون موته يلقبونه (بالحي الدائم) فهو والمستنصر العبيدي الفاطمي ولويس الرابع عشر وفرانسو جوزيف من قبيل واحد في طول مدة الحكم. وكان المغرب في طول مدة حكمه يتمتع بالأمن الشامل

قال صاحب الاستقصا «لم يبق لأهل الدعارة والفساد محل يأوون اليه

ويعتصمون به ، ولم تقلهم أرض ولا أظلتهم سماء سائر أيامه »

وعندي كتاب تاريخ للسلطان المولى اسماعيل بالافرنسية نقلت عنه بعض جمل مرة في إحدى مقالاتي إلى (الشورى) وكان المولى اسماعيل مغرما أيضا بالبناء ،متذكراً قول القائل:

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها   من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء إذا تعاظم شأنه   أضحى يدل على عظيم الشان

وكان يحب مكناسة الزيتون لعذوبة مائها ، وطيب هوائها ، وسلامة مختزنها من العفونة . فلما فرغ من أمر فاس جاء الى مكناسة واشترى دور الاهالي ، وأمرهم بالبناء في غربيها، وأدار عليها السور وانفرد بالجانب الشرقي من المدينة ، وجعله كله براحا ، وشرع يبني فيه ، واستجاد الصناع من جميع البلدان ، وفرض على القبائل عدداً معلوما من الرجال والبهائم يبعثون به كل شهر . وفرض على المدن والحواضر عدداً معلوما من البنائين والنجارين والحدادين والنحاسين — إلى غير ذلك ، وكانت حاضرة ملكه لا تخلو من عشرين ألف أسير من الافرنج فكان يشغلهم أيضا في مبانيه

وكان كلما انتهى من قصر بنى غيره وكانت الجنان تحيط بقصوره كلها ، وبنى مسجداً عظيما جداً في داخل القصبة التي أسسها، فضاق هذا المسجد بالناس فيما بعد ، فبنى مسجداً أعظم منه اسمه (الجامع الاخضر) وجعل له بابين : باباً إلى القصبة وباباً إلى المدينة . وجعل للقصبة ٢٠ باباً كلهافي غاية الارتفاع والسعة مقبوةمن أعلاها، وفوق كل باب منها برج عظيم ،عليه من المدافع النحاسية العظيمة مايقضي بالعجب ، وجعل في هذه القصبة بركةعظيمة تسير فيها الفلك والزوارق للنزهة والانبساط . وجعل في القصبة هريا عظيما جداً لاختزان الحبوب يقال انه كان يسع حاصلات أهل المغرب، وجعل بجواره سواقي للماء في غاية العمق مقبواً

عليها وبنى أعلاها برجا عظيما مستدير الشكل فيه مدافع موجهة إلى كل جهة

وأما الاصطبل فلا أظن انه وجد اصطبل مثله في العالم لان طوله فرسخ وعرضه فرسخ (الفرسخ نحو كيلو مترين) مسقف على اساطين وأقواس عظيمة في كل قوس مربط فرس، وبين الفرس والفرس عشرون شبرا . كان يربط بهذا الاصطبل ١٢ ألف فرس مع كل فرس سائس من المغاربة وخادم من اسرى الافرنج (سقى الله تلك الايام) وفي هذا الاصطبل ساقية للماء مقبوة الظهر يأتي منها الماء الى كل مربط فرس بثقب خاص، وفي وسط الاصطبل قباب معدة لوضع سروج الخيل، وفيه هري متناه في العظمة مربع الشكل معقود أعلاه على أساطين وأقواس هائلة لوضع أسلحة الفرسان وينفذ اليه الضوء من شبابيك من حديد من جهاته الاربع . وفوق هذا الهري قصر اسمه المنصور ارتفاعه مائة ذراع وفيه ٢٠ قبة في كل قبة طاق عليه شباك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسيط مكناسة الزيتون، ويجاور هذا الاصطبل بستان على قدر طوله، فيه من شجر الزيتون وجميع الفواكه ما يدهش، ويتخلل هذه القصور التي في داخل القصبة شوارع مستطيلة متسعة، وأبواب عظيمة فاصلة بين كل ناحية وغيرها، وساحات ورحاب فسيحة، إلى غير ذلك مما يتعذر استقصاؤه

قال صاحب (البستان) «ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجبال، لم تخلقها عواصف الرياح ولا كثرة الامطار والثلوج، ولا آفات الزلازل التي تخرب المباني العظام، والهياكل الجسام» قال: «ومن يوم مات المولى اسماعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم، وبحسب طاقتهم، ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج ورخام ولبن وقرميد ومعدن وغير ذلك الى وقتنا هـذا، وبنيت من أنقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب، وما أتوا على نصفها من مائة سنة، وأما الجدارات فلا تزال ماثلة كالجبال الشوامخ» الخ

قلت وقد مضى على ذلك من عهد هذا الكاتب نحو من مائة وستين سنة ولا تزال آثار اسماعيل في مكناسة الزيتون تحير العقول، وكان يمكن ان تبقى القرون وبعدها القرون، لولم تعمل فيها المعاول والفؤس. فأما ان أولاد السلطان المذكور وحفدته كانوا يهدمون منها ويبنون بأنقاضها فهذا لعمري شأن جميع ملوك الاسلام وأمرائه وأتباعه تقريبا، فكلنا في هذا المعنى من اولاد وحفدة المولى اسماعيل لا نعرف سوى هدم مابناه لنا أسلافنا من مادي ومعنوي على السواء وان بنينا شيئا فانما نبني بأنقاض الابنية العتيقة. نحن هكذا في المشرق والمغرب لانه لا يوجد أمة يشبه بعضها بعضا مثل المسلمين

وبرغم كل ماهدمناه وعفيناه من الآثار لايزال شيء كثير أفلت من تحت معاولنا الهادمة ونجا من بين أيدينا الطولى في التدمير. ولا تزال الافرنج تصور من هذه الآثار وتتحف بها العالم المتمدين

وبين يدي مجاميع عدة من الصور الفوتوغرافية منها ما يشتمل على المباني الاسلامية في المشرق ومنها مجموعة خاصة بفلسطين، ومنها مجموعة خاصة بالاقطار المغربية، ومنها ماهو خاص بالاندلس. وثمن المجموعة من هذه جنيهان وثلاثة وأربعة جنيهات تسمح النفس بها لتزيين قاعة الاستقبال بمثلها، لانها أولى بقاعات الاستقبال منها بخزائن الكتب

وأما من جهة الكتب الخاصة بموضوع الفن المعماري الاسلامي فعدا ما كتب في هذا الباب في أوربة وما برز فيه الدكتور الفيلسوف غستاف لوبون ظهر كتاب حديث للمسيو غروسه المتخصص في تواريخ الامم الاسيوية اسمه (مدنيات الشرق) والمؤلف افرنسي اسمه Kené Groasset سبقت له مؤلفات عن الشرق الاقصى: اليابان والصين ثم عن الهند — معدودة في الطبقة العليا من التحقيق والصحة، وفي هذه الايام الاخيرة أخرج كتابا عظيما ظهر منه الجزء الاول يبحث عن مدنيات آسية من أقرب وقت من العصر الحجري ثم المدنية المصرية

ثم المدنية الكلدانية الاشورية ثم المدنية الفارسية القديمة ثم المدنية العربية ثم المدنية الفارسية في الاسلام .وكل هذا بالرسوم والصور

ولابد من أن نجعل في البحث نصيبا لهذا الكتاب لانه رفع فيه راية بيضاء للعرب وفسح لهم مكانا فسيحا عاليا من تأليفه يفقأ الحصرم في أعين الشعوبية المحدثين الذين منهم نفر بمصر يحاولون ان يغمطوا من فضل العرب وان يغضوا من قدر حضارتهم وأن ينطحوا صخرة مجدهم بقرون عتاد ليس أمامها الا الوهى

هذا — وقد يقول بعضهم : إلا ان ماترويه وتقوله انما كان في أعصر ماضية خالية ، واليوم قد تحول هذا كله وحصل الراديو والكهرباء والبخار وأنّى لنا أن نباري الافرنج وقد تصرفوا بالطيارات والدبابات ووصلوا الدنيا بعضها ببعض باللاسلكي والباخرة والسيارة الكهربائية وغير ذلك

فان كان باقيا من ينطق بهذا السخف من الشرقيين قلنا له: انك لفي ضلال مبين، فان الرقي الاوربي لم يكن مبدؤه البخار وتموجات الهواء وانما كان مبدؤه النهوض والارادة، ومنهما وصل بهم اجتهادهم في البحث والتنقيب الى استخدام قوة البخار وقوة الزيت والاستفادة من تموج الهواء . فأصل الرقي هو إرادة الرقي ومعدات الصعود حاضرة لمن شاء الصعود ، ولا ينبغي للمرء أن يكون عالما بالفن حتى ينشره ويحمل الناس عليه ،فمحمد علي كان أميا تقريبا وقد كان رجلا عظيما وأسس مدنية مصر الحديثة

وابن سعود «البدوي» على رأي أعدائه الذين يقصدون غمزه بهذه الكلمة لم يمنعه بداوته عن استعمال السيارات الكهربائية والمواصلات اللاسلكية وغيرهما من أسباب المدنية العصرية ،وقد وفق لذلك في وقت قصير وقد بدأ به الانقلاب المادي المدني في جزيرة العرب ، ولو كان لمملكة ابن سعود دخل الحكومة المصرية أي ٤٢ مليون جنيه في السنة لأجرى من المشروعات العمرانية في الحجاز ونجد ما لايخطر على قلب بشر

ونعود الآن الى الحجاز ونذكر ماكان فيه وما ابتدأ أن يكون فيه وما نرجو أن يكون فيه في المستقبل

خبر المطوفين في مكة المكرمة والمزورين في المدينة المنورة

نعود الى الموضوع المتعلق بالحجاز خاصة ونطوف على مقام مقام منه فنبدأ بالمطوفين والمزورين فنقول :

ان المطوف يكون لازما ومتعديا ، فاللازم هو بمعني الطائف لان العرب تقول: طاف بالمكان وطوف به . فالمطوف قد يتضمن معنى الطائف وقد يصدق على الحاج نفسه لانه يطوف (بالتشديد) بالبيت العتيق ، وقد يكون متعديا وهو من طوفه مثل أطافه ، فالمطوف هو الذي يطوف بالحاج حول البيت وفي المقامات المباركة . ومن الغريب اني لم أجد « المطوف » في كتب اللغة ولكن القياس يقتضيه فهو اسم فاعل من طوفه او اسم فاعل من طوف به .

وأما «المزور» فهو في اللغة من يكرم الزائر، يقال: زرتهم فزوروني ، أي أكرموني وأحسنوا إلي. ولا شك ان هذه اللفظة تشعر عند سماعها شيئا من الكراهية لاشتراكها في معنى آخر، وهو الآتي من الزور، ولكن اللغة واسعة، وكم من لفظ يدل على معاني كثيرة وليس هذا منحصراً في العربية بل هو في كل اللغات.

ولفظة « المزور » بمعنى الذي يقوم بخدمة الزائر لم يوجد مع الأسف سواها لهذا المعنى فلا بد من قبولها على علاتها ، ويجوز أن تقول « المزير » بضم أوله وهو اسم فاعل من ازاره ، ولكن العامي يستثقل لفظة «مزير» وأن يقول: جاء المزيرون ورأيت المزيرين ومررت بالمزيرين ، فهو يفضل أن يقول : جاء المزورون ورأيت المزورين الخ وعدا هذا الاستثقال في اللفظ لاتتضمن لفظة « مزير » ماتتضمنه لفظة «مزور» لأن المزير اسم فاعل من ازاره أي جعله يزور ، وأما

المزور فهو الذي يخدم الزائر ويكرمه ، وهو أقرب الى المعنى المراد برغم قبح اشتراكه في معنى آخر

وبالاختصار نقول : ان في الحجاز الشريف حماه الله طائفتين لابد لقاصد الحجاز أن يكون له علاقة معهما ولا يكاد يستغنى أحد عنهما ، وهما المطوفون بمكة والمزورون بالمدينة

فالحاج يأتي غريباً لايعرف أحداً والغريب أعمى ولو كان بصيرا ، فلا بد له من دليل يدله ويسعى بين يديه ويقضى حوائجه ويرتب له قضية سفره ومبيته ويعلمه مناسك الحج التي أكثر الحجاج يجهلونها ، وإن كان منهم من يعلمها جملة فليس يعلمها تفصيلا . وإن كان منهم من يعلمها جملة وتفصيلا فهو النادر الذي لايبنى عليه حكم . وزد على هذا ان الحجاج ليسوا جميعا من ابناء العرب فيمكنهم أن يسألوا عن الطرق والمنازل والمناسك والمناهل ويزيلوا عمى الغربة بطول السؤال لامكان تفاهمهم مع الحجازيين ، بل حجاج العرب لايزيدون على خمس حجاج المسلمين والاخماس الاربعة الباقية هي من أمم تجهل اللسان العربي، فكيف يصنع حجاج هذه الامم إذا لم يكن المطوفون ؟ وكيف تصنع المزدارة (زوار المدينة المنورة) اذا لم يكن المزورون ؟

واني لأعلم ان كثيراً من الناس يطعنون في المطوفين والمزورين بل يبالغون في ذمهم أو في ذم العدد الكثير منهم، ويقولون انهم ينهبون الحاج ويجورون عليهم ويتقاضونهم من الأجرة أضعاف حقوقهم ، وقد يخدعونهم ويغشونهم ويرتكبون في أمورهم كل محرم . ولقد كنت أسمع هذه القصص قبل أن حججت وقبل أن عرفت مكة والمطوفين ، وقبل أن زرت المدينة وعرفت المزورين . والمثل السائر عندنا يقول: الله يساعد من يتكلم فيه الناس بالمليح فكيف بالقبيح ؟ فالمطوفون والمزورون ولا سيما الفريق الاول منهم قد وقعوا في ألسنة الناس من

قديم الزمان، ويجوز أن يكون بعضهم غير بريء بالمرة من هذه التهم أو من بعضها، ويجوز أن تكون حصلت وقائع في وقت من الاوقات . وغير معقول ان طائفة كهذه تعد بالمئات وتتجاوز المئات تكون بأجمعها من الفرقة الناجية، ومن ذوي الاخلاق الفاضلة ،وانه لايجوز أن يصدر عنها عمل سيء ولا تلوث بطاعية أو خديعة ، فالذين يطلبون الكمال عند المطوفين والمزورين ينسون انهم بشر، وينسون انهم مرتزقون، وينسون ان أكثرهم عوام، وينسون ان رزقهم انما هو على حجاج البيت الحرام . ولو دقق الانسان النظر في المطاعن التي توجه على هؤلاء لوجد ان أكثرها مبني على كون المطوف أو المزور يتقاضى الحاج حقه أو يطمع في أن يأخذ منه بدلا من الجنيه الواحد جنيها ونصفا مثلا . والحجاج أغنياؤهم عدد قليل لأن الغني في أكثر الاحيان يميل الى الرفه والترف، وهذان لاينتظمان مع الحج ومشاقه ولا سيما اذا كان الفصل صيفا ،وأكثر فصول الحجاز صيف ، والقسم الاعظم من الحجاج هم من طبقة المساتير الذين ليسوا من ذوي الفضلة، والذين لايقدرون أن يعيشوا إلا ببودجة مالية متوازن واردها مع نافذها والنفقات غير الملحوظة فيها زهيدة جداً ، فهؤلاء لايقدرون أن ينفقوا كما شاؤا وهؤلاء أكثرهم يبقى سنين من حياته وهو يوفر شيئا من رزقه ويقطع عن نفسه حتى يجتمع في يده خمسون جنيها يدخرها للحج فهو يحسب مصروفه منها بالقرش الواحد . وبديهي ان مثل هذا المستور لا يمكنه أن يغدق نعما على المطوف أو المزور وان حالة هذا أشبه بمثل قد سمعته من عامي ظريف في أيام الدولة العثمانية : مثل طاقم العسكري لاينشق من محل إلا ظهر جلده

ومما يؤسف ان ثلاثين في المائة من الحجاج ـ وربما أزيد ـ فقراء معدمون لايستطيعون في الحقيقة الى البيت سبيلا وليست عليهم فريضة حج ، ولكنهم يحملون أنفسهم إصراً لا قبل لهم به ، فيعيشون من أكياس رفاقهم ومن أكياس

أهل الحجاز وقد يصيرون عالة على المطوفين أنفسهم

فاذا صح من هذه القالة بحق المطوفين قيراط أو قيراطان فالاثنان والعشرون قيراطا الباقية أقاويل تزريف على المطوفين وتزوير على المزورين

المطوف يكاد يكون كالجمل في الحج لا يستطاع الحج بدونه. يأتي الى السفينة بمجرد أن تلقى أنجرها في بحر جدة فيأخذ حاجه بيده ويضع له حوائجه في الزورق، ويأتي به الى الميناء ويخرجه الى البر، ويخلص له معاملة تذكرة المرور ومعاملة المكس، ويتيستا بالشيء الهين نظراً للزحام ولما يجب على إدارة التذاكر وإدارة الجمرك من التدقيق. ثم إذا أراد الحاج أن يستريح في جدة بيته المطوف فيها وأركبه ثاني يوم جملا في شقدف وسار به وبغيره من أمثاله وقد حمل لهم زادهم وماءهم وكل شيء يلزم لهم وأوصلهم الي مكة وافرين آمنين. وأنزلهم في منزله مكرمين، وقبل أن صارت الأمنة ماهي عليه الآن بحول الله ثم بابن سعود (إخواننا النجديون لا يجيزون في مقام كهذا الاستعمال ثم وينكرن استعمال الواو (١) فنحن لانقول لهم إلا «ثم») كان المطوف يشاطر الحاج أخطار الطريق

وبمجرد وصول الحاج إلى البلد الحرام يأخذ المطوف بيده إلى الحرم فيطوف به سبعاً حول البيت العتيق ثم يسعى به سبعاً بين الصفا والمروة يهرول فيه بين الميلين الاخضرين وفاقا للسنة. ويعلمه جميع أصول الحج ويلقنه جميع الكلمات والالفاظ التي ينبغي أن تقال في ذلك المطاف الكريم، ويتلو أمامه الادعية التي يبتهل بها عند مقام ابراهيم، وبين زمزم والحطيم

ولما كان أربعة اخماس الحاج هم من الهند والجاوي والترك والارناؤط والبشناق

(١) هذا الأدب مأثور والمراد منه الفرق في المرتبة بين ما يسند الى الرب وما يسند الى عباده، وهو ما يدل عليه العطف بثم من التراخي، واما العطف بالواو فهو لمجرد الجمع فكان ما يسند الى الرب وما يسند الى العبد في مرتبة واحدة

والطاغستان والفرس والصين والزنج كان على المطوف في تلقين هؤلاء من أصناف الامم الاعجمية صنوف الادعية والابتهالات والجمل العربية الفصيحة التي تتشقق حلوقهم بقافاتها وحاآتها، وتتلبك السنتهم بضاداتها وثاآتها، مالا يقل عن تعب المعلمين للصبيان، ومالا ينبغي أن يستخف بشأنه ولا يستهان، وكم مرة يضطر أن يعيد له الكلمة أو الجملة وهو يقولها بعكسها، ويلفظها بنكسها، ويقلبها عن معناها، ويجعلها عن المراد أبعد من الارض عن سماها، وربما اعادها له المطوف ثلاثين مرة وهو لايقيمها ولا يفتأ يغلط فيها(١)

ولولا ان الاعمال بالنيات لكان كثير من أدعية هؤلاء غير مقبول ولكن الله سميع الدعاء، ناظر إلى الضمائر عالم بالمقاصد، لايحمل اصراً على الضعيف، وليس بصحيح قول بعضهم ان الدعاء يجب ان يكون معربا ليكون عند الله مقبولا. اذاً لكان سيبويه أنجح الناس دعاء

ولا يجب أن يظن ان المطوف ينحصر تلقينه هذه الادعية وهذه الجمل بالهندي والسندي والجاوي والتركي الخ، بل هو مضطر ان يلقنها أكثر الحجاج حتى من العرب لاسيما العوام والنساء والاحداث. ولا فرق بينهم وبين الحجاج الاعاجم إلا في كون العربي يعيد الكلمة من أول مرة على وجهها ولا يذيق المطوف عرق القربة في تعليمه اياها كما هو شأن الاعجمي

وقد صارت للمطوفين وطوافيهم عادة انهم بمجرد مايرون طائفا يتطوف

«١» اكثر هذه الأدعية والاذكار التي يلقنونها للحاج غير واجب ولا مسنون، والذي ينبغي لهم هو ان يعلموا الحاج الاذكار المأثورة كالتلبية وبعض الادعية وهي قليلة وأن يدعوا الله فيما عداها بلغته، سائلا اياه مايشعر بحاجته اليه من خير دنياه وآخرته وقد اقترحت على الملك أن يأمر بتعليم المرشحين لهذه المهنة تعلما خاصا بحيث يكونون من المتفقهين في الدين وقادرين على اتقان خدمتهم للحاج من كل وجه ولا بد أن يفعل ان شاء الله تعالى

بالبيت العتيق جاءوا الى جانبه وجعلوا يلقنونه مايحسن أن يقوله حتى لو كان الامام الغزالي ، أو السيد محمد رشيد رضا من أئمة زماننا ، وذلك ناشيء عن انهم لا يعرفون الناس ولا يفرقون بين العالم والجاهل

وقد جاءني واحد من هؤلاء وأنا أطوف ، وجعل يقول لي : قل اللهم كذا اللهم كذا حتى أعيدها من بعده فقلت له : أنا غير محتاج إلى من يعلمني العربية ولا كيف يجب ان أخاطب بها ربي

هذا والمطوف هو الذي يكفل جميع حاج الحاج وأغراضه منذ يطأ رصيف جدة إلى ان يطأ سلم الباخرة قافلا ، فيحمله إلى مكة ثم الى عرفة ، ثم إلى المزدلفة ، ثم الى منى ، ثم يعود به الى مكة ، واذا أراد الزيارة هيأ له جميع أسباب السفر الى المدينة وهناك سلمه إلى المزور الذي هو صاحب هذه المصلحة في المدينة لا يتجاوز عليه غيره فيها

واذا سأل الحاج عن أي شيء من الفلك الى الذرة فلا بد من أن يجيبه المطوف عليه ، واذا احتاج الى أي شيء من الجمل الى البرغوث فلا بد من أن يأتيه به . واذا وقعت له واقعة مع انسان تقتضي مراجعة الحكومة فعلى المطوف أن يرافق الحاج الى صاحب الشرطة ويترجم له عنده

ومما يدهش العقل أن المطوفين والمزورين يعرفون جميع لغات العالم وأكثرهم يعرفون التركي ، ومطوفو العجم يعرفون الفارسي ، ومطوفو الهند يجيدون لسان الاوردو ، ومطوفو الجاوي يعرفون لغة الملايو ، وإن كان أكثر مطوفي الجاوى من الجاويين المقيمين بمكة ، ومطوفو البشناق يعرفون لغة الصرب ، ومطوفو الارناؤوط يعرفون لغة هؤلاء

وقد بلغني ان بعض المطوفين يعرفون لغة الصين ومنهم من يعرف لغة الفيلبين . واللسان التكروري شائع بمكة كأنه العربي والسودانيون ليسوا فيها بغرباء ، زد على هذا اللغات الاوربية التي يعرفها المطوفون من روسي وانكليزي وافرنسي وغيرها . فالمطوفون في هذا أشبه بمستخدمي الفنادق في أوربة يضطرون

إلى معرفة لغات كثيرة لتنوع أجناس السياح الذين ينزلون بفنادقهم . لكن دائرة علم المطوفين أوسع من جهة الكمية . فالعمال في فنادق أوربة يتعلمون بخاصة الانكليزي مثلا لكثرة سياح الانكليز والامريكيين، وقد يتعلمون الاسبانيولي لكثرة سياح امريكا الجنوبية ، ولا تجدهم يعرفون التركي والفارسي والاوردو والجاوي، فما ظنك بالصيني والفليبيني، فمكة أعظم معرض للاجناس واللغات

ولو كان العرب على نمط الاوربيين في اتقان كل شيء ، والاستفادة من كل شيء ، والتفنن في الاستثمار والاستغلال، لوسعوا دائرة تعلم هذه اللغات على وجه الاتقان، وزادوا بها تسهيلات فريضة الحج ، وكانت لهم من وراء ذلك أرباح مدهشة ،وكانت العربية أيضا تستفيد لان القادمين الى مكة من تلك الامم اذا أطالوا بها المكث تعلموا العربية واستعربوا ،ولكننا نحن معاشر العرب برغم ذكائنا الفطري الذي لاجدال فيه نحب البقاء على الفطرة ،ولا نرغب الا فيما هو أقرب الى الطبيعة . وهذا جيد في الشعريات لا في الرياضيات ولا في الاقتصاديات

واذا مرض الحاج فالمطوف هو الذي يعلله ويأتي له بالطبيب وبالدواء ويسهر عليه ، واذا مات فهو الذي يخبر بذلك الحكومة ويأتي بأناس من قبلها ويضبط في حضورهم حوائجه ، ولو سمى المطوف « كافلا » للحاج لما كان في هذه التسمية أدنى مبالغة ، ومع هذه الكفالة الشاملة الكاملة التي فيها من الركض والعناء وتعب الفكر والمسؤولية ما فيها يكون آخر الامر جميع النحلان جنيها واحداً عن كل رقبة ، هذا هو النحلان المقرر، فمن طابت نفسه بان يزيد فذلك عائد الى سماحة نفسه ، ولا شك في أن الحاج الذي يجشم المطوف جميع تكاليفه ويريد أن يتخذ منه دليلا وحارسا ومحاميا ومفتيا وطبيبا وصيدليا وممرضا ودلالا وغير ذلك في وقت واحد يكون ظالما إذا استكثر أن ينقد هذا المطوف في آخر السفرة جنيها واحداً

ولا شبهة في أن من الحجاج من يؤدي بدلا من الجنيه الواحد الجنيهات الكثيرة ، والمسلمون يغلب عليهم الخير ، وقد يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

ولكن لا ينكر أيضا أن كثيراً من الحجاج قد يتعذر عليه دفع الجنيه الواحد أو لا يبقى في يده شيء عند الاوبة إلا ما يكفيه لاجل الوصول الى وطنه أو يقع العجز في

« بودجته » الضئيلة من أصلها ، فتجد المطوف قد حرم مع حاج كهذا نتيجة تعبه ورضي بنصف جنيه بدلا من جنيه وقد يضطر الى أن لا يأخذ من حاجه شيئا

وقد وقع لمطوفين أن أدوا الى حجاج معدمين من صلب مالهم ، وكثير من أهل مكة من يضطرون الى سد عوز بعض الحجاج ويؤدون الى هذا ما كانوا استفادوه من ذاك . وكان ينبغي للحكومات أن تمنع الفقراء من الحج وتأخذ من كل الحجاج رهائن كما تفعل بعضهم ، وذلك لان غير المستطيع ليس عليه حج ، ولان غير المستطيع يصير وقراً على غيره في الحج فيعجز الآخرين الذين رتبوا زادهم على قدر احتياجهم ، ولم يجعلوا بينهما فسحه للطواريء غير المنتظرة ، وكذلك لان أهل مكة والمدينة أنفسهم يضطرون الى غوث هؤلاء الفقراء ولا يقدرون أن يشاهدوهم يتضورون جوعا (١)

ولا حاجة الى بيان أن وجود مثل هؤلاء في محشر كمحشر الحج هو خطر على الصحة العمومية لانهم لا يقدرون أن يعتنوا بنظافة أبدانهم ولا أن يغسلوا بالصابون ولا يملكون أسباب النظافة

وقد فقد الحجاز بعد الحرب الكبرى موارد رزق عظيمة كانت تنصب اليه منها الصرة العثمانية ومنها الحج التركي الذي منعته أنقرة ومنها الصرة المصرية وصدقات الحبوب التي كانت ترسل من مصر ، فهذه كان يرتفق بها أهل الحجاز ويعيش بها فقراء الحجاج ، وأين هي الآن ؟ فلا جرم ان الحجاز أصبح لا يتحمل من الفقراء ما كان يتحمله في الاول

---

(١) حيا الله الأمير وجزاه خيرا بما انفرد به من بيان حال المطوفين وجليل خدمهم للحاج وقلة ما يأخذون من الاجرة على هذه الخدمة واستغرابه ذم بعض الناس لهم ونبزهم بالطمع ، ومن بيان حال أهل الحرمين عامة في معايشهم وقد ذكر الفقهاء أن من آداب الحاج وعلامة قبول حجته أن لا يعد ما ينفقه في الحجاز مغرما كما وصف الله المنافقين وأن لا يتبجح به وألا يؤذي جيران الله ورسوله بقول ولا فعل ولا يشكو مما يقاسي في الحرمين من تعب ومشقة وليعتبر المنافقون الذين لا يكتفون ببسط ألسنتهم البذيئة بهذه الشكاوي والمذام بل ينشرونها في الجرائد فيكون لها اسوأ الاثر في تثبيط الناس عن أداء هذه الفريضة فيا ليتهم لم يحجوا

اقتسام المطوفين والمزورين لحجاج الاقطار

لقد قسم المطوفون والمزورون العالم الاسلامي فيما بينهم مقاطعات أشبه بما كانت عليه الممالك في الماضي . فبلاد العرب لها مطوفون، وبلاد الترك لها مطوفون وبلاد الفرس لها مطوفون ،وبلاد الافغان لها مطوفون ،وبلاد الهند لها مطوفون وبلاد الجاوى لها مطوفون . وهلم جراً . وكذلك لكل من هذه مزورون

وكل من هذه البلدان الكبار تنقسم أيضا بين المطوفين والمزورين إلى دوائر أشبه بالولايات التي تنقسم إلى متصرفيات. وهذه تنقسم إلى أقضية لعهد الدولة العثمانية . فمصر مثلا يتقاسمها مطوفون متعددون : أناس لهم القاهرة وأناس لهم الاسكندرية ، وأناس لهم دمياط والشرقية، وأناس لهم المنيا وبني سويف والفيوم وهلم جراً . والمغرب أيضا دوائر، فمصراطة لها مطوفون، وبنغازي لها مطوفون ، والقيروان لها مطوفون . ووادي ميزاب له مطوفون . ولكل من الريف وفاس مطوفون . ولكل من مراكش والسوس الاقصى وتنبكتو مطوفون وهلم جراً ودمشق وحمص وحماه وحلب وطرابلس وبيروت وصفد ونابلس والقدس والخليل الخ لكل بلدة أو بلدتين أو ثلاث منها مطوفون معلومون . ولا يتجاوز مطوف على مطوف ، ولا مزور على مزور إلا برضى الحاج نفسه . فاذا اختار حاج أزميرأن ينزل عند مطوف حاج (أماسيه) أومطوف (كوتاهيه) مثلا فله ذلك. وإذا راجع حاج (شيراز) مطوف (تبريز) بدلا من مطوف شيراز فلا حرج عليه في ذلك . وإذا وقع بين المطوفين في مكة أو بين المزورين في المدينة خلاف فالمرجع هو شيخ المطوفين وشيخ المزورين ، والحكومة تراقب كلا منهم

ولليمانيين أيضاً مطوفون ولكن فائدة هؤلاء منهم لا تذكر . وليس للحجازيين ولا للنجديين مطوفون ، لانهم يعرفون المناسك كلها ولا يحتاجون إلى ادلاء .

ولا يلزم لهم من يستأجر لهم الجمال ، لان الجمال كلها لهم . وقلما يستفيد منهم الحرمان الشريفان إلا بأكلهم وشربهم من السوق

ومن مزايا المطوفين انهم يجوبون الاقطار ولا يستبعدون منها بعيداً ، وتجدهم حتى في الصين وكاشغر وسيام وسومطرة وجزائر الفيلبين وكل بلد فيه مسلمون يرغبونهم في الحج ويسهلونه عليهم ، ويصفون لهم اللذات الروحية التي يشعر بها المتطوفون بالبيت الحرام ، والقاصدون إلى عرفات والمشاعر العظام ، والزائرون لروضة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولا يزالون بهم حثا وترغيباً واستحثاثاً للنفوس واستحلابا للعبرات إلى أن يأتوا بنفر منهم إلى الحج . والمطوفون أينما ذهبوا يكرمهم المسلمون ويقومون بضيافتهم تبركا بالبقاع التي صدروا عنها والبيت الذي يخدمون فيه . وهم يستفيدون بهذه الاسفار الطويلة معرفة واطلاعا ويتعلمون اللغات الاجنبية

ولو كانت أمورنا على النسق الاوربي الذي قاعدته استغلال كل شيء لكنا أسسنا مدرسة خاصة بالمطوفين والمزورين ، يتعلمون فيها إتقان التطواف وكيفية ترفيه الحجاج والمزدارة ، وتوفير اسباب راحتهم ، وتلقينهم الادعية والاذكار المأثورة بأيسر الطرق ، وبث الدعاية اللازمة بالاوصاف والصور ، حتى يزداد عدد الحجاج القادمين كل سنة . وهكذا تزداد مكة وطيبة عمرانا ويزداد اهلهما يساراً

والحقيقة ان الحج لا يزداد ولا تزداد أرزاقه وخيراته الا بأمرين (أحدهما) أمان الطرق (والثاني) أسباب الراحة

أما الامان فقد توافر في أيام ابن سعود الى حد لا يتطلع فيه متطلع الى مزيد وانما يرجو دوام هذه النعمة .

وأما أسباب الراحة فقد كانت تعد أسباب راحة بالنسبة الى الماضي ولا تعد كذلك بالنسبة الى الحاضر بعد أن انتشرت الاساليب العصرية في النزول والركوب

والمبيت وتوسيع الشوارع وتنظيفها وترصيفها وانارتها بالمصابيح الكهربائية ليلا ، ونسق الحدائق في أوساط المدائن وحواشيها ، وبناء المقاهي الرائعة المزخرفة ، وسائر ما يلذ الاعين ويشرح الصدور ولا يقدر ان يعيش بدونه المترفون ولا يتهيأ لهم سرور ، فالحجاج في الغابر كانوا يأتون من بلدان لاتفوق مكة والمدينة في درجة الرفاهية والانتظام او تتفوق قليلا فكان الحاج لا يشعر بين بالفرق المكانين ولا تتغير عليه البيئة

وأما اليوم فقد صار أكثر العالم الاسلامي تحت حكم الافرنج ، فشاهد الحجاج مدنية الانكليز في الهند وزنجبار ومدنية هولاندة في الجاوى ومدنية فرنسة في شمالي افريقية ومدنية الروس في موسكو وبتروغراد وهلم جراً ،فتعوّد المترفون منهم رفاهة ورفاغة لا يطمعون أن يحصلوا على مثلهما في الحجاز الا في قضية الطعام ، فان طهاة مكة والمدينة لا يفوقهم طهاة تلك البلدان،وربما لا يساوونهم في تطييب الطعام وتأنيقه ، ولكن ليس المأكل هو كل شيء،فلابد للمسلم المترف من أهل تلك البلدان- حتى من أهل مصر والشام والعراق -أن يأمن جهة راحته بحذافيرها حتى يقوم بفريضة الحج

ومن المعلوم ان حج مترف واحد يعود على الحجاز بفائدة مادية أكثر من حج خمسين شخصاً من المساتير أو المتوسطين .

أما الفوائد الروحية فلسنا في هذه الجملة بصددها .وقد نتكلم عنها في موضع آخر ونشرح ما يكفل الحج من جلائلها ، ولكن مع الاسف قد غلبت النزعة المادية الاوربية على الناس وصار البدن هو معبود الانسان العصري ، فأصبحت لاتقدر أن تقتصر في الدعاية الى الحج على ذكر مافيه من اللذة الوجدانية والراحة الروحية،وأنى لعبدة الابدان أن يشعروا بمواجيد النفوس ولذائذ نعيم العرفان . وكل المدنية العصرية مبنية على مدنية أوربة وكل مدنية اوربة تقريبا هي مستغرقة

في خدمة الحواس ولسان حالها ينادي : المادة المادة

ولا ينكر أن السيارة الكهربائية والتليفون واللاسلكي قد كفلت في الحجاز في السنوات الاخيرة راحات واختصارات لم يكن يعرفها من قبل، وان مكانها من الاهمية لا يخفى . ولكن على الدولة السعودية أن تطرد مشروعاتها العمرانية في الحرمين الشريفين وجدة وينبع والطائف الذي هو مصيف الحجاز حتى يعرف أغنياء العالم الاسلامي انهم اذا قصدوا الحجاز ، لا يرهقون عسراً ، ولا يصادفون في شيء من اللذات التي يبيحها الشرع حرمانا ، فأما اللذائذ التي لا يبيحها الشرع فان من فضائل الدولة العربية السعودية حظرها وسد الابواب عليها والتصلب في هذا الشان

ولقد حرم الحجاز منذ سنتين او ثلاث حاج الاناضول لان مصطفى كمال يأبى ان ينفق التركي شيئا من ماله في بلاد عربية ، فهو قد أراد هذا لاجل التوفير على الاتراك بزعمه . وياليته احتاط للتوفير على أمته في الطرق التي ذهبت فيها الملايين من أموالهم إلى جيوب الافرنج كالخمر والميسر والالبسة الافرنجية وما أشبه ذلك مما كان السبب في هوي تركيا الاقتصادي إلى ما هوت اليه ، ومما لم يعد سراً مخفياً . فمسئلة نفقات الحج كانت نقطة من غدير بالنسبة إلى هذه

وكذلك كان من أسباب الثورة النجدية التي استأصل الملك ابن سعود جرثومتها ان موقدي تلك الثورة زعموا ان الحجاج الذين يأتون من طريق البحر مشركون - هكذا سمعنا عنهم والعهدة على الرواة - وطلبوا من ابن سعود أن يسد طريق الحج عليهم ، فجادلهم كثيراً في هذه المسألة فأصروا على غيهم ، فقال لهم أخيراً : وكيف يعيش أهل الحجاز اذا سددنا هذه الطريق عليهم ؟ فقالوا له : يرزقنا الله واياهم - وقد غاب عنهم ان الرزق له أسباب وان الله جعل لكل شيء سبباً ، وان أعظم أسباب ارتزاق الحرمين هو الحج ، وان الله تعالى أنزل في هذه الحقيقة قرآنا غير ذي عوج

وجوب اعتناء حكومات الدنيا بأسرها بأمر الحج

ينبغي لحكومة الحجاز ولسائر الحكومات الاسلامية والحكومات غير الاسلامية التي غلبت على ديار المسلمين أن تعتني بقضية الحج إلى بيت مكة أشد الاعتناء . أما الحكومات الاسلامية فتعتني به من جهة انه فرض ديني معدود من أركان الاسلام يقوم به كل سنة مئات ألوف من المؤمنين

وأما الحكومات الاخرى فتعتني به من جهة ارتباط العالم بعضه ببعض وكونه -لاسيما في العصر الحاضر- أصبح جسما واحداً لايشعر منه عضو بالتياث إلا التاث به سائر الاعضاء . فورود مائتي ألف شخص أو ثلاثمائة ألف شخص من أقطار الكرة الارضية كل سنة براً وبحراً مشاة وركبانا إلى بقعة من جزيرة العرب لزيارة بيت عتيق أسس على التقوى ليس بحادث بسيط لايستوجب الاعتناء ، وسيأتي يوم ينتقل فيه أكثر هذا الحاج إلى بيت مكة بالطيارات ، فتزداد السهولة وتتضاعف السرعة ، وقد يزداد بذلك عدد الحجيج زيادة هائلة لاسيما اذا جد في مكة من تسهيلات الحج ماهو غير متيسر إلى حد اليوم .

ولا يزداد عدد الحجاج بالكمية فقط ، بل يزداد شأنهم من جهة الكيفية ، فيقصد مكة ذوو الترف واليسار وأناس كانوا يتوقفون عن اداء هذه الفريضة بسبب ما كانوا يخشونه من الامراض او من فقد أسباب الراحة التي ألفوها

ولا ينبغي أن يظن ان تقدم المسلمين في المعارف ورقيهم في سلم المدينة في المستقبل قد ينتهيان بتناقص عدد حجاج البيت الحرام ، فقد ترقت الامم الاوربية كثيراً في المدنية ، وغلبت على قسم كبير منها الفلسفة واللادينية . ولا يزال زوار القدس من المسيحيين كل سنة عدداً كبيراً ، ولا يزال قصاد رومة كل سنة من الكاثوليك عدداً أكبر . وما يقدر العلم أن يصنع شيئا مع الدين مادام سر

الكون النهائي لايبرح مغلقا ، وما دام الانسان عاجزاً عن مكافحة الموت ، لابد للخلق من الدين ، وماثورات الالحاد إلا غمرات ثم ينجلين

فالنزعات اللادينية والنزغات الالحادية التي تعرض على المجتمع الانساني في الاحايين إن هي إلا عوارض مؤقتة لايمكن ان تكسب شكلا عاما ولا ان تقوم مقام العقائد الدينية الضرورية للبشر ، وقد سبقت لها أماثيل متعددة في تاريخ أكثر الامم ، وعصفت ريح الالحاد في بعض الحقب ، ثم لم تلبث ان هدأت واستقرت وعاد الامر كما بدا

وفي الثورة الفرنسوية الكبرى أقفلوا الكنائس ، وقتلوا القسيسين، وشردوا جميع خدمة الدين ، واغتصبوا الاوقاف وأزالوا عنها صفة الوقف ، وجعلوا العبادة للعقل ، وظن الناس ان الكنيسة الكاثوليكية في فرنسة دخلت في ذمة التاريخ وصارت أثراً بعد عين . ولكن لم تمض بضع سنوات على هذا العمل حتى ركدت تلك الزوبعة، وعادت العقيدة الدينية إلى نصابها ، ورأى نابليون ان عقلية الفرنسيس قد تراجعت إلى أصلها، ففتح الكنائس وأعاد على العبادة كرامتها، ورفع منار الدين الكاثوليكي وتتوج امبراطوراً في كنيسة نوتردام في باريز ودعا البابا إلى حضور حفلة التتويج ، فجاء البابا بنفسه، وكان يطوف بعربته في شوارع باريز والناس تخر أمامه جثيا . وهم هم الساجدون له الآن، كانوا قبل ذلك بسنوات معدودات القوم الذين اتخذوا هواهم إلههم ، وأقفلوا الكنائس، وأتوا بفتاة حسناء رعبوبة فجلوها على منصة رفيعة وخروا لها ساجدين

فأنت ترى ان زعازع الالحاد مصيرها غالبا إلى الركود ، وان الدين لن يبرح صاحب الكلمة العليا في الارض مادامت المادة لاتقدر أن تبين عن ذات نفسها ، ولا ان تحدث الانسان بتاريخها ، وما دام الانسان متشوقا إلى جواب عن هذا الوجود لايجده إلا في الايمان بالغيب

ولذلك أقول: انه مهما ترقى الناس في العلوم والفنون لا يبرحون محتاجين إلى الديانة فازعين إلى الغيب ، وانه لن تبرح أماكن العبادة وخصوصا مراكز انبعاث الانبياء والرسل منابا لاتباعهم يقصدونها من كل فج سحيق

ومكة والمدينـة وبيت المقدس ستبقى مقصداً للمؤمنين بمؤسسي الشرائع التي تأسست فيها ، ولو فرضنا انه اختلفت فيها مفاهيم السلائل البشرية الآتية عن السلائل الحاضرة .

وأقول: ان اختلاف هذه المفاهيم مهما تناهى فلا يتجاوز جوهر العقيدة الاصلي ، لان جوهر العقيدة مبني على العقل البشري ، ولانه ليس للمرء مذهب وراء العقل البشري ، فهو أول الشرائع وآخرها ، وأقدمها وأحدثها

فتأويل الشرع ـ بعيداً ما بعد عن المفهوم الحالي ـ لا بد أن يبقى مربوطا بالعقل البشري وآئلا اليه وذلك بسبب بسيط هو ان الشرع والعقل متحدان ، وان احدهما يصح ان يكون مرادفا للآخر ، وانه لا يمكن الشرائع ان تأتي بما يستحيل في العقول، إذ لو كان ذلك لهدمت نفسها بنفسها ، ولعطلت الاداة الوحيـدة التي يمكن فهمها بها .

وقد روي عن سيدنا علي رضي الله عنه وسمعت روايته من أستاذنا الشيخ محمد عبده رحمه الله ما معناه: ان الشرائع السماوية لم تأت بشيء جديد وانما جاءت اثارة لدفائن القلوب . فالعقل مضمون في صلب الشرع ، كما أن الشرع مضمون في صلب العقل . وبناء على هذا المبدأ قرر الاسلام انه هو خاتمة الشرائع ، وانه لا بد من أن يظهر على الدين كله ، كأنه يقول إن آخر ما يصل اليه الانسان من الهدى هو دليل العقل، وهذا الدليل هو الشرع بعينه، لان كل ما ناقض العقل هو مردود فيه، فلا عجب أن يكون الشرع المعقول هو الشرع الاخير (١)

---

١) هذه العبارة فيها إجمال وغموض وهي مروية بالمعنى، وموضوعها أن الاسلام دين الفطرة المبني على دلائل العقل ، والمسألة مفصلة مبينة في رسالة التوحيد للاستاذ الامام ، بما لا غموض فيه ولا ابهام .

فما دام العقل الانساني هو هـذا الذي نعرفه فالشرع قائم مؤيد ثابت في العقول سائغ في الاذهان،لايتجافى عنه إلا من حرم سلامة الحس الباطني وسلب اداة الادراك . وما دام الشرع قائما مؤيداً لا تزعزعه عواصف الاهواء ،ولا تميد به زعازع الشبهات،حتى يعود أمتن مما كان ويعتصم به الجمهور ، فمناسك الدين وشعائره لاتبرح قائمة ، وأحكام الشرع لاتبرح جارية،ومكة تبقى مكة ، وطيبة تبقى طيبة،والمسجد الاقصى يبقى المسجد الاقصى

اعتداء الحكومات الاسلامية
على أوقاف الحرمين الشريفين

من حيث قد قررنا ان الاماكن المقدسة في الحجاز لن تبرح مقصداً للمؤمنين من جميع الفجاج ، ومركزاً يجذبهم اليه بجاذبيته المعنوية من بين مطالع الشمس ومغربها، فقد تحتم على الحكومات والجماعات الاسلامية- أحمرها وأسودها- أن توجه العناية إلى اصلاح أحوال هذه البقاع المباركة واجراء المقاصد التي تتحقق بهـا المناسبة بين طهارتها المادية وقدسيتها المعنوية

وبديهي ان هذه الامكنة وإن كان جيرانها وأصحاب الحل والعقد فيها هم من العرب وحدهم من جهة انها جزء من البلاد العربية فليس عمارها وقصادها وزوارها من العرب وحدهم ، بل هم من أمم لايقل عددها عن ثلاثمائة وخمسين مليون نسمة ، فليس من العدل أن تنحصر مهمة تنظيمها وتنظيفها وتوفير وسائل الرفاهة والفراهة فيها باهاليها الاصليين الذين لايزيد عـددهم على مليون نسمة والذين لايتكون منهم إلا جزء من ثلاثمائة وخمسين جزءاً

بل هذه المهمة يجب أن تتوزع على المسلمين جميعا حتى يقوموا بها متضافرين

ولا ينقصهم شيء من شروط الكمال الصوري والمعنوي في هذا الوطن العام الذي يخصهم جميعاً من وجهة العقيدة .

ولا يقدر أحد أن يحتج على ارتفاع هذا الواجب عنهم بان الحجاج يؤدون ماعليهم للمطوفين، ويؤدون رسوما أخرى لادارة الصحة وغيرها، وان هذا جائز لاجل اصلاح أحوال الحجاز، كاف لشفاء النفس من هذه الامنية ،فان الاجور التي يؤديها الحجاج للمطوفين لاتكاد تقوم باود هؤلاء ، وان الرسوم الاخرى التي يذكرونها إن هي إلا سداد من عوز ، وان على الحكومة الحجازية من الواجبات الضرورية مالا يتيسر معه التوفر على الامور الكمالية . ولا بد لمن ضاقت ذات يده من تقديم الاهم على المهم ، وماذا يتطلب المسلمون من حكومة الحجاز ودخل هذه الحكومة لايزيد على جزء واحد من أربعين من دخل الحكومة المصرية مثلا

فالمسلمون يقدرون أن يقوموا بهذا الواجب بدون أن يضطروا إلى جمع اعانات واستدرار أكف مما لو كانوا فعلوه لكان بهم قميناً، وذلك بان يسلموا مافي ديارهم من مال الحرمين للحرمين . فكل أحد يعلم انه لايكاد يوجد بلدة من بلاد المسلمين كبيرة او صغيرة إلا وفيها أوقاف للحرمين الشريفين

ولا نبالغ اذا قلنا إنه لو اجتمع ريع العقارات الموقوفة على الحرمين الشريفين بعد رد جميع هذه العقارات إلى أصلها واستغلالها على حقها لكانت تضاهي دخل مملكة عصرية من الدرجة الثالثة، وكانت تكفي لازاحة جميع علل الحجاز واصارته من الجهة العمرانية إلى درجة لايقل فيها عن أي قطر من الاقطار المجهزة بجميع أسباب المدنية

فبدلا من أن يوفر المسلمون هذه الحقوق لاهلها ، وأن يجنوا حاصلات هذه الاوقاف الدارة ويقدموها إلى محلها بحسب شروط واقفيها ومرصديها ، لانجدهم

عنوا في شيء من الاشياء عنايتهم في محو هذه الحبوس التي منذ ثلاثة عشر قرنا يجود بها الآباء ويخيس بها الابناء ، إن «شرط الواقف كنص الشارع» هي جملة كادت تذهب من اذهان المسلمين قاطبة إلا من رحم ربك

فبعض هذه الاوقاف درست تماما بأيدي النظار الخائنين، وباغضاء القضاة المواطئين على مشهد من العلماء المدلسين . وبعضها تحول عن أصله وأجري في غير مصالح الحرمين وخولف به شرط الواقف بدون عذر ولا مسوغ شرعي، وجميع هؤلاء ساكتون وبعضها بقي باسم الحرمين الشريفين ولكنه يرفع منه إلى الحرمين من الجمل أذنه- كما يقال

ويا ليت شعري من يفعل هذا أو من يقر على هذا فلا أدري كيف يصلي ! وكيف يصوم ! وكيف يحج ! وكيف يظن انه قام بفرائض الاسلام؟ ولا أقول: كيف يزكي ؟ فقد قل اليوم من يفكر بفرض الزكاة ؟ فالزكاة وتأدية حقوق الاوقاف هما من الامور التي كادت ألا توجد إلا في الكتب الفقهية يتعلمها الناس من قبيل العلم بالشيء لا من أجل العمل بهذا العلم .

واذا جرى شيء من العمل بشروط الحابسين فلا يكون إلا في نفس البلاد التي فيها الحبوس، وهذا من خوف النظار والقضاة أن تنتقض عليهم العامة ويسقطوهم ، فأما اذا أمنوا خوف ثورة العامة فالوقف إلى الدثور، أسرع من الماء إلى الحدور . وعلى كل حال شرط الواقف كاد يفقد كل حرمة

وأغرب من هذا أنه لم يكف تلاعب النظار بالاوقاف - ولا سيما باوقاف الحرمين- واغضاء القضاة والعلماء على هذه العظيمة حتى جعلت الحكومات الاسلامية هي بانفسها تستبد باوقاف الحرمين ، وتمنع إيصال ريعها إلى الحرمين غير مراقبة شرط واقف ، ولا نصَّ شارع ، ولا رضى خالق ، ولا لسان مخلوق

هذه هى الحكومات الاسلامية التي هي أجيرات المسلمين في مهامهم العامة

وليس في أيديها شيء إلا من فضلهم، وليست هي بأجمعها شيئاً لولاهم، وانما كان وجودها لاجل صيانة مصالحهم الدينية والدنيوية معاً، لامصالحهم الدنيوية فحسب

فهذه الحكومات بلعت جانباً من هـذه الاوقاف ومحت رسومه وجعلت شروط واقفيه كامس الدابر وأكلت ريع الجانب الآخر وحولته إلى مهالك معلومة ليس لها تعلق بالحرمين الشريفين ولم تبال ماعملت، وكانت اذا رفعت إلى الحرمين صرة دراهم، أو شحنت سفينة حبوب ظنت انهـا تتصدق على أهـل الحجاز من مال أبيها!

وقد فشت هذه العادة الذميمة في الحكومات الاسلامية بفشو الاستخفاف بالدين، وبحمل الواجبات الدينية على المبادىء القومية، والحال أن الدين لاعلاقة له بالقومية وكل منهما له حدود وغير موقوفة على حدود الآخر. ونحن نجد أن الفاتيكان مرجع ديني لاربعمائة مليون كاثوليكي، وهم من أجناس لايحصى عديدها، ونجد ان خزانة البابا كخزانة دولة من الدول، ولم يمنع كاثوليك الدنيا أن يرفعوا اليه اعاناتهم وصدقاتهم - كونه طليانيا وكون الفاتيكان في ايطالية

طمس الدول المستعمرة أوقاف المسلمين

إقتداء بحكوماتهم في الاعتداء عليها

ولما غلبت الدول المستعمرة على القسم الاكبر من العالم الاسلامي، ووجدت من صنيع الحكومات الاسلامية التي ورثتها ماوجدته في الاوقاف عموما وأوقاف الحرمين خصوصا حمدت غب هذه المفسدة، واتخذت منها حجة تستظهر بها في طمس الاوقاف الاسلامية واخفاء معالمها فانها تقول المسلمين: اني لم أفعل شيئاً الا ما كانت حكوماتكم تفعله ... وأجدر بما كان يفعله المسلم بوقفه أن يفعله المسيحي وهو لا يعتقد من حرمة مس هذا الوقف ما يعتقده المسلم

اذاً فالتلاعب بالاوقاف والحبوس كان مبدؤه من المسلمين أنفسهم، فلما غلب على بلادهم الافرنج قلدوهم فيه ولم يكن فرق بين الفريقين الا في ان المسلمين كانوا يتملكون الاوقاف بمرور الزمن أو يحولونها عما حبست عليه أو يبقونها على اسم الحرمين أو اسماء الجهات الخيرية الاخرى ويأكلون أكثر ارتفاقاتها ، وان الافرنج عند ماغلبوا على بلاد الاسلام استولوا على كثير من هذه الاوقاف ووهبوها إلى الكنائس ، وإلى جمعيات المبشرين ، وإلى الرهبان ، ورأوا بذلك الجمع بين غرضين مهمين :

أما الغرض الاول فهو طمس هذه الاوقاف من أصلها ، لان الافرنج لا يكرهون في الدنيا شيئاً كرههم للاوقاف الاسلامية ،ولا يخافون في مستعمراتهم من شيء كمخافتهم منها، لانهم يعتقدون ان المسلمين إذا أحسنوا إدارتها وضبط حاصلاتها كان لهم منها منبع امداد عظيم في امورهم السياسية ، فلذلك تراهم يسعون بقدر طاقتهم في محو رسومها

وأما الغرض الثاني فهو إمداد المبشرين والرهبان وتوطيد أقدامهم في بلاد الاسلام ليتمكنوا من بث دعايتهم بين المسلمين مما لم يبق خافياً على أحد ومما لم يبق أدنى سبيل للمكابرة فيه . فبدلا من أن هذه الحكومات المستعمرة تشتري لهؤلاء المبشرين والدعاة عقارات وأراضي من مالها تجد الا قصد والاوفق أن تصرفهم في أوقاف المسلمين،فتكون أغنتهم من كيس غيرها، وتكون جمعت بين دفع ماتعتقده ضرراً وجر ماتعتقده منفعة

والمجلية في هذه الحلبة والحق يقال من بين جميع الحكومات المستعمرة هي الحكومة الافرنسية ، فلم نعهد حكومة استطابت طعم أوقاف المسلمين مثلها ، ولا استحلت طعمتها الرهبان والمبشرين بدرجة استحلالها ، ولقد تمكنت منها عادة التسلط على أوقاف المسلمين في المغرب إلى حد انها حاولت مثل ذلك في المشرق

فهي تأبى الا أن تسيطر على أوقاف المسلمين في سورية برغم ان النصارى واليهود فيها متصرفون في أوقافهم بتمام حريتهم

وقد راجعنا في هذا الامر جمعية الامم وأوضحنا لها كيف أن الدولة « المنتدبة » في سورية تترك النصارى واليهود أحراراً في أوقافهم وتتعرض لأوقاف المسلمين خاصة ؟ وكيف إنها وهبت الرهبان وقفاعظيما من أوقاف المسلمين في اللاذقية وغير ذلك ووجدنا لجنة الانتدابات الدائمة تؤيد رأينا في هذه المسألة وتقترح على فرنسة ترك مسلمي سورية أحراراً في أوقافهم كما هم مسلمو فلسطين التي هي تحت انتداب انكلترة، ولكن الحكومة الافرنسية لا تبرح تماطل وتتعلل في هذا الامر برغم ميل لجنة الانتدابات الى انصاف المسلمين فيه

واذا رجعنا الى أصل البلية وجدناها من المسلمين أنفسهم ، لان حكوماتهم لما كانت مستقلة ولان حكوماتهم المستقلة الباقية الى اليوم ـ تصرفت بالاوقاف تصرفا سيئا مخالفا للشريعة ، منافيا للامانة ، فمهدت للدول المستعمرة العذر في طمسها لهذه الاوقاف أصلا وفي هبتها منها الرهبان وسيطرتها التامة على ما أرادت ابقاءه منها للانفاق من ريعه على المساجد

ولا يزال حتى اليوم في بلاد الاسلام أوقاف لا تحصى محبوسة على الحرمين الشريفين كان يجب على حكومات هذه البلدان من اسلامية أو أجنبية أن تحسن ادارتها ولا تحتجن شيئا من حاصلاتها لانفاقها في حاجات أخر بل ترفعها كلها الى الحرمين بحسب شروط الواقفين

واذا قدّرنا انها لا تثق بحكومة الحجاز أو بأعيان أهالي الحجاز في قضية توزيع هذه الصدقات أو انفاق هذه الاموال في وجوه الخير فليس عليها أكثر من الإشراف أو الاشتراك مع حكومة الحجاز في التوزيع أو الانفاق على المشروعات الخيرية التي باحيائها يعمر الحجاز

ولعمري ان الاولى بهذه الحاصلات الواردة من الآفاق الى الحجاز اذا وردت أن ينفق جلها - ان لم ينفق كلها - على تأسيس ملاجيء للفقراء وللايتام حتى لا يبقوا عالة على الناس ووقراً على الحكومة وفي بناء مستشفيات ومصاح للمرضى والضعفاء الذين يكثر عددهم في الحجاز بكثرة الغرباء ولو كان هواء الحجاز بحد ذاته نقيا — وكذلك في تشييد مدارس صناعية ومشاغل يحشد اليها العاطلون من العمل والعائشون من التسول ، وعلى مشروعات أخرى خيرية عامة لا ينحرف فيها البر عن أصله ، ولا يخرج الوقف عما ربط عليه، مع التباعد فيه عما يغري الاهالي بالكسل ويعودهم البطالة ويوجد عندهم عقيدة معناها ان أهل الحجاز أو أهل الحرمين الشريفين لا يجب عليهم الكسب من عرق جبينهم ولا الاشتغال بصناعة أو تجارة أو زراعة، وانما وجدوا ليعيشوا من مجرد الصدقات والمبرات وهدايا العالم الاسلامي ، مما لا يليق بهم ولا ينفعهم ولا يكفيهم مهما كثر لان الانسان الذي لا يعيش من كسب يده يجد نفسه دائما في ضيق. وقد شاهدنا ذوي الثروة والحاصلين على الكفاية من أهل مكة والمدينة انما هم من أصحاب الاشغال والمتاجر ، لا من أصحاب الرواتب والمعاشات التي لا يبرح عائلا من اعتمد عليها

مرضي في مكة المكرمة وأسبابه

وتأثيره في أثناء أداء فريضة الحج

إذا كان الاجر على قدر المشقة فقد كتب الله لهذا العبد أجراً عظيما. فانه لم تمض على مقامي بقرب المقام أكثر من تسعة أيام حتى انحلت قواي والتاث مزاجي وأصبحت مريضا تتصاعد بي الحمى إلى أن بلغت درجة الاربعين. وذلك اني من أبناء جبل لبنان ولم تألف أجسامنا الحر الشديد الذي ألفته أجسام اخواننا أهالي جزيرة العرب لاسيما سكان التهائم منهم. وكنت من أصل فطرتي أكره الحر وأفر منه، ولم أكن أيام القيظ أفارق الصرود وهذا كان سبب اصطيافي في عين صوفر مدة تزيد على عشرين سنة، وقد نشأ عن شدة رغبتي في ذلك المكان اني اقتنيت فيه الكروم والعقارات وتأثلت مايقارب ثلثمائة الف ذراع مربع من الارض، ولم تكن درجة الحرارة في صوفر تزداد بميزان سنتيغراد على ٢٣ إلا نادراً، وكذلك كنت أقيم أحيانا بعالية وحرارتها لاتعلو فوق ٢٦ أو ٢٧ إلا نادراً، ومنذ اثنتى عشرة سنة أنا في اوربة وليست هذه القارة بالتي يشكو فيها الانسان شدة الحر، وما أذكر اني لقيت في اوربة شيئاً يستحق اسم الحر إلا في رومة إذ صادف وجودي فيها إحدى المرار في شهر يوليو. ومن المعلوم اني أقمت سنوات بألمانية وهي لا تعرف الحر إلا عابر سبيل، واني منذ سنوات في سويسرة وهي لاتدري شيئاً من حمارة القيظ. وعدا ذلك تراني في سويسرة نفسها أقضي الصيف من قنة جبل إلى قنة جبل. فتارة في القنة المسماة «روشه دونيه» فوق «مونترو» وهي تعلو عن سطح البحر الفين وخمسين متراً، وطوراً في «شتانسر هورن» فوق بحيرة «لوسرن» وهي قنة بيضية الشكل تعلو عن سطح

البحر ١٩٥٠ متراً ، وأحيانا في القمم الشامخة التي تقابلها مثل « بيلاتوس » المشرفة على لوسرن اشراف المنارة على الجامع ، ومثل « ريغي » التي يطل منها الرائي على ثماني بحيرات في لمحة واحدة من شفير شاهق ، ومن شدة غرامي بهذه القنن التي قد كنت أصادف فيها الثلج أحياناً في شهر أغسطس أنذ كرأني تركت قنة « غورتن كولم » في برن وذهبت فانتجعت قنة « شتانسر هورن » في لوسرن لانها أعلى من الاولى ، وأقمت هناك شهراً إلى أن جاءني كتاب من سعادة الاخ الشهم الهمام عبدالحميد بك سعيد - رئيس جمعية الشبان المسلمين الآن في مصر - امتع الله الاسلام بطول حياته ، وكان يسكن في « غورتن كولم » في الفندق الذى أنا فيه فكان يؤنبني في هذا الكتاب على تلك العزلة برأس جبل « شتانسر هورن » ويقول : لايحل لك هذا

والخلاصة ان برودة جو سويسرة كلها لم تكن تقنعني وكنت أنتجع منها الشناخيب التي أستيقظ فيها صباحا فأرى الارض التي حولنا بيضاء من الثلج وذلك في ابان فصل القيظ . وقبل ذلك لما كنت في جبلنا لبنان لم تكن عين صوفر (وهي في ارتفاع ١٣٥٠ متراً) تقنعني وتكفيني فطالما قصدت ابهل الباروك (١) وتوأمات نيحا وهي تعلو ١٨٠٠ متر (٢) وغير ذلك . فكيف بي الآن وقد صرت في اقليم حرارته تقابل من ٤٠ درجة بميزان سنتيغراد إلى ٥٠ وذلك لاول مرة في حياتي . لاجرم اني لم أحمل هذا الفرق الشاسع ورأيت نفسي هبطت هبطة واحدة كما يقع الزق عن الظهر لامتدرجا ولا متدحرجا

وكان قد سبق اني لما مررت بمدينة السويس منتظراً باخرة البوسطة المصرية

---

١) الابهل بفتح فسكون شجر الارز وفي جنوبي لبنان يقولون ابهل، وفي شماليه يقولون ارز وكلاهما صحيح - وهو على ارتفاع الفي متراه من الاصل

٢) سميت توأمات لانها عبارة عن قنتين متنا وحتين متجاورتين اه من الاصل

الركوب بها إلى جدة لم يشاؤا أن يمهلوني يومين ريثما يأتي ميعاد سفر الباخرة بل صدر الامر بتسفيري على باخرة هندية سيئة الحال مسلوبة جميع أسباب الراحة في المنام والغذاء والجلوس وكل شيء وناهيك انه كان فيها نحو ١٥٠٠ حاج وانها كانت من البواخر الصغيرة . فبعد هذا لاينبغي لي أن أطيل الشرح وأن أقول كيف مرضت وانما أقول اني وطئت أرض جدة ملتاثا .

ثم اني لما وصلت إلى مكة نزلت في منزل سعادة ولدنا فؤاد بك حمزة وكيل الشؤون الخارجية فهيألي سريراً على السطح كما هي عادة أهل البلد الحرام في أيام الصيف . ولكن هذا السطح لم يكن مفتوحا من جوانبه الاربعة كما هي بعض السطوح لان الباني الاصلي لذلك البيت (١) كان قد حوطه بجدران عالية فوق قامة الانسان غيرة على الحرم أن ينظر أحد لهن شبحاً ولو من بعيد ، فأصبح السطح مسدوداً من كل جهاته إلا من الاعلى فلم يكن الانسان ينظر منه إلا القبة الزرقاء ، ومن عادة الناس أن يفتحوا في الحيطان نوافذ لاجل الهواء او للنظر عند اللزوم فأما هذا السطح فلم تكن فى جدرانه العالية الا قمريتان أو ثلاث مشبكات بحجارة مستديرة بينها ثقوب ضيقة لاتكاد المسلة تدخل في الواحد منها ، فكانت في حكم كان لم يكن من جهة نفوذ الهواء هذا على فرض وجوده (٢)

ولما جئت لاضطجع في السرير الوثير قيل لي انه لابد من الدخول تحت الكلة بلباقة عظيمة حتى لا يتسنى للبعوض أن يدخل ورائي فان البعوض هناك يجب الوقاية منه ، فكنت أدخل تحت الكلة وأنا أسترق السمع حتى إذا سمعت

«١» ليس هذا من عمل باني ذلك البيت وحده بل عامة البيوت هنالك مثله يترك فيها حجرة بغير سقف ولا نوافذ لاجل السهر والنوم فيها مع عدم كشف الجيران ونظرهم

«٢» كذا في الاصل المطبوع في جريدة الشورى وهو كما ترى ولعله قد سقط منه شيء وذهل الامير عنه عند قراءته

طنين بعوضة اجتهدت في محوها او طردها وكنت طول الليل كأني تحت الحصار أحاذر أن تقع مني حركة يرتفع بها شيء من سجوف الكلة فيهجم من خلال ذلك البعوض وتسوء العاقبة . على ان قولى « طول الليل » صورة من صور التعبير فانى ماقدرت ولا ليلة أن أبقى تحت ذلك الحصار أكثر من ساعة لان السرير كان مسدوداً بالسجوف السابغة والسطح كان مسدوداً بالجدران الاسكندرية العالية ، فلم يبق من سطحيته إلا الاسم والحر كان شديداً ، وبالاختصار كدت أختنق ، وصبرت إلى أن غرق مضيفي الشاب في لجة الكرى ونزلت إلى سطح آخر مفتوح من كل الجوانب يرقد عليه الخدم بدون أغطية ولا سجوف مسدولة ولا خشية بعوض ولا اتقاء جراثيم ، وقلت في نفسي ليفعل البعوض ما شاء فاني تحت تلك الكلة لا أستطيع الغمض ولا دقيقة والنوم سلطان لا يغالب فلا بد من طاعته ورحم الله القائل :

إذا لم يكن إلا الاسنة مركبا فلا يسع المضطر إلا ركوبها

فوجدت على ذلك السطح خشبة عارية عن الفرش اضطجعت عليها وكنت أمشي على رءوس أصابعي حتى لا يستيقظ أحد لا فؤاد حمزة ولا خدمه فاني لا أحب أن أزعج أحداً ولا ان أسلب راحة الناس لاجل راحة نفسي . على اني لو أيقظتهم وأزعجتهم وسلبت راحتهم فلا أعلم ماذا كانوا يقدرون أن يصنعوا لي وجميع تلك العلل التي وقفت في طريق رقادي لم يكن مصدرها اعواز أسباب الرفاهة وانما كان مصدرها الجو .. وما حيلتي وما حيلتهم هم في الفلك ؟

فارتميت على تلك الخشبة بدون وطاء سواها ولا غطاء سوى القميص . وهكذا أمكنني قبيل الفجر ان اهوم تهويماً أشبه باليقظة منه بالمنام . ولكن لم يصبح الصباح حتى قامت القيامة اذ استيقظ الجميع فرأوني على تلك الحالة فأخذوا يدوكون في الطريقة التي تلزم لاجل تمكيني من الرقاد ، وبهذه المذاكرات أطاروا ما كان بدأ من تهويمي ، ولاجل توفير راحتي سلبوا تلك البقية الباقية من

راحتي . وفي هذه الاثناء طلعت الشمس ليس من دونها حجاب لاني كنت على السطح كما قلنا ، وانا لم أكن أقدر أن أنام في الظل ولا في العتمة فما ظنك في الشمس فنهضت برغم أنفي وانا اقول : يامن يأتيني بخبر عن الكرى

وأخذ فؤاد بك يفكر في الاستعدادات لمعركة الليلة الآتية ، وصاروا ينظرون في وجوه الوسائل وفنون الذرائع حتى أتمكن من الرقاد ثاني ليلة ، ولكن لم يكن في الحقيقة من وسيلة تنفع ، ولا من ذريعة تنجع ، لان العلة هي شدة الحر وعدم اعتيادي مثل هذا الجو ، وقد يقال إن فؤاد بك حمزة هو لبناني مثلي وبلدته مصيف شهير وهي عبية ، ولم يتعود جسمه الحرارة ، ولكن بيني وبين فؤاد بك حمزة فرق ثلاثين سنة . فقوة المقاومة التي عنده ليست عندي ، ولذلك لم يتمكنوا في الليلة التالية برغم جميع الوسائل من أن يجعلوني أنام ، وخسر فؤاد بك المعركة والحقيقه ان الدائرة انما كانت تدور علي وحدي لاني أنا الذي لم يكن ينام

ولما وصل الخبر عما أعانيه إلى جلالة الملك ، بمكان ذلك الاسد من الجمع بين الاضداد من الصلابة والشمم والحنو والتواضع ، أشار بان انتقل إلى محلة الشهداء بظاهر مكة رعياً لخفة حرارتها عن حرارة مكة ، فان لجلالته هناك مقصفاً بديعاً أنيقا في وسطه صهريج ماء عظيم ، وأمامه بستان حديث الغراس ، فسيح الرقعة سيكون يوما من الجنان المشهورة ، فكان يدري أيده الله ان بين الشهداء والبلدة فرقا كبيراً في الجو ، واني لو بت في ذلك المقصف الذي لجلالته لما كنت أحرم طيب الرقاد . إلا أن مضيفي فؤاد بك لم يكن يرغب في ان أتحول إلى الشهداء خشية أن ينقصني شيء من أسباب الراحة التي لا يأمن على استكمالها إلا اذا كان هو قريباً ، والحال أن الشهداء هي ربض من أرباض مكة ومن هذه اليها مسافة وأنا لم أكن أريد أن آتي مالا يروق فؤاد بك ، وكنت أقول في نفسي : هن ليال قلائل أقضي مناسك الحج ثم أصعد الى الطائف . فعلى فرض اني لم أنم هذه المديدة ، فلن تنفد بها قوة مقاومتي للطبيعة . ولذلك عصيت أمر الملك في هذه وندمت ولا ندامة العصاة الذين شاقوه في السنة الماضية

الكلام على الزاهر

الشهداء هو المكان الذي يقال له في التواريخ « الزاهر » وهو اسم طابق مسماه : بسيط افيح تلعب فيه الرياح بدون معارض إلا من بعض آكام على جوانبه تزيده بهجة ، وأهاضيب وتلعات اذا أقبل الربيع تكللت بالازاهر ، فسمي من أجلها الزاهر . وهو في ابان القيظ أخف حرارة من البلدة لاسيما بعد غروب الشمس، وأنقى هواء وأنشط صقعا . وفيه مياه تجري في قنى تحت الارض من قديم الدهر ، وبقايا قصور لاشراف البلد وسراته، وفيه مقاه على الطريق للسابلين، ومقاه على نجوة من الطريق ينتابها الناس من مكة عند الغرب فيبيتون فيها ويغدون عند الصباح إلى أشغالهم بمكة ، ويكون مبيتهم على مقاعد مستطيلة في الخلاء فلا يضع الواحد منهم رأسه على مخدته إلا ثقلت أجفانه من لطف الهواء فينام إلى الفجر مستريحاً ويقوم إلى صلاة الصبح أشد من الحديد . وفي الزاهر مكان صغير لصديقنا الشيخ الشيبي الكبير سادن البيت المعظم الذي بسلامةذوقه له في كل واد من الحجاز منتجع، وفي كل جبل مصيف أو مرتبع

ولما ودعت الحجاز بعد ايابي من الطائف تلطف الشهم الكريم الشيخ عبدالله سليمان ناظر المالية فأدب لي في الزاهر مأدبة ودعا الجم الغفير من كل ما في البلد الامين من سيادة تجرر أذيالها ، ومجادة تضرب بعروضها أطوالها ،وبلاغة تضرب أمثالها، وفصاحة اذا نطقت يقال من ذا قالها ، فكانت ليلة ندر أن يعرف الناس مثالها، وقال فيها أحد الاخوان انها ليلة من قبيل قصص ألف ليلة وليلة لكثرة ما كان فيها من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، ومصابيح منورة ، وأعلام منشرة ، ومقاعد مجللة ، وجفان من الشيزى مكللة . وناهيك بالعربي القح ، الذي

لايعرف إلا من القاموس معنى الشح ، وبمن جمع بين الحجاز ونجـد ، اذا ما ارتفعت راية المجد

ومن بعد ذلك بقيت في أواخر مقامي بمكة أتردد إلى الزاهر عصر النهار وأتندم على فوتي إياه قبل الحج . وكان ينشرح صدري في كل مرة أفيض فيها من وراء تلك الآكام إلى بسيط الزاهر

واذا وصلت إلى المقصف الملوكي جلست طويلا على حرف ذلك الصهريج الذي يخر مزرابه، ويكاد يتلاطم عبابه ، وقد يشتد الحر فلا نأنف من النزول إلى الصهريج والخوض فيه لاجل التبرد ،ويكون معنا من الاخوان في هذا النزول من جل قدره وعلت منزلته . وقد أمسكنا باديء ذي بدء عن النزول إلى الماء تفاديا من أن ينسب الينا اطراح الحشمة، وتغلب الحرارة على الهمة، إلا اني تذكرت أن قاضي الجماعة بقرطبة المنذر بن سعيد البلوطي بمكانه من العلم والورع وجلالة القدر ، ومشيخة الاسلام في ذلك القطر ، قد اشتد به الحر في أحد الايام إلى حد ان أمره الخليفة الحكم المستنصر بن الخليفة عبـد الرحمن الناصر أن ينزل إلى صهريج كانا جالسين بجانبه في زهراء قرطبة — التي زرت اطلالها هذه المرة(١) فنزل مولانا الاستاذ ولم يبال ، والحشمة والحرارة قلما يجتمعان على الشروط المرعية في البلاد الباردة

فلما كنت بقرطبة في شهر يوليو الفائت ولقيت فيها مالقيته من شدة الحر عذرت قاضي الجماعة في خوضه صهريج الزهراء ، ولكن حر مكة المكرمة يزيد بعشر درجات على حر قرطبة ، فخوض صهريج الزاهر أقرب إلى العـذر من خوض صهريج الزهراء ، وأنا أبعد عن المشيخة من القاضي منذر بن سعيد

«١» كانت كتابتي لهذه السطور بعد سياحتي الى الاندلس اه من الاصل

الصعود إلى عرفة في شدة المرض

ثم نعود إلى قضية التياثنا فنقول : اننا بعد قضاء بضع ليال على هذا المنوال بلغ منا النهك مبلغه ، ثم كان لا بد من أن نصعد إلى عرفة قبل الوقفة ، فأغمي علينا في الطريق وسار بنا اللذان كان معنا في العربة فؤاد بك حمزة والسيد حسين العويني إلى منى ، فاسترحنا هناك إلى الصباح ، ولكنه لم يكن بد من الذهاب تلك الساعة الى عرفات فذهبنا اليها وأنا على ماأنا عليه من الاعياء ، ثم أفضنا مع الحجاج الكرام عائدين الى منى حيث بتنا ليلتين لقضاء المناسك ، فما رجعت إلى مكة وقضيت المناسك إلا وكنت مريضاً جد مريض . ولم يثقل علي ذلك لان الحج الشريف تطهير وتمحيص ، فرجوت ان يكون المولى سبحانه قد غفر لي ذنوبي الكثيرة التي يستحق تمحيصها أكثر من هذه الاوصاب . والله غفور رحيم (ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله)

الالتجاء إلى الطائف

ولما اشتد بي الضعف قلت لاخواني : لاينقذني مما أنا فيه إلا الطائف ، فأنا أدرى بنفسي ، ومتى نشقت هواء الجبال لم يبق علي خوف ، فتردد فؤاد بك قليلا خشية ان لايكون قريباً مني وأنا على هذه الحال ، فقلت له : إن كنت تحبني فدعني أصعد إلى الطائف بدون تأخير .

وقد كان هذا رأي سليمان شفيق باشا ناظر الحربية في تركيا سابقا المقيم الآن بخدمة الملك ابن سعود ، فانه نهى عن ان أتريث ساعة واحدة ولو لاجل اعطاء التواصي اللازمة لامير الطائف بترفيه مقامي وتوثير مسكني . ولما جيء بالسيارات لاصعد بها إلى الطائف شعرت من الفرح بنشاط غريب ممن هو على تلك الحالة ، ونهضت مسرعا أستقبل الحياة من بعد ان كنت على ثنية الهلاك . فسرنا إلى محطة اسمها « الشرائع » على مسافة ساعتين بالسيارة من مكة ، ومن هناك رجع إلى

مكة الاخوان السراة الافاضل الذين تلطفوا بوداعنا: الدكتور محمود بك حمدي مدير الصحية وفؤاد بك حمزة وكيل الخارجية، والسيد عبد الوهاب نائب الحرم عضو مجلس الشورى، وبقي معي الاخ البطل المجاهد الشهير فوزي بك القاوقجي، والاخ الفاضل الدكتور خيري القباني الذي صدرت الارادة الملوكية بان يلازمني إلى ان أنال الشفاء ونعم الاخ هو ونعم الطبيب الفاضل.

وليس فيه من عيب سوى قلة الثرثرة والجمجمة وعدم إيهام العلم الاوسع والشفاء الاسرع، فاذا استطب العليل لديه ورأى صمته وقلقلة شفتيه قال: يظهر ان المسئلة مقضية وزاده الخوف مرضاً، وقد فات الاخ القباني ان الجمجمة هي نصف الطب، وان المريض كلما سمع ألفاظا لا يفهمها وكلمات فنية لم يسمعها ازدادت ثقته بالطبيب، وقد يحصل على الشفاء بدون دواء. لاسيما اذا كان الطبيب يعرف أن يرصف تلك الالفاظ ويسير بها بسرعة كلية، فلا يبقى شبهة عند عليله بانه أحذق الاطباء

ثم اننا بعد ان رقدنا هزيعاً من الليل قلنا للسائق تقدم بنا نحو «الزيمة» فسرنا اليها ولم يمض نصف ساعة حتى بلغناها. واذا بالزيمة عين ماء ثرة لها خرير يسمع من بعيد، فلما سمعت خرير الماء أخذ مني الطرب أن نفضت الضعف عني ونزلت من السيارة وذهبت إلى العين أتمتع برؤية الماء بعد ان سمعت صوته المطرب. ثم جاءنا شيخ قرية الزيمة يدعونا إلى فك الريق — لقمة الصباح — في بيته فذهب الاخوان ولم أستطع المشي لما كان النهك قد بلغ مني، فجاءوا إليّ بالشاي إلى السيارة. ولم أنشط الى الطعام كما نشطت الى منظر الماء

ومن ثمة صعدنا بالسيارة في واد فيه كثير من شجر الطلح وسرنا ساعة من الزمن فبلغنا أعلى الوادي وهو المسمى بالسيل وعنده مقهى بسيط جداً يقوم عليه بدوي من عتيبه، إلا انه ذو قيمة في تلك البرية. والوادي هناك قريب الماء لا يحفر

فيه الانسان ثلاثة أشبار الا أنبط . ولذلك تجد فيه عدة مناقع عذبة

وهذا هو المحل الذي كان في الجاهلية يسمى بذات عرق وفيه يقول الشاعر

ألا يانخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

وأحسست في ذات عرق بنشاط سريع ، ومنها الى الطائف مسافة ساعتين يمر فيها الانسان على المكان الذي كانت فيه سوق عكاظ بالجاهلية ، وكنت كلما تقدمت صوب الطائف أشعر كأني آكل العافية أكلا . فلم يخطيء ظني اني لما كنت من أبناء الجبال لم يكن يشفيني إلا هواء الجبال . ولم تزل أهوية الصرود ترمم ماهدمته أهوية الجروم

الكلام على ذات عرق

جاء في تاج العروس عن ذات عرق ما يأتي :

« وذات عرق موضع بالبادية كان يقال له قبل الاسلام عرق، وهو ميقات العراقيين، وهو الحد بين نجد وتهامة، ومنه الحديث «انه وقت لاهل العراق ذات عرق» وهو منزل من منازل الحاج يحرم اهل العراق بالحج منه، سمي به لان فيه عرقا وهو الجبل الصغير ، وعلم النبي صلى الله عليه وسلم انهم يسلمون ويحجون فبين ميقاتهم » انتهى

وجاء في معجم البلدان :

« وذات عرق مهل (بتشديد اللام) أهل العراق وهو الحد بين نجد وتهامة وقيل عرق جبل بطريق مكة ومنه ذات عرق . وقال الاصمعي ما ارتفع من بطن الرمة فهو نجد إلى ثنايا ذات عرق، وعرق هو الجبل المشرف على ذات عرق »

إلى أن يقول :

« وقال ابن عينية : اني سألت اهل ذات عرق أمتهمون أنتم أم منجدون ؟

فقالوا مانحن بمتهمين ولا منجدين . وقال ابن شبيب : ذات عرق من الغور والغور من ذات عرق إلى أوطاس، وأوطاس على نفس الطريق، ونجد من أوطاس إلى القريتين . وقل قوم أول تهامة من قبل نجد مدارج ذات عرق »

وبالفعل تجد نفسك إذا بلغت ذات عرق وأنت ذاهب من مكة إلى الطائف قد ارتفعت ونشقت هواء نجد . ثم ان الطريق من « السيل » الذي هو من ذات عرق كله صعود إلى المكان الذي يقال له اليوم « القهاوي » والذي يقولون انه كانت عنده سوق عكاظ حسبما سمعت من أهل مكة ومن أعرقهم وأعتقهم الشيخ عبد القادر الشيبي كبير بني شيبة وسادن البيت الحرام ، ومن ذات عرق إلى الطائف بالسيارة مسيرة ساعتين ، وبعد أن تفوت ذات عرق بنحو نصف ساعة بالسيارة تجد على يسارك مفرقا للطريق المؤدية إلى بلاد العارض من نجد ، ومن هذه الطريق يسير الملك عبدالعزيز بن سعود عند مايقصد الرياض وعليها تدرج سياراته التي تبلغ أحيانا مائة وسبعين سيارة فتصل إلى الرياض من مكة في أربعة أيام ، وهي على الجمل مسافة عشرين يوما ، ولو كانت الطريق معبدة كما يجب من مكة إلى ذات عرق ومن ذات عرق إلى الرياض لكان من الممكن الوصول في أقل من يومين . إلا ان تمهيد طريق كهذه على مقتضى أصول هندسة الطرق ينبغي له أموال لاتطيقها حكومة الحجاز ونجد في الزمن الحاضر ، وهي التي لا يساعد واردها على مثل هذه الانشاءات كلها، فان الداخل قليل، والحمل ثقيل ، والآمال متوجهة إلى تمهيد هذه الطرق تدريجاً . واما الآن فان درجة اصلاح هذه الطرق هي الدرجة التي يقال لها « على قدر الامكان » وتعبرها السيارات بدواليبها والخيل بحوافرها والاباعر باخفافها وهلم جرا

الكلام على سوق عكاظ

وأما سوق عكاظ التي لم يسمع أحد بشيء اسمه اللغة العربية إلا سمع بها فليس لها من أثر سوى الخبر وهو انها في هاتيك المظنة . وأصل لفظة «عكاظ» هو من فعل « عكظ الشيء يعكظه » أي عركه . وقال ابن دريد : عكظه قهره ورد عليه فخره ، وبه - كغراب - سوق بصحراء . بين نخلة والطائف ، يريد ان عكاظ على وزن غراب. وقال الاصمعي: عكاظ نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال وبه كانت تقام سوق العرب . وقال الزمخشري: عكاظ ماء بين نخلة والطائف إلى بلد يقال له الفتق كانت موسما من مواسم الجاهلية تقوم هلال ذي القعدة وتستمر عشرين يوما . قال ابن دريد : وكانت تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون أي يتفاخرون ويتناشدون . قال في تاج العروس : زاد الزمخشري كانت فيها وقائع وحروب ، وفي الصحاح فيقيمون شهراً يتبايعون ويتفاخرون ويتناشدون شعراً ، فلما جاء الاسلام هدم ذلك

وأنشد الجوهري لابي ذؤيب

إذا بني القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الالوف

وقال أمية بن خلف الخزاعي يهجو حسان بن ثابت الانصاري

الا من مبلغ حسان عني مغلغلة تدب إلى عكاظ
أليس ابوك فينا كان قينا لدى القينات فسلاً في الحفاظ
يمانيا يظل يشد كيراً وينفخ دائماً لهب الشواظ

فأجابه حسان رضي الله عنه ، ولو لم يكن بالذي إذا سوجل لايملأ الدلو إلى عقد الكرب - :

أتاني عن أمية زور قول وما هو في المغيب بذي حفاظ

سأنشر ان بقيت لكم كلاما ينشر في المجنة مع عكاظ
قواف كالسلاح إذا استمرت من الصم المعجرفة الغلاظ
تزورك ان شتوت بكل أرض وترضخ في محلك بالمقاظ
بنيت عليك ابياتا صلابا كامر الوسق قعّض بالشظاظ
مجللة تعممه شناراً مضرمة تأجج كالشواظ
كهمزة ضيغم يحمي عرينا شديد مغارز الاضلاع خاظِ
تغض الطرف ان القاك دوني وترمي حين أدبر باللحاظ

كامر الوسق أي كامر حمل البعير، وقعض مبنياً للمجهول معناه عطف، والشظاظ خشبه عقفاء محددة الطرف تجعل في عروتي الجواليق إذا عكما على البعير، والاسد الخاظي المكتنز اللحم. وقال طريف بن تميم:

او كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلي عريفهم يتوسم

وجاء في معجم البلدان: «عكاظ بضم أوله وآخره ظاء معجمة. قال الليث: سمي عكاظ عكاظا لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضاً بالفخار أي يدعك، وعكظ فلان خصمه باللدد والحجج عكظا. وقال غيره: عكظ الرجل دابته يعكظها عكظا إذا جسها، وتعكظ القوم تعكظا إذا تحبسوا ينظرون في أمورهم وبه سميت عكاظ، وحكى السهيلي كانوا يتفاخرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا، ويقال عاكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخرة. وقال الاصمعي: عكاظ نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له الاثيداء وبه كانت أيام الفخار وكان هناك صخور يطوفون بها ويحجون اليها. قال الواقدي: عكاظ بين نخلة والطائف. وذو المجاز خلف عرفة، ومجنة بمر الظهران. وهذه أسواق قريش والعرب ولم يكن فيه أعظم من

عكاظ ، قالوا كانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوما من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج انتهى

وقال في المصباح المنير : عكاظ وزان غراب سوق من أعظم أسواق الجاهلية وراء قرن المنازل بمرحلة من عمل الطائف على طريق اليمن . وقال ابو عبيد : هي صحراء مستوية لا جبل بها ولا علم، وهي بين نجد والطائف وكان يقام فيها السوق في ذي القعدة نحوا من نصف شهر ثم يأتون موضعاً دونه إلى مكة يقال له سوق مجنة فيقام فيه السوق إلى آخر الشهر، ثم يأتون موضعاً قريبا منه يقال له ذو المجاز فيقام فيه السوق إلى يوم التروية ثم يصدرون إلى منى . والتأنيث لغة الحجاز والتذكير لغة تميم انتهى

قلت وقوله : ورا. قرن المنازل بمرحلة أي وراء الوادي الذي يقال له اليوم وادي محرم (بفتح فسكون) وسيأتي الكلام عليه وهو من أنزه أودية الحجاز وهو يمتد إلى ذات عرق

واما ان عكاظ صحراء مستوية لا جبل بها ولا علم فهو صحيح ، وانما رأيت في ذلك الموضع صخورا كبارا ورأيت أيضاً مسايل ماء شتوية ، وكثيرا من شجر السدر والطرفاء هذا إذا كانت عكاظ في المكان المسمى بالقهاوي

ذكر أسواق العرب

لا ينبغي أن يظن أن أسواق العرب هي عكاظ ومجنة وذو المجاز فحسب بل كانت لهم أسواق عديدة غيرها . وقد جاءت في « صبح الاعشى » خلاصة هذه الاسواق ، قال :

كانوا ينزلون دومة الجندل (هذه في الشمال على حدود الشام وتسمى الآن الجوف وهي من مملكة ابن سعود) أول يوم من ربيع الاول فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء ، والاخذ والعطاء ، وكان يعشوهم فيها أكيدر دومة - وهو ملكها - وربما غلب على السوق كلب فيعشوهم بعض رؤساء كلب . فيقوم سوقهم هناك الى آخر الشهر (يقال ان كلبا هم الذين يقال لهم اليوم الشرارات . وقوله يعشوهم معناه يقصدهم (١) أصله مخصوص بالقصد ليلا ثم عمّ) ثم ينتقلون الى سوق هجر من البحرين في شهر ربيع الآخر فتكون أسواقهم بها . وكان يعشوهم في هذا السوق المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم - وهو ملك البحرين - ثم يرتحلون نحو عمان من البحرين فتقوم سوقهم بها . ثم يرتحلون فينزلون إرم وقرى الشحر من اليمن فتقوم أسواقهم بها أياما . ثم يرتحلون فينزلون عدن من اليمن ايضاً فيشترون منه اللطائم وأنواع الطيب . ثم يرتحلون فينزلون حضرموت من بلاد اليمن . ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء فتقوم أسواقهم بها ويجلبون منها الخرز والادم والبرود . وكانت تجلب اليها من معافر (مخلاف من مخاليف اليمن تنسب اليه الثياب المعافرية) ثم يرتحلون إلى عكاظ في الاشهر الحرم فتقوم أسواقهم ويتناشدون الاشعار ويتحاجون ، ومن له أسير سعى في فدائه ، ومن له حكومة

---

(١) قال في المصباح: وعشيته بالتثقيل وعشوته اطعمته العشاء (يعني طعام العشاء بالفتح) وهو الذي يتعشى به وقت العشاء (بالكسر)

ارتفع إلى من له الحكومة، وكان الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تميم . وكان آخر من قام بها منهم الاقرع بن حابس التميمي ، ثم يقفون بعرفة ويقضون مناسك الحج . اه

فيظهر للقاريء من هنا أن العرب كانوا يقصدون جعل نصيب من هذه الاسواق لكل الجزيرة العربية مما يدل على الوحدة والاتصال ، فانهم بدأوا بالشمال وهو دومة ، ثم انثنوا نحو الشرق وهو البحرين وعمان ، ثم انعطفوا إلى الجنوب وهو اليمن ، ثم جاءوا إلى الغرب وهو الحجاز . والمسافات لم تكن تطول عليهم مهما تراخت وتناءت ، ولو لم تكن يومئذ سيارات كهربائية، فانه لا يوجد في البشر أقدر على طي المراحل وإنضاء الرواحل من العربي، وهو بطبيعته يحتقر طول المسافات ولا يراها بالنسبة الى همته شيئا

على اني أرى صاحب «صبح الاعشى» أهمل «المربد» من أسواق العرب وهو سوق عظيم في البصرة ـ أو عظيمة، لان السوق تذكر وتؤنث مثل الطريق (١) ولعل إهماله ذكرها هنا هو من أجل أنها سوق محدثة في صدر الاسلام ولم تكن في الجاهلية، وأصله سوق للابل، ثم صار محلة عظيمة يسكنها الناس. قال ياقوت «وبه كانت مفاخرات الشعراء ، ومجالس الخطباء، وهو الآن بائن عن البصرة بينهما نحو ثلاثة أميال وكان مابين ذلك كله عامراً وهو الآن خراب» وعلى كل حال أشهر أسواق العرب عكاظ ، ومن محفوظي هذا الشعر للفرزدق

«١» في الصفحة التى قبل هذه التذكير والتأنيث في عبارة صبح الاعشى ولعلها محرفة وتذكير السوق لغة ضعيفة وقيل خطأ واما الطريق فتذكيره لغة اهل نجد والتأنيث لغة الحجاز وكلاهما فصيح وقوله تعالى (فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا) يوافق اللغتين لانه وصف بالمصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث وذهل عن هذا من قال انه جاء بلغة نجد

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهدي الي غرائب الاشعار
فحلفت يازرع بن عمرو انني رجل يشق على العدو خباري
أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني تحت العجاج فما شققت غباري
إنا اقتسمنا خطتينا بيننا فحملت برة واحتملت فجار

وللاخ الفاضل المؤرخ، والشاعر المبدع السيد خير الدين الزركلي رأي آخر في مكان عكاظ، واليك ما قاله في كتيبه «ما رأيت وما سمعت» الذي ألفه على رحلته الى الحجاز:

« وعلى ذكر طريق السيل أو اليمانية لا أرى أن تفوتني الاشارة الى أشهر سوق من أسواق العرب أعني سوق عكاظ لوقوعها في تلك الطريق على مرحلتين من مكة للذاهب إلى الطائف في طريق السيل يميل قاصد عكاظ نحو اليمين فيسير نحو نصف الساعة فاذا هو أمام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها «القانس» بالكاف المعقودة — وهي موضع سوق عكاظ الذي لا تكاد تقرأ كتابا من كتب الادب أو التاريخ العربي الا وجدت له ذكراً فيه

وهذه الباحة التي يسمونها « القانس » هي مجتمع الطرق الى اليمن والعراق ومكة، وهي مرتفعة تشرف على جبال اليمن وبينها وبين الطائف مرحلة واحدة

كل ذلك يدلك على مادعا العرب في الجاهلية لاختيار هذه البقعة المتوسطة من دون غيرها لتكون مجمعهم الاكبر، ومعرضهم الاشهر، ولم أجد فيما بين يدي من مصنفات التاريخ تعليلا لاتفاق القبائل على الاجتماع في هذا المكان غير ما عرفته الآن

والواقف في القانس أو « عكاظ » يرى على مقربة منه موضعين مرتفعين أحدهما يسمى الدمة - بكسر ففتح - والآخر البهيتة - بصيغة التصغير - وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل الى الطريق التي يمر بها سالكو درب السيل «اليمانية» ثم نقل قول ياقوت عن عكاظ وختم بقوله:

« وسمعت كثيراً من أهل الطائف يقولون ان عكاظا كان في مكان يعرف

اليوم باسم «القهاوي» في وادي لية من الطائف ، غير أن الشيوع يؤيد ما قلناه آنفا من انه هو القانس نفسه وعليه أكثر العارفين من أهل هذه الديار» اه

أفلا يحتمل أن يكونوا أقاموا السوق مرة في القانس ومرة في المكان المسمى اليوم بالقهاوي ؟ على أن قول الاخ الزركلي ان القهاوي هي في وادي لية فيه نظر لان القهاوي ليست في وادليةولا وادي ليـة هو قريب من هناك ، فقد عرفت وادي لية ، وسأتكلم عليه وهو الذي فيه الروض النضير ، والماء الغزير ، والدوح الكبير ، والكروم التي ليس لها نظير ، والرمان الذي حبه كحب اليواقيت والذي ذكره في البلاد يسير ، فأما مكان القهاوى الذى نعرفه جميعاً فهو صحراء مستوية يابسة ليس فيها الا سدر وطلح وما أشبه ذلك ، ولا امكان للتأليف بين هذا القول الذى سمعه وهذا الذى أذكره أنا الا على شرط واحد وهو أن يكون اسم وادى لية يطلق على كل هاتيك الاراضي

ولقد رحم الله الحجاز بعدم دخول الافرنج اليه ، وبعدم جوسهم خلاله ، وبعدم استطاعتهم الكتابة في جغرافيته وتاريخه ، اذ لو كان ذلك لرأينا العجائب والغرائب ، ولشهدنا النجوم طالعة في النهار ، والشمس طالعة في الليل ، ولكانت التعليلات على مظنة سوق عكاظ ، مما تضيق عن وصفه الالفاظ ، ولذهبوا فيها من المذاهب وأوردوا من الفكر ، مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فواحد يقول مثلا ان اختلاف هذه الروايات بين القانس والقهاوى قد يجعل ريبة في صحة كل منها ـ ولو قدر أن بين المكانين مسافة نصف ساعة ـ وآخر يقول : ان مكان سوق عكاظ الحقيقي محاط بالغموض بحيث لايقدر أن يجزم أحد بشيء . وآخر يذكر انه توجد اسباب تدعو الى الظن بأن قصـة سوق عكاظ مخترعة لاجل أن تتخذ دليلا على فصاحة العرب ، وآخر يقدح زناد الفـكر فيقول : ان كون الاقرع بن حابس التميمي حكما في السوق دليل على انها

لم تكن في الحجاز بل في نجد لان بني تميم يسكنون في العارض لا في الطائف .
وافرنجي أعرق في مذهب الشك من غيره يقول: من المعلوم ان محمداً كان دعا أصحابه الى إلغاء عادات الجاهليه كلها ، فأئمة الاسلام لاجل أن يؤكدوا صحة إبطال هذه العادات اخترعوا من عقولهم قصة معناها انه كانت تقام بقرب الطائف في الجاهلية سوق يقال لها سوق عكاظ تجرى فيها المنافرات والمفاخرات والمساجلات بالشعر وان محمدا ألغاها ! وانه يوجد أمارات كثيرة تدل على أن تلفيق قصة عكاظ هذه قد تقرر بين الخليفة والائمة في زمن المستنصر العباسي أبي جعفر مثلا أو في سنة ٦٢٢ للهجرة في أواخر خلافة أبيه الظاهر أبي نصر مثلا لانه كان قد ظهر في ذلك العهد فقهاء منعوا الحرية الفكرية، وكانوا بمكان من التعصب الديني ! فلا يبعد أن يكون هذا الوضع وقع في ذلك العصر !

وأخيرا تنتهي مسألة عكاظ هذه بأنه لا وجود لعكاظ أصلا، وانها موضوعة بعد الاسلام بكثير، وان روايات مؤرخي العرب عنها هي خيالية، وان التواطؤ بين فقهاء الاسلام على اختراع قصص لاجل تأييد محمد قد كان أكثر مما يظن، وأن ثمة أسباب تدعونا أن نشتبه في كون الاشتباه الذي يتظاهر به مؤلفو الاسلام أحيانا هو من الاشتباه الذي يدعو إلى الشبهة . وما ماثل ذلك من (التحقيقات أو التحليلات) التي قراءتها تغني من أصابه تسمم في المعدة عن اتخاذ مقيء .

ولقائل أن يقول : أهكذا تحقيقات الافرنج ؟ وهم الذين بلغوا من العلم والعرفان ما بلغوا ؟

فأقول: حاشا ان يؤخذ كلامي هذا على إطلاقه . ومن الافرنج العلماء المحققون الذين يتنزهون عن مثل هذه الاقاويل المقيئة ، ومن يعرفون أن شعر الجاهلية هو الشعر المعروف المنسوب إلى الجاهلية ، وان سوق عكاظ هي التي كانت تقام في أرض الطائف المذكورة وان الاشتباه في مثل هذه الامور خطة جائرة ، وصفقة خاسرة، ليست من العلم في قبيل ولا دبير

ولكن من الافرنج أيضاً فئة متحذلقة متفلسفة في كل شيء ، مولعة بالنقض وهدم النظريات المقررة بدون داع إلى ذلك سوى الميل الى الاطراف والاتيان

بشيء جديد. وفي الشرق أيضا متنطعون لا يعجبهم إلا تقليد هذه الفئة من الافرنج (١)

وإذا جاز أن يكون شعر الجاهلية غير صحيح لزم أن تلحق به سوق عكاظ في عدم الصحة، لانها السوق التي كان العرب يتناشدون فيها ذلك الشعر الذي زعم بعضهم انه مخترع بعد الاسلام! وعلى هذا تكون سوق المخترع مخترعة أيضا، لانه إن لم يكن المظروف صحيحا لم يكن الظرف صحيحا

الكلام على صخور تلك البلاد

مما اقتضى عجبي في الطائف شكل الصخور - (عامة الطائف تجمع صخراً على اصخار، والحال أن فعلا بفتح أوله لا يجمع على أفعال إلا في الفاظ معلومة) فانه غريب جداً من وجوه (أولها) إن الصخور والجنادل هي بكثرة زائدة في كل هاتيك الجبال وفي السهوب التي تتخللها (ثانيها) إنها قد توجد مجموعة في أمكنة معلومة مترا صفة بعضها إلى بعض كأنما هي مجتمعة على ميعاد (ثالثها) إنه تغلب عليها الملاسة بخلاف صخور جبالنا الشامية التي تغلب عليها الحرشة إلا ما كان منها في الاودية السائلة (رابعاً) إن أشكال بعضها غريبة جداً، منها ما يشبه الشجر، ومنها ما يشبه البشر، ومنها ما تخال انه ينظر بعيون، ومنها ما تخاله مطرقا برأس، ومنها ما هو مجوف تجويفاً يظنه الرائي من صنع البشر، او مثقوب من مكان إلى آخر. وإن كثيراً من هذه الجنادل تراه منضوداً بعضه فوق بعض، وفي أعلى الجميع صخرة هي الرئيسية تشبه رأس المنارة. والبدو يرون في هذا جمعيه يد الباري تعالى التي جعلت هذه الاشكال لأجل العبرة في قدرته تعالى. ولاشك في يد الله تعالى في هذا وفي كل شيء. ولكن الفرق بين العالم والجاهل هو في معرفة الاسباب المتوسطة. فالعالم يرى ثمة الاسباب وكلما ازداد علماً طالت معه السلسلة فلايزال يرتقي من سبب إلى سبب ومن معلول إلى علة حتى يقف حماره في العقبة فيقول:

«١» ذهل الامير او نسي هنا ان هؤلاء المتنطعين من الافرنج ومقلدتهم يبنون جل فلسفتهم على الشك والتشكيك فيجعلون هذا الجهل والتجهيل اقوى وسائل العلم والتعلم وقد رد عليهم احسن الرد في مقدمته التي وضعها لكتاب (النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي) تأليف صديقه وصديقنا الاستاذ محمد احمد الغمراوى

لا أدري . أو يقول: هكذا خلق الله . وأما الجاهل فانه يصل إلى الله رأساً ويحذف السلسلة المتوسطة (١) على أن العالم والجاهل مستويان في العجز عن معرفة الكنه

فهذه الصخور التي في الحجاز لابد من أن تكون لاوضاعها وأشكالها هذه أسباب طبيعية متولدة عن أسباب سابقة. والذي يراها أول وهلة يحكم أن هذه التجاويف والتقاعير وهذه الملوسة وهذا التدور وهذا الترأس وغير ذلك إنما هي من عمل الريح والماء في ملايين من السنين . وإن هذه الصخور العالية المشرفة المنتصبة على رءوس أكوام أشبه بالانصاب كأنها التماثيل التي ينحتها البشر بأيديهم وينصبونها فوق مكان مرتفع إن هي إلا بقايا صخور كانت كثيرة متلاصقة فلم تزل سحب الامطار الغزيرة تجرف من حولها الاتربة اللازقة بها وتخل بموازنة بعضها فتهوي به من محله وتجره إلى الوادي، وتعري القائم الباقي منها وتجرده من التراب فيصير أملس مع شدة صلابته . ولقد وجب الآن أن نذكر شيئاً عن نظريات العلماء في شأن الصخور فنقول :

كيفية تشكل الصخور

﴿ أو سنة الله في تكوين الارض وطبقاتها ﴾

كانت الارض من قبل اليوم بمئات ملايين من السنين عرضة لهزاهز بركانية عنيفة، وكانت يومئذ غير مولدة ولا منبتة ، وكانت سيول الامطار تغسل الارض بدون انقطاع ، والانهار تجري فياضة إلى البحار ، وكانت تجرف كتلا عظيمة من الطين فتصير فيما بعد صلصالا ، ويصير المرمل منها من نوع حجر المسن

ولقد عرف علماء الجيولوجيا هذه الكتل المتجمدة وما فيها من مواد وحكموا عليها بحسب طبقاتها لانها ذات طبقات . وعندهم ان أقدم الصخور هي التي تكونت قبل تكون الابحر المعروفة اليوم . فان الارض يومئذ كانت أسخن من أن تتحمل بحراً منفصلا عن بر ، وانما كانت الكرة في أول الامر كلها مائعة ،

«١» اجدر بمن يعلم سلاسل الاسباب والنظام فيها ان يكون اعلم بكمال خالقها في علمه وحكمته ومشيئته وقدرته

ومياه البحار الموجودة اليوم كانت بخاراً مختلطا بالهواء . وكانت الطبقات العليا من الهواء ملأى بالسحب المتكاثفة التي تمطر مياها حارة فوق الصخور ثم تعود فتتبخر ثانية . وبهذه الكيفية أخذت الارض تجمد تدريجا وظهرت الكتل التي يقال لها صخور ، وكانت هذه ذات قشرة تحتوي مادة سائلة شبيهة بمقذوفات الاطمات النارية عند ماتأخذ بالبرودة . وهذه القشرة كانت على شكل رغوة وصارت تذوب ثم تجمد ثم تذوب ثم تجمد بدون ان يتسنى لها صلابة مستمرة

ثم مضت ألوف من القرون كان من عملها ان بخار الفضاء ازداد تكاثفا وصار يتساقط ماؤه على الارض سيولا حارة فيصيب الصخور ويملأ المنخفضات والاغواط فتكونت من امتلاء هذه الغيطان الابحر والبحيرات والمستنقعات ، وكانت المياه تأتي إلى هذه الصخور بالرواسب التي تكونت منها الاراضي . ومن هذه الرواسب ماكان يتراكم في المنخفض من الارض ولكن الهزاهز البركانية كانت لاتدع شيئا منها يطمئن ، وكانت المياه تعج ولا تزال تكنس القشرة الارضية ، فهذه الصخور مضى عليها من صنوف الاضطراب مالا يعلمه إلا صانع الجميع من العدم . وبعضها جاء طبقا فوق طبق ، وبعضها قد قشرته الاضطرابات وقد برز لايحجبه حاجب . ومنها ماانفلق ، ومنها ماانحطم بعوامل جديدة من حرارة صاهرة أو برودة مؤدية إلى الجمود

ولم تكن هذه الصخور طبقات منتظمة ، لشدة مامرت به من ادوار الاضطراب المختلفة ، فتعذر على العلماء فهم تاريخها بسبب التبعثر وعدم الاطراد وفقد النسق ، وغاية ماعرفوا عنها وجود المواد المستحجرة مما كان نباتا أو حيوانا . فهذا قد كان بدأ اليونانيون يعرفونه قبل المسيح باربعة قرون ، وقد جرى البحث فيه بين فلاسفة الاسكندرية . ويقول الكاتب الفيلسوف الانكليزي « ولز » ان العرب عرفوا أيضاً هذه المباحث في القرن العاشر بعد المسيح (١) إلا انه لم يبدأ العلم الحقيقي

«١» قال الامام الرازي : الاشبه ان هذه المعمورة كانت في سالف الزمان مغمورة في البحار فحصل فيها طين لزج كثير فتحجر بعد الانكشاف وحصل الشهوق بحفر السيول والرياح ولذلك كثرت فيها الجبال . ومما يؤكد هذا الظن انا نجد في كثير من الاحجار اذا كسرناها اجزاء الحيوانات المائية كالاصداف والحيتان اه من شرح المواقف

لهذه المواد المستحجرة إلا من مائة وخمسين سنة فقط، فصار الانسان يحل شيئاً فشيئاً من سطورها التي كانت مستعجمة. ولما يتفق الجيولوجيون على عمر هذه الصخور، فان أقدمها يقدر له مليار وستمائة مليون سنة، وأحدثها عشرات ملايين من السنين

وقد كانت الارض في آماد - لا يمكن أن يتصور العقل عددها ولا مددها - كتلة مشتعلة بدون حياة، ثم مضى عليها آماد بقدر الاولى وهي جامدة غاية مافيها من الحياة جراثيم في غاية الصغر تحتوي عليها أصغر نقطة من الماء. ولكن بعد ذلك دبت الحياة في الارض ووجدت المخلوقات الدابة، بدليل انهم عثروا في هذه الصخور الاصلية لرسوبية على مواد رصاصية وعلى اكسيد الحديد الاحمر والاسود مما استنتجوا منه سبق خلائق حية إذ لا يمكن ان تكون هذه المواد إلا بقايا خلائق كهذه.

ونقول بالاختصار إن تاريخ دبيب الحياة على الارض مقترن بتاريخ تجمد الصخور. فالكرة كانت سديماً فصارت ماء إلى ان صارت جماداً إلى ان خرج من الجماد النبات فالحيوان، وقد كان هذا التحول فيها بميلها من الحرارة إلى البرودة بتولي الدهور. والجيولوجيون يرون أن هذه البرودة ستزداد إلى حد انه — بعد ملايين وملايين من السنين — يموت كل ما على وجه الارض من الخلائق الحية (١)

«١» هذا التقدير الذى يقدرونه لحياة الأحياء على هذه الارض هو من قبيل تقدير العمر الطبيعى لكل حي بحسب استعداده للحياة بمقتضى النظام الذى عرف بالاختبار في استكمال نمو جنسه واطوار طفولته وشبابه وكهولته وشيخوخته ولكن العمر الطبيعي المقدر في ذلك غير العمر الحقيقي الذى يحول دون وصوله الى العمر الطبيعى بعض الاقدار الالهية من قتل او وباء او مرض لا يوفق لمعالجته بما يكون سبب الشفاء كما وفق الامير أطال الله حياته بالصحة والعافية. كذلك الارض يظهر من نصوص كتاب الله خالقها ان لها عمرا ينتهي بقيام الساعة التي قال انها « لا تأتيكم الا بغتة » ووردت آيات متعددة ناطقة بأن ذلك يكون بقارعة تقرعها وصاخة تصخها فتكون هباء سديميا كما كانت قبل تكوينها « اذا رجت الارض رجا * وبثت الجبال بثا * فكانت هباء منبثا » وقد فصلنا ذلك في المنار وتفسيره

فلما كانت الحرارة زائدة على الارض لم تحمل الارض الحياة لان الحياة لاتتحمل الحرارة الزائدة، وعندما تنقص الحرارة نقصاناً زائداً لاتحمل الارض الحياة، لان الحياة لاتتحمل البرودة الزائدة، كل ذلك يدل على ضرورة التوازن لاجل الحياة

ولعل بعض القراء يشمئزون من هذه المباحث « الكفرية » ويرون هذه التعليلات مما لايأتلف مع العقيدة . وهذا خطأ محض لان هذه الادوار التي لاتحصى إلا بالملايين والمليارات من السنين هي أدل على قدرة الخلاق الحكيم تعالى وهي ولو طالت أضعاف ما هي لما أمكن ان يعلل لها وجود إلا بواجب الوجود

واما ان الارض وغيرها من الاجرام الفلكية كانت كلها كتلة واحدة من البخار ، ثم تفصلت كرات شتى وأخذت كل منها تتجمد شيئاً فشيئاً ، وان مبدأ الحياة كان في الماء فليس إلا وفقاً للوحي النازل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو (أولولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي)

ولكن قصور مفسرينا في العلوم الطبيعية وقف بهم عن فهم المراد من قوله تعالى في أكثر الآي الكريمة التي من هذا الضرب . وكانوا اذا قرأوا (يوم تأتي السماء بدخان) أشكل عليهم فهم الدخان هنا فقالوا أن مراده تعالى يوم تأتي السماء بجدب أو قحط، لان الجائع يرى بينه وبين السماء دخاناً من شدة الجوع او ان الجوع يقال له الدخان لما في الارض من اليبس في الجدب بحيث يرتفع منها الغبار الذي هو كالدخان وما أشبه ذلك من التفاسير التي هي أبعد من السماء عن الارض(١) والكتاب في محكم آياته قد تأيد بظهور النظريات العلمية العصرية التي

«١» لقد كان للامير مندوحة عن تخطئة هذا التفسير للاية بالاستدلال على الرأي السديمي في التكوين بقوله تعالى « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا اوكرها . قالتا أتينا طائعين) فهى نص في التكوين من الدخان الذى يطلق على بخار الماء وفسر به في الاية وعلى ما يشبهه . والاية التي ذكرها موضوع الدخان امر يرتقب حصوله في المستقبل وفيه قولان مشهوران مرويان لا رأيان للمفسرين . الاول ما ذكره الكاتب مجملا وهو مروي على انه سبب لنزول الاية في الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه والثاني انه دخان يكون من اشراط الساعة وفيه عدة احاديث

أجمعت على الرأي السديمي في مبدأ التكوين ، وأثبتت ان هناك كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وانه أشار بكلمات موجزات تلخص فيها الرأي السديمي الذي أجمعوا عليه في هذا العصر على حين انه في زمن نزول القرآن لم يكن رأي سديمي ولا شيء من هذه النظريات وكان الذي أنزلت عليه هذه الآيات أميا لا يقرأ ولا يكتب

ومن أراد أن يعلم معجزات القرآن من جهة سبقه إلى ذكر النواميس الطبيعية التي عول عليها العلماء اليوم في أمر التكوين فليقرأ كتاب « سرائر القرآن » للغازي الفلكي الرياضي احمد مختار باشا رحمه الله (١)

قرية لقيم وكرومها ومياهها

ان المسافة من المكان الذي كانت فيه سوق عكاظ إلى مدينة الطائف هي نحو من ساعة بسير الكهرباء، وجميع المسافة من البلد الحرام إلى الطائف بالكهرباء نحو من خمس ساعات

واول ما يستقبل الانسان في مسيره إلى الطائف هي قرية لقيم « بضم ففتح فسكون » وهي قرية لطيفة فسيحة الارجاء لا يظنها من رآها قرية واحدة وذلك لتفرق بيوتها و تراخي مابين حاراتها . والسبب في هذا التفرق أن أكثرها خاص بالاشراف: وأكثرهم يسكنون في بيوت منفردة مسورة تحيط بها بساتينهم ومزارعهم، فكل واحد منهم يريد أن يعيش مستقلا بنفسه في منزله وزرعه وضرعه وجميع مرافقه ، ومعظم هؤلاء الاشراف هناك من ذوي ناصر واشهرهم لهذا العهد الشريف (فطن) فهو أطولهم يدا ،وأوسعهم كرما، وأكثرهم كروم عنب ، ومما لا ينبغي أن ينسى ان عنب « لقيم » هو رأس عنب الطائف في اللذة والحلاوة وان عنب وادي محرم اي قرن المنازل هو رأس عنب الطائف في كبر الحجم مع الحلاوة، وتحسبه جوزا إذا رأيته ، وقد كنا نضع منه الحبة في دورق الماء فتقف في عنقه وتسده

وفي لقيم عدد غير قليل من السواني تحركها البقر لا بالدوران حول البير كما هو الشان في سورية مثلا، بل بالنزول في منحدر من الارض إلى جانب البير ثم الصعود

(١) قد سبقنا احمد مختار باشا الى بيان كثير من هذه المسائل في المنار وفي تفسيره

ثانية فاذا نزلت الدابة في ذلك المنحدر صعدت الظروف المعلقة بالاشطان من قعر البير وقد امتلأت ماء ولم تزل تصعد إلى أن تصير على فم القناة التي ينصب فيها الماء جاريا إلى البركة فافرغت الظروف ماءها ورجعت الدابة من آخر المنحدر صاعدة نحو البير ، فنزلت بتلك الظروف ثانية إلى قعرها لتمتلىء ماء وهلم جرا ،

وإلى اليوم لم يعتمد أهل الطائف والقرى التي حولها على الآلات البخارية الرافعة ولا يزالون على عاداتهم القديمة في رفع المياه ، وقد رغبتهم كثيراً في استعمال المحركات البخارية لما فيها من التوفير ومن زيادة الري وذكرت لهم كيف ان اهل المدينة المنورة قد عولوا عليها في السنين الاخيرة فوجدوا فرقا عظيما في كمية الماء الذي يستفيضونه واستخلصوا دوابهم التي كانت تهلك في هذا الصعود وهذا النزول ، فاعتذروا بان مياه المدينة اغزر من مياه الطائف وانه مهما رفعت الآلات منها فلا تنزحها ، بخلاف مياه الطائف وجوارها فان الآلة البخارية إذا اشتغلت بضع ساعات فوق فم قليب نزحت كل ما فيه واضطر صاحب البير أن يعطل الآلة مدة ساعات أخرى حتى يجتمع فيها كمية من الماء . والحقيقة ان البداية كما يقال صعبة في كل عمل والا فان آبار الطائف وقراها ـ وقد تحصى بالالوف ـ ليست جميعها سواء في النزارة ، ومنها آبار فائضة لا تنزحها الدلاء ولو تحركت آلاتها الرافعة ليلا ونهاراً ، وقد اقتنع بهذه الحقيقة في أثناء وجودي في الطائف صيف سنة ١٣٤٨ صاحب السمو الامير فيصل نجل ذي الجلالة الملك عبد العزيز بن سعود — ونائبه في الحجاز عند ما يكون الملك في نجد — فأراد أن يشرع هو بالعمل ليقتدي به أصحاب السواني ، وبعث إلى جدة فاستحضر آلة تدار بزيت الغاز وأمر بتركيبها على إحدى آبار « شبرا » في اول الطائف ، وما أظن اصحاب البساتين إلا مقتدين بعمله لانه انما عمله لاجل أن يكون قدوة لاغير

هذا وفي لقيم سدود كثيرة للمياه إذا شاهدها الغريب ولم يكن يعلم طبيعة الاقليم ظن انها اسوار للحصار ، وحقيقة الحال ان الماء في هذه البلاد عزيز فاذا

جاءت سحابة ملأت السهل والوعر واسالت الاودية وقد تكون السحابة لم تستمر أكثر من ساعة . ثم تعود الارض فتنشف كأن لم يصبها نقطة مطر . فأهالي جزيرة العرب من قديم الدهر احتاطوا للامطار بالسدود والحواجز لتحويل المياه إلى أشجارهم وزروعهم ولعدم ذهاب الماء سدى ، ومن هذه السدود ما كان يضرب به المثل وما كانت تحيا به بلدان وقبائل مثل سد مارب مثلا ، وكيفما تقلب السائح في جزيرة العرب وجد السدود والحواجز والقنى بين كبير وصغير ناطقة بلسان حالها انه يجب احراز المياه بقدر الامكان لانه لايتيسر هنا في كل وقت ، ولقد صادفنا في جوار الطائف كثيراً من السدود القديمة الخربة، ولحظنا آثار عمران دراسة، كانت في أصولها جناناً ناضرة ، ومما لامرية فيه ان جزيرة العرب ملأى بهذه الآثار ولكن ليس لها كتب تفي بالتعريف عنها إلا ما كان من كتب الهمداني

و « لقيم » موصوفة بجودة الحنطة والحبوب ولذلك جاء في تاج العروس «الحنطة اللقيمية الكبار السروية التي تؤتى من السراة او نسبة إلى لقيم كزبير بلدة بالطائف موصوفة بجودة البر والشعير »

وفي لسان العرب: لقيم اسم رجل ولا أدري أسميت هذه القرية باسم رجل اسمه لقيم ام هي تصغير لقم بمعنى طريق ؟

وقد جاء ذكر « لقيم » في تواريخ الطائف

نقل ابن فهد الهاشمي المكي المتوفى سنة ٩٢٢ في كتابه (تحفة اللطائف، في فضائل الحبر بن عباس ووج والطائف) عن كتاب (زيارة الطائف) لابن ابي الصيف مفتي الحرمين ان النبي ﷺ كان قد كتب إلى ثقيف كتابا يحرم فيه صيد وج وكانت ثقيف تتوارث هذا الكتاب وتتبرك به . قال الشيخ ابو العباس الميورقي الاندلسي في كتابه « بهجة المهج » مايلي : « قال لي تميم بن حمران الثقفي العوفي: قتل ابي رحمه الله تعالى في نوبة قتل الشريف قتادة الحسني لمشايخ ثقيف أهل

بني يسار من قرى الطائف وانتهاب الجيش البلاد، ففقد الكتاب في جملة مافقدناه وهو كان عند ابي لكونه شيخ قبيلته. ثم قال الميورقي بعد ذلك: قال قاضي الطائف يحيى بن عيسى رحمه الله: قتل عيسى ابي في هذه النوبة في قرية لقيم لثلاث عشرة من جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة وستمائة، وكان موت الميورقي رحمه الله تعالى بعد موت ابن أبي الصيف رحمه الله تعالى بقليل

قال ابن فهد المذكور: وقد زرت هذه الآثار المباركة مع والدي رحمه الله وذلك في سنة خمس عشرة وتسعمائة خلا البئر والموقف اللذين بناحية « لية » فلم يتيسر لي زيارتهما، ورأيت المسجد الكبير الذي فيه قبر سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما خرب بل سقط بعض اروقته وجدرانه وعمر بعضها عمارة ضعيفة، وكذلك بناء الآثار النبوية التي في وسطه، وأحدث به قبور لجماعة صاحب مكة السيد الشريف جمال الدين محمد بن بركات بن حسن بن عجلان الحسني رحمه الله تعالى، منهم ام ولده الفارس الشجاع السيد هزاع، وقاصده إلى الديار المصرية الشريف عنقا وبير الحسني، وليس بالمسجد جمعة ولا جماعة والظاهر انهما كانا فيه قديماً لوجود المنبر به، وكذلك جميع القرى المتصلة بالطائف فاني لما زرتها في المرة الاولى لم أر بها جمعة. ثم ان الجناب العالي القاضي نور الدين علي بن خالص المغربي المالكي النائب بجدة بعد المقر الحسامي الامير حسين الكردي الاشرفي لما توجه الى جهات الهند لقتال الافرنج المخذولين امر اهل الطائف بصلاة الجمعة وذلك باشارة سيدنا العلامة المفيد رئيس الحكماء نور الدين احمد بن محمد بن خضر القرشي الكازروني الشافعي فجمعوها في سنة خمس عشرة وتسعمائة واستمرت الى ان زرت الزيارة الثانية في السنة التي بعدها وهي موجودة بعد ذلك في غير المسجد الكبير الذي فيه قبر سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، فانه منفرد عن القرى وسط التربة يصعب على اهل البلد التوجه اليه لبعده عن بعضهم وكونهم لا يسمعون النداء منه ولله الامر من قبل ومن بعد اه

(قلت) هذا قد كان يوما من الايام فأما الآن فالجماعة تقام في مسجد ابن عباس المعمور ـ ويصلي فيه اهل الطائف وقراها وفي أيام الصيف عندما يكون اهل

مكة في الطائف يجتمع فيه نهار الجمعة الوف مؤلفة ثم جاء في كتاب (اهداء اللطائف من اخبار الطائف) للعجيمي المكي ان في لقيم قبور بعض الصحابة والله أعلم

وممن ذكر « لقيم » الاخ الفاضل المؤرخ السيد خير الدين الزركلي الشاعر الشهير ، فقد اتى على ذكر قرى الطائف باجمعها مما لم يرد مجموعاً ولا في كتاب . ويكفيه أن أبا محمد الحسن بن احمد الهمداني صاحب « صفة جزيرة العرب » الذي لم يؤلف أحد في بابه مثله وصاحب كتاب الاكايل الشهير قد ذكر طرفاً من قرى الطائف لكنه لم يوفق إلى الاستقصاء الذي استقصاه الخير الزركلي فهو يقول عن لقيم ما يلي :

« لقيم واد طويل خصيب يجتاز في أقل من ساعتين أوله مزارع الشدايين بعد المليساء ، وآخره قرية الصغاة على مايزعمون ، وعندي أن آخره جبل رغاف . وهو كثير القرى والمزارع وقد اتيت على اسمائها في مواضعها . وفي كتاب العجيمي ان لقيما قرية كبيرة مشتملة على بساتين ومزارع وآبار . ثم قال وهي مسكن جماعة من ثقيف يقال لهم الحمدة ، وقد قتل صناديدهم الشريف زيد بن محسن في حدود سنة ١٠٤٠ لخروجهم عن طاعته اه . والذي صح عندي أن جماعة ثقيف يسكنون قرية المليساء وقد تدعى باسم الحمدة الذين ذكرهم العجيمي لسكناهم بها إلى الآن أما لقيم ففيه من ثقيف وغيرها من قبائل العرب عدد غير قليل منتشرون في مزارع هذا الوادي وقراه . وأما اطلاق اسم القرية عليه فلا أعلم له وجهاً إلا ان كانت فيه قرية تدعى لقيما تغير أسمها بعد زمن العجيمي وأطلق الاسم على الوادي كله » اه

قلت : المعروف الآن أن لقيما هي هذه البيوت التي تمر بها تارة تراها عن يمينك وتارة عن شمالك قبل دخولك إلى الطائف . فأما الحدود الاصلية للقيم فلم استعلم عنها ولعلها كما قال الفاضل الزركلي

وقرأت مرة في أحد كتب الادب ابياتاً لرجل اسمه اللقيمي نظمها لتنقش على قبره وضمنها بحساب الجمل تاريخاً يوافق سنة ١١٧٨ وآخر هذه الابيات هو هذا

ماذا ثوى قبر اللقيمي ارخوا ... مستمنح للعفو أسعد مصطفى

هذا ما حضرني من أمر لقيم ولابد لي من أن أردفه بهذه النادرة لوقوعها فيها :

الامن الشامل في بلاد الملك العادل

الإمام عبد العزيز آل سعود

كنت صاعداً مرة من مكة الى الطائف وكانت معي عباءة احسائية سوداء جعلتها وراء ظهري في السيارة فيظهر انها سقطت من السيارة في أرض لقيم، ولم ننتبه لها ، فأخذ الناس يمرون فيرون هذه العباءة ملقاة على قارعة الطريق فلا يجرأ أحد أن يمسها، بل شرعت القوافل تتنكب عن الطريق اللقم عمداً حتى لا تمر على العباءة خشية انه اذا أصاب هذه حادث يكون من مر من هناك مسؤولا، فكانت هذه العباءة على الطريق أشبه بأفعى يفر الناس منها ، بل لو كانت ثمة أفعى ما تجنبوها هذا التجنب كله ؟ وأخيراً وصل خبرها الى أمير الطائف محمد بن عبد العزيز من سلالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فأرسل سيارة كهربائية من الطائف أتت بها، وأخذ بالتحقيق عن صاحبها فقيل له اننا نحن مررنا من هناك وان الارجح كونها سقطت من سيارتنا ، فجاء الامير ثاني يوم يزورنا وسألنا : هل فقد لكم شيء من حوائجكم في أثناء مجيئكم من مكة ؟ فأهبت برفاقي ليفتقدوا الحوائج فافتقدوها فاذا بالعباءة السوداء مفقودة وكنا لم ننتبه لفقدانها، فقلنا له: عباءة سوداء احسائية قال : هي عندنا وقص علينا خبرها

وقد أتيت على هذه النادرة هنا مثلا من أمثال لا تعد ولا تحصى من الأمن الشامل للقليل والكثير في أيام ابن سعود مما لم تحدث عن مثله التواريخ حتى اليوم. فالمكان الذي سقطت فيه العباءة كان في الماضي كثيراً ما تقع فيه وقائع السلب والقتل ولا يمر الناس فيه إلا مسلحين. فأصبح اذا وجدت لقطة هناك على قارعة الطريق تجنب الناس الطريق لئلا يتهموا بها اذا فقدت، وكل يوم يأتي الشرطة والخفراء والعسس بلقط وحاجات ضائعة مما فقده السفار أو سقط بدون انتباه عن الاكوار وذلك الى دائرة الامن العام فتبحث عن أصحاب هذه اللقطات وتردها لهم بتمامها مما يقضي بالعجب. وإنك لتجد هذا الأمن ممدود الرواق على جميع البلدان التي ارتفعت فيها

راية ابن سعود من منجد ومتهم ومعرق ومشئم بدون استثناء ، وقد علل بعضهم هذا التأمين البليغ للسوابل بأنه من أركان عقيدة الوهابيين الذين يقولون :

وما الدين إلا أن تقام شعائر وتأمن سبل بيننا وشعاب

قلت أياً كان السبب في هذا الأمان فانه نعم العمل ولا يوجد معنى للحكومة إن لم تكن أول ثمراتها الأمن والعدل ، ولو لم يكن من مآثر الحكم السعودي سوى هذه الأمنة الشاملة الوارفة الظلال ، على الارواح والاموال ، التي جعلت صحاري الحجاز وفيافي نجد آمن من شوارع الحواضر الاوربية ـ لكان ذلك كافياً في استجلاب القلوب اليه ، واستنطاق الالسن في الثناء عليه ، فاليوم تجد التاجر والفلاح ، والحادي والملاح ، والحاج القاصد على الضوامر أو على الجواري المنشآت بالدسر والالواح ، يتحدثون بنعمة هذا الامن الذي أنام الانام بملء الاجفان ، وجعل الخلق يذهبون ويجيئون في هاتيك الصحاري ، وقد يكون معهم الذهب الرنان ، وهم بلا سلاح ولا سنان ، فلا نريد من هذه الجهة مزيداً وانما نرجو لهذه النعمة الدوام ، فلا عمران للبلاد إلا بالامان والاطمئنان

ذكر أمير الطائف الملقب بالصحابي

ليس أمير الطائف المشار اليه هو المنفرد بمزية الضبط والربط في الامارة التي عهد بها اليه ، بل هذه الحلية عامة للامارات والولايات التي يظللها لواء ابن سعود كلها ، إلا ان أمير الطائف محمد بن عبدالعزيز .. بن عبدالوهاب وهم يقولون ابن الشيخ ـ هو نسيج وحده في أخلاقه وتقواه وورعه ، ونقاء سريرته وزكاء سيرته ، فقد ندر أن ينعقد الاجماع على حب وال انعقاده على حب أمير الطائف الذي لم أسمع من أحد من أهالي هذه البلاد ـ حضرها ووبرها ـ إلا نغمة واحدة بحقه ، وهي الثناء الجميل ، ولحسن أخلاقه واستقامة طباعه يلقبونه « بالصحابي » وقد أقمت بالطائف زهاء أربعة أشهر وهي مدينة صغيرة لا يخفى فيها شيء فما عرفت عن هذا الملقب بالصحابي إلا ما يثبت لهذا الرجل مثل أخلاق الصحابة ، أكثر الله من أمثاله

الكلام على الطائف

اول ما يدخل الانسان إلى الطائف، بل أول مايطل على لقيم يشعر بالسرور وينشرح صدره انشراحا لايعهده إلا في النادر من البلدان .

نقل عن الاصمعي انه قال: « دخلنا الطائف فكأني كنت أبشر وكأن قلبي ينضح بالسرور ولا أجد لذلك سبباً إلا انفساح حدها وطيب نسمتها »

قلت أما انفساح حدها فانها في بسيط من الارض أفيح، يسرح فيه النظر ماشاء أن يسرح ، وحولها بعض جبال عاليه ترى من بعيد، وأهاضيب ترى من قريب، وجميعها لاتغم الطائف في شيء ، وهي مع هذا الانفساح والانفراج والاستواء في الارض تعلو نحو ألف وستمائة متر عن سطح البحر ، وأما طيب النسمة فانك تحس فيها من الانتعاش وسعة التنفس مالا تشعر به في مكان ،

وقد كان أصابني في سويسرة زكام في شعب الرئة لعل أصله من البرد، فكان يضيق به نفسي كثيراً لاسيما اذا استطال الشغل ، فما مضى علي في الطائف إلا قليل حتى ذهب هذا الزكام بتمامه وصار الهواء يجري في رئتي كأنه في صحراء، ولما رجعت الى أوربة قال لي الاطباء بعد المعاينة انه لم يبق هناك أثر لشيء يقال له زكام في شعب الرئة ، ولم يكن هذا بأول فضل للطائف علي ، بل هواء الطائف هو الذي شفاني باذن الله - بل الله هو الذي شفاني به - من الضعف الذي كنت منه على شفا ، فلا عجب فيما رواه ابن عراق من انهم كانوا يغبطون من يصيف بالطائف . وفيما يروى عن معاوية بن أبي سفيان من قوله: أنعم الناس عيشاً من يقيظ بالطائف ويشتو بمكة ويربع بجدة .

وقال الفاكهي في تاريخ مكة : كان للطائف خطر عند الخلفاء فيما مضى وكان الخليفة يوليها رجلا من عنده ولا يجعل ولايتها الى صاحب مكة

ووجد بخط الشيخ أحمد العبدري الميورقي المتوفى سنة ٦٧٨ انه وقع الكلام في ترجيح سكنى الحجاز على سائر الآفاق ، ثم وقع الترجيح بين نواحي الحجاز

ومكة والمدينة فوقع الاتفاق على ان الطائف أقرب للسلامة والسنة، لعدم مصاحبة أهل الاهواء ورؤية من يقسي القلب من ذوي الاطماع . ولم تزل الطائف مصيفا لمكة جاهلية وإسلاما الى يومنا هذا ، وهي في نظري حارة من مكة خاصة بأيام الصيف ولا غنى لمكة عنها

أول ما يستقبل الانسان من الطائف هو قصر شبرة الذي يخص الاشراف ذوي عون ، وهو قصر شاهق حوله بستان طويل عريض هو أكبر بستان في الطائف . وجميع الاراضي التي هناك على مسافة بعيدة هي من مضام القصر . وقد بنى إلى جانبه الشريف علي باشا أمير مكة سابقا ـ وهو مقيم الآن بمصر وعهدي به يسكن بجوار قصر القبة بضاحية الزيتون من ضواحي القاهرة ـ قصراً بديعا ملوكيا أنفق عليه عشرات الألوف من الجنيهات فجاء أفخم بنية في الطائف بل في جميع الحجاز وفي هذا القصر نزل السلطان وحيد الدين محمد السادس آخر سلاطين بني عثمان عند ما جاء إلى الحجاز بعد خلعه وذلك بدعوة الملك حسين ابن علي الذي كان صاحب الحجاز وقتئذ .

وعند ما يصيف في الطائف الملك عبد العزيز بن سعود صاحب الحجاز ونجد وملحقاتهما يكون نزول جلالته بهذا القصر

ولقد سمى الاشراف ذوو عون هذا القصر بشبرة على اسم شبرة الشهيرة بمصر (١) وذلك والله اعلم لان أمراء مكة المشار اليهم أصدقاء من قديم الزمان لاسرة محمد علي الجالسين على سرير الكنانة .

وسبب هذه العلاقة القديمة هي انه لما هاجم الوهابيون الحجاز في القرن الماضي واستولوا عليه كان يلي الامر فيه الاشراف ذوو زيد وجميع هؤلاء الاشرف سواء من ذي زيد أو من ذي عون أو من ذي ناصر أو من فروع أخر

«١» شبرا مصر تكتب بالالف قال في القاموس : وشبرا كسكري ثلاثة وخمسون موضعا كلها في مصر وقد بين شارحه الزبيدي مواضعها ولكنه كتبها بالالف العمودية « شبرا » كما يكتبونها في مصر الى اليوم

عديدة يجتمعون في الحسن بن أبي نمي من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما(١) وقيل لي ان عددهم في الحجاز يزيد على عشرة آلاف ، إلا ان فرعا منهم انفرد بالامارة في خبر لو اردنا شرحه يطول جداً هو فرع ذي زيد نسبة للشريف زيد بن محسن أمير مكة في حدود سنة ١٠٤٠ وهؤلاء الذين منهم الامير عبد المطلب الذي ولي إمارة مكة ثلاث مرات والذي حفيده الامير علي حيدر باشا وقد ولته الدولة الامارة في أيام الحرب بعد ان ثار عليها الشريف حسين بن علي وتلقب ملكا ، فصار هذا الفرع الذي يقال له ذوو زيد أشبه بالبوربون ملوك فرنسة بجمعهم وآل اورليان نسب آل « كابيت » الا ان الملك منحصر في آل بوربون وبقي الامر كذلك في فرنسة الى ان سقط شارلس العاشر سنة ١٨٣٠ فتولى الملك بعد لويس فيليب من آل اورليان .

وهكذا كانت امارة الحجاز منحصرة في ذوي زيد الى ان استولى الوهابيون على الحجاز ، وعجزت الدولة عن اخراجهم منه فرمتهم بمحمد علي والي مصر الذي جرد عليهم الجيوش وابث يقاتلهم نحو عشر سنوات إلى أن أخرجهم من الحجاز ، فكان اقتراحه على الدولة اخراج امارة الحجاز من ذوي زيد وتولية أمير من غيرهم من الاشراف . فتلكأت الدولة بادىء ذي بدء عن اجابة طلبه الا انه مازال يلح بذلك ويبرم إلى ان تمكن من تولية الشريف محمد بن عون أميراً على مكة ، ومن ذلك الوقت صارت الامارة مداولة بين الفرعين ذوي زيد وذوي عون بعد ان كانت منحصرة في الفرع الاول

«١» هو الحسن بن ابي نمي محمد بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة بن ابي نمي محمد بن ابي سعيد الحسن بن علي بن قتادة بن ادريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبدالله بن محمد بن موسى ابن عبد الله المحض بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (رض) وكانت وفاة الحسن بن ابي نمي سنة عشر بعد الالف اه من الاصل

وقد كان يحدثني في الاستانة بهذه الامور التاريخية الشريف عبد الاله باشا أخو الشريف عون الرفيق باشا الذي كان تولى امارة مكة أكثر من ٢٠ سنة في أيام السلطان عبد الحميد، وهو عم الملك حسين . وقد تولاها الشريف عبد الاله نفسه أيضا عند وفاة أخيه لكنه توفى إلى رحمة ربه قبل ان يبرح الاستانة. وكان الشريف عبد الاله رحمه الله ذا مقام سام في عاصمة آل عثمان ، وكان على خلق عظيم لا يعرفه أحد إلا بالغ في اجلاله ، وقد كنت كثيراً أسمر عنده و كان له إلي ميل أكيد وبي ثقة شديدة ، فقلما كان يسترسل في الكلام السياسي في مجالسه الا أمامي . وكان يحدثني اذا خلا المجلس بقصص كثيرة من جملتها هذه القصة وهو ان محمد علي باشا جد الاسرة المالكة بمصر هو الذي نصب والده محمد بن عون أميراً على الحجاز وهو الذي وهبه الاراضي التي لهم في مصر وهو الذي أولاهم تلك النعم الجسام

ومنذ أصبحت امارة الحجاز بين هذين الفرعين اشتد الخلاف بينهما كما هو بديهي . وقد اختلفا في كل شيء الا في شيء واحد وهو أنهم جميعا اتفقوا على الاستئثار باحسن الاراضي وأجمل المواقع في ذلك القطر، ولا سيما الطائف ونواحيها وقد يكون ذلك خيراً للبلاد لانهم بمكانهم من الامارة أقدر على العمارة والتأثيل من غيرهم

ففي الطائف المياه كلها ترفع بالسواني وليس في البساتين إلا آبار مركبة على أفواهها الدواليب . والماء الجاري من نفسه هناك انما هو عينان غزيرتان لا غير احداهما عين سلامة والاخرى عين المثناة

فاما عين سلامة فهي تخرج في قرية بهذا الاسم هي الآن حارة من حارات الطائف واقعة على جانب الوادي الذي يقال له وج . قال الهمداني في صفة جزيرة

العرب « وفي قبلة الطائف حائط أم المقتدر الذي يدعى سلامة » فيظهر انه كان لام الخليفة المقتدر هناك بستان يسقى بهذه العين

وقال ياقوت في معجمه « السلامة بلفظ السلامة ضد العطب قرية من قرى الطائف بها مسجد للنبي ﷺ ، وفي جانبه قبة فيها قبر ابن عباس وجماعة من أولاده ومشهد للصحابة رضي الله عنهم»

وقال الشيخ حسن العجيمي المكي في كتابه اهداء اللطائف « ومنها قرية السلامة وهي كثيرة البيوت والبساتين وبها عين ولا أعلم متى كان ابتداء عمارتها إلا انها كانت معمورة في أوائل القرن التاسع . وبها كان ينزل أعيان مكة وفضلاؤها بل غالب أهلها ثم خربت في حدود الثمانين وتحول أهلها عنها ولم يبق منهم إلا القليل الخ »

وقال الخير الزركلي حفظه الله في « ما رأيت وما سمعت » : سلامة قرية محاذية للطائف من جهة باب ابن عباس كثيرة البيوت بعضها عامر وبعضها خرب ، سكانها قليلون من قريش وغيرها . ثم قال : هي الآن في ظاهر البلدة يفصل السور بينها وبين قبة ابن عباس . ثم قال : ان الشريف سروراً نزل بها سنة ١١٩٣ وهذا دليل على انها كانت عامرة لعهده . انتهى . والشريف سرور هو جد الشريف عبد المطلب جد ذي السمو الامير علي حيدر نزيل بيروت اليوم

فعين سلامة هذه جرها الامراء ذوو عون الى شبرة على مسافة نصف ساعة وتركوا منها مشارع لورود الاهالي وأحدثوا عليها هذا البستان البديع الذي حول ذلك القصر

وأما المثناة فهي على مسافة ثلاثة أرباع الساعة من الطائف نحو الغرب وتعد أجمل مزرعة في الطائف : وادي وج الشهير على جانبيه البساتين والجنان الغناء مشتبكة اشتباك الغاب الاشب وعين ماء مجرورة بقنى تحت الارض من مسافة

ساعة ونصف من ناحية جبل برد (بالتحريك) أعلى جبل في أرض الطائف . وهذه العين هي أغزر عيون تلك البلاد تصب في الثانية ٤٤ ليبرة ويسقى منها نحو ٤٠ بستانا في المثناة ثم تنحدر فضلة المياه صوب الطائف ، وجميع هذه البساتين وما فيها من قصور وأبراج تخص الاشراف ذوي زيد ومنها شيء لاشراف آخرين يقال لهم الشنابرة ، وفي هذه المثناة من الفواكه من العنب والسفرجل والخوخ الذي يقال له في الشام الدراقن ويقال له في اليمن والحجاز الفرسيق ماهو من الطبقة العليا في نوعه

ويلفظون « المثناة » بالثاء المثلثة وكنت ظننتها من غلط العوام وان أصلها المسناة بالسين المهملة . وذلك أنه يقال ان القوم يسنون لأنفسهم اذا استقوا ويقال السحابة تسنو الارض أي تسقيها فقد تكون بمعنى مكان السقيا . وأقرب من هذا ان تكون مخففة من « المسناة » وهي السد الذي يعترض الوادي حتى لاتطغى مياهه على الارض ، وفي لسان العرب : المسناة ضفيرة تبنى للسيل لترد الماء سميت مسناة لان فيها مفاتح للماء بقدر ماتحتاج اليه مما لايغلب مأخوذ من قولك سنيت الشيء والامر اذا فتحت وجهه اه

وفي فتوح البلدان للبلاذري المتوفي سنة ٢٧٩ مايلي « فلما كان زمن قباذ ابن فيروز انبثق في أسافل كسكر بثق عظيم فاغفل حتى غلب ماؤه وغرق كثيراً من أرضين عامرة وكان قباذ واهنا قليل التفقد لامره ، فلما ولي أنو شروان ابنه أمر بذلك الماء فردم بالمسنيات (جمع مسناة) حتى عاد بعض تلك الارضين الى عمارته» انتهى

وفي أول المثناة من جهة جبل برد سدود على وج هي على هذه الصفة مما جعلني أفكر في أن المسناة هي بالسين لا بالثاء . إلا أن أهل الحجاز باجمعهم يقولون «المثناة» وتواريخ الطائف كلها تذكر المثناة بالثاء . وإذا رجعنا الى كتب اللغة لا نجد مناسبة بين معنى لفظة « المثناة »وهذا المكان، فقد قالوا : المثناة الحبل من

الصوف أو من الشعر مطلقا : و نقلوا عن عبد الله بن عمر من اشراط الساعة «أن توضع الاخيار ، وترفع الاشرار ، وأن يقرأ فيهم بالمثناة على رءوس الناس ليس أحد يغيرها : قيل وما المثناه ؟ قال ما استكتب من غير كتاب الله» (١) كأنهم جعلوا كتاب الله مبدأ ، وهذا مثنى : فأنت ترى انه لاهذا ولا هذا فيه شيء من ملابسة معنى بستان أو جنة ، أو واد ذي زرع : وأما قولهم مثاني الوادي ، بمعنى معاطفه ، واحنائه فهو جمع ثني ـ بكسر فسكون ـ لا جمع مثناة

قال في لسان العرب : وفي الصحاح في تفسير المثناة قال : هي التي تسمى بالفارسية دوبيتي وهو الغناء (٢) وهذا أبعد عن ذلك المعنى أيضاً . وقد جاءت معان كثيرة للمثنى بالتذكير وكلها أيضاً بعيدة عن هذا المعنى . وعلى كل حال فلسنا هنا في المثنى بفتح فسكون وانما نحن في المثناة ، ولم يبق إلا أن نردها إلى اسم مكان من فعل ثنى بمعنى عطف أو حنا كأن تكون بمعنى منحنى الوادي ، أو أن نردها إلى اسم مكان من ثنى بمعنى صيره ثانياً لان النهر شق المزرعة نصفين اثنين . او أن يكون أصلها من الثناية بمعنى الفلاحة والزراعة ، ولكن الثناية بمعنى الفلاحة والزراعة لم يرد منها اسم مكان ، ثم انها لم ترد بهذا المعنى إلا عن ابن الاثير في تفسير حديث قتادة : كان حميد بن هلال من العلماء فأضرت به التناوة أو التناية . والعامة عندنا في جبل لبنان تستعمل « التناية » بمعنى الفلاحة أيضاً ،

(١) التحقيق ان المثناة هذه تعريب المشنا أو المشنة بالعبرية وهي الشريعة التي وضعها اليهود بعد السبي باجتهادهم او ابتعادهم ويليها الجبارة وهي الشريعة الشفوية لهم والتقاليد العملية وهما أصل التلمود وفسرها في القاموس : بقوله كتاب فيه اخبار بني اسرائيل احلو فيه وحرموا ماشاؤا —او هي الغناء او التي تسمي بالفارسية دوبيتي

«٢» دبيت في الفارسية معناه بيتان لا الغناء فان « دو » اسم لعدد الاثنين قال شارح القاموس بعد ما تقدم آنفا وقوله دوبيتي بالفارسية ترجمة الاثنين والياء في بيتى للوحدة او للنسبة وهو الذى يعرف في العجم بالمثنوى كانه نسبة الى المثناة هذه

لكن لا مطلقاً، بل يقولون تناية للوجه الثاني من حرث الارض . والأظهر أن أصل المثناة بالثاء لا بالتاء

بقي علينا وجه تأويل آخر وهو أن تكون من (تنأ) أقام . وقد سهلوا الهمزة فصارت (تنا) وجاء منها اسم مكان (المتناة) اي محل الاقامة — ولعمري لنعم محل الاقامة هي — ثم ان العامة حرفتها من التاء الى الثاء . فهذا كل مايخطر لي من جهة هذه اللفظة

ثم اني لما عزمت على الكتابة عن الطائف - وكان بلغني أن في المكتبة التيمورية بمصر بعض تآليف عن الطائف ووج - كتبت إلى ذلك العالم الفاضل الكبير، الذي من اي الجهات اعتبرته فهو أمير، أحمد باشا تيمور قدس الله روحه ونور ضريحه، أرجو منه إذا كانت عنده كتب في هذا الموضوع أن يأمر لي باستنساخها على نفقتي، فكان منه انه لم يمض على رجائي هذا خمسة عشر يوما حتى جاءني منه ٤ تآليف في هذا البحث مصورة بالفوتوغرافية بالمطبعة السلفية الشهيرة، ومجلدة تجليداً مذهبا، وهذه الكتب هي (إهداء اللطائف، من اخبار الطائف) تأليف الشيخ حسن بن الشيخ علي العجيمي المكي الحنفي من علماء أواخر القرن الحادي عشر . و (تحفة اللطائف، في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف) للشيخ محمد جار الله بن عبدالعزيز بن عمر بن محمد الشهير بابن فهد المتوفى سنة ٩٢٢ و (نشر اللطائف، في قطر الطائف) لابن عراق من المتأخرين وهو الشيخ نور الدين علي ابن محمد بن عراق الشامي . و (رسالة في فضائل سيدنا ابن عباس والطائف) للشيخ محمد بن عبد الكريم القنوي الذي كان في أواسط القرن الثاني عشر

وتكرم رحمه الله بارسال بطاقة أنيسة، مع هذه الهدية النفيسة، قابلته عليها بكتاب شكر طائل أودعته ما خطر ببالي من جهة لفظة (المثناة) او (المسناة) فأجابني مستحسنا ما رأيته إلا أنه قال : ان روايات الكتب المؤلفة عن الطائف

متفقة على كونها بالثاء ، فضلا عن تلفظ أهالي الحجاز بها بالثاء أيضا . وقد كان كتاب تيمور باشا هذا من آخر ما خطه قلمه لان المصاب بوفاته رحمه الله وقع بعد تاريخ المكتوب بخمسة عشر يوما

ويمتد وقف الاشراف ذوي زيد من المثناة إلى نفس الطائف بجنان وبساتين منتظمة بلبة وج ، متابعة له إذا استوى أو إذا اعوج ، وهي من انزه ضواحي تلك البلدة وألطفها وإن أشهرها سانية (حوايا) ذات الصهريج الكبير ، والروض النضير ، وبالاختصار كيفما توجه الانسان في الطائف بل في الحجاز كله بين تهائمه ونجوده وبواديه وحواضره يجد الاماكن الشريفة للاشراف . ففي لقيم اشرف الاماكن للاشراف ، وفي وادي لية اشرفها للاشراف ، وفي وادي وج اشرفها للاشراف ، وفي وادي فاطمة الذي بقرب مكة يمتد بساتينه ١٥ ساعة احسن البقاع للاشراف . وهلم جراً

أما ان الطائف هو قطعة من الشام جعلها الله في الحجاز ، وما ورد في ذلك من الآثار والاحاديث المنقولة في التواريخ التي اطلعنا عليها ، وفي غيرها مما لم نطلع عليه ، واطلع عليه الاخ الزركلي ككتاب «عقود اللطائف في محاسن الطائف» للشيخ عبد القادر الفاكهي المكي المتوفى في أواخر القرن العاشر ، وكتاريخ الشيخ احمد بن علي العبدري الميورقي الاندلسي ثم الطائفي الوجي مسكناً المتوفى سنة ٦٧٨ بعد ذهاب وطنه ميورقة بخمسين سنة ، فكل هذا نحن نحمله على المجاز : وذلك اننا إذا قلنا زيد أسد فلا يكون المراد انه هو هذا الحيوان المفترس ، بل انه في شجاعته كالاسد : وإذا قلنا زيد بحر ، فلا يكون المعنى انه هو هذا الماء الكثير المتلاطمة امواجه ، وإنما هو كناية به عن الكرم ، أو العلم ، أو الحلم . وإذا قلنا زيد جبل فما يراد بذلك إلا المتانه ، والرصانه ، والثبات . وإذ نظرنا الى الحديث الشريف « ان من البيان لسحراً ومن الشعر لحكمة » لم يمكننا تأويل ان من

البيان لسحراً الا بالمعنى المجازي كما لايخفى، وذلك بأن من البيان ما يستولي على العقول ويأخذ بالالباب ، لاانه هو من السحر المحرم

وهكذا حديث « إن الطائف قطعة من الشام جعلها الله في الحجاز » أو ماهو بمعناه لاأفهمه إلا على هذا الوجه وهو أن الطائف واراضيها شامية في فواكهها وثمراتها وعذوبة مائها وبرودة هوائها ، ومن هناك لم يبق حاجة لإرخاء بعض المفسرين العنان لتخيلاتهم في كيفية اقتلاع بلاد الطائف من ارض الشام ووضعها في الحجاز .

هذا زائداً الى أن أكثر هذه الاقوال هي آثار وأخبار ليست من الاحاديث المقطوع بها : ونحن نعلم أن الاحاديث المتواترة التي لايتطرق الشك الى صحة تلفظ النبي ﷺ بها هي أحاديث معدودة وأن الاحاديث مهما جاءت على شروط الصحة والثبوت المعروفة عند المحدثين فلا يزال مجال للقول في اسانيدها واسعاً . لان الكلام اذا نقله واحد عن واحد فلا بد أن يتغير فيه شيء بالزيادة أو بالنقصان أو بتغيير لفظة بلفظة مهما كان الناقل قوي الذاكرة :ولقد ثبت أن أكثر الاحاديث مروي بالمعنى :

ولقد ثبت أيضا أن سيدنا عمر رضي الله عنه كره كتابة الاحاديث خوفا من الزيادات عليها واكتفاء بكتاب الله المنزل الذي حفظه الالوف من الصحابة واتفقوا عليه . وقد ثبت أيضا أن جماعة من أكابر الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا يحدثون عن رسول الله ﷺ مع طول صحبتهم له جاء في الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد رواية عن عامر بن عبدالله بن الزبير عن أبيه قال (أي عبدالله بن الزبير) قلت للزبير : مالي لاأسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان قال : اما اني لم أفارقه منذ أسلمت ولكنني سمعت رسول الله ﷺ يقول « من كذب علي فليتبوأ مقعداً من النار » قال وهب بن جرير في

حديثه عن الزبير : والله ماقال « متعمداً » وأنتم تقولون « متعمداً » أي ان بعض المحدثين زادوا لفظة « متعمداً » فانظر إلى هـذا الحديث الشريف على قصره لم يخل من زيادة لفظة(١)

وجاء في الطبقات عن السائب بن يزيد انه صحب سعد بن أبي وقاص من المدينة إلى مكة قال : فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ حديثا حتى رجع ثم جاء عن يحيى بن عباد عن شعبة انهم دخلوا على سعد بن أبي وقاص فسئل عن شيء فاستعجم فقال: اني أخاف أن أحدثكم واحداً فتزيدوا عليه المائة

وجاء في الطبقات الـكبرى لابن سعد عن عمرو بن ميمون قال اختلفت الى عبدالله بن مسعود سنة ماسمعته يحدث فيها عن رسول الله ﷺ ولا يقول فيها : قال رسول الله ﷺ الا انه حدث ذات يوم بحديث فجرى على لسانه : قال رسول الله ﷺ. فعلاه الـكرب حتى رأيت العرق ينحدر عن جبهته ثم قال : ان شاء الله اما فوق ذاك واما قريب من ذاك واما دون ذاك

فهذا شأن عبدالله بن مسعود في الحديث وهو هو أحد العبادلة الاربعة ومن أورع الصحابة وأشدهم ملازمة لرسول الله ﷺ كما لايخفى وذاك كان شأن سعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام في هذا الامر وهما من العشرة المبشرين بالجنة . وذلك كان مشرب الامام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو الذي قيل ان رسول الله قال فيه : « لو كان نبي بعدي لـكان عمر » فكيف ينبغي للناس

---

(١) الحديث متواتر تواترا صحيحا بهذه الزيادة وممن رواها عن الزبير نفسه الامام احمد والبخاري وابو داود والنسائي وابن ماجه فلا عبرة بانكار وهب بن جرير لها عنه فالقاعدة ان من حفظ حجة على من لم يحفظ، ووهب هذا قد تكلم فيه بعض رجال الجرح والتعديل فقال ابن حبان كان يخطيء وأنكر عبد الرحمن بن مهدي والامام احمد مارواه عن شعبة الخ

بعد ذلك أن يستكثروا من الاحاديث وهم يعلمون ماقد يتطرق اليها من زيادات الرواة وما قد نقل منها بالمعنى (١)

قال صاحب « تحفة اللطائف » قال الزهري ان الله عز وجل نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة خليله ابراهيم عليه السلام (وارزق أهله من الثمرات) والله تعالى يقدر أن ينقل إلى الطائف قرية من الشام كما انه يقدر أن يجعل الطائف في خواصها قرية من قرى الشام ، ويرزق أهل ذلك الوادي المقدس ـ مكة ـ من ثمراتها . فاما كون الرسول ﷺ قد ألحق الطائف بمكة والمدينة وحرم لها حرما وقال « لايختلى خلاها ولا يعضد شجرها ، ولا ينفر صيدها » وانه قدس وادي وج ، فان الاحاديث كثيرة في هذا المعنى ، والدليل على صحتها كون الفقهاء أجمعوا على كراهية الصيد في وج ومنهم من قطع بتحريمه ، وربما كان الا كثرون على التحريم البات ، وقيل في كلام الشافعي : أكره صيد وج . انها كراهة تحريم . وعلى كل حال متفق على النهي عن الصيد في وج ، ومختلف في مجرد الكراهة او التحريم كما انه مختلف في أمر الضمان وعدمه مما أفاض في موضوعه أصحاب التواريخ المار ذكرها . ومع كل هذه الاحاديث بقي أناس لا يطمئنون الى روايات النهي عن صيد وج فقد نقل صاحب « تحفة اللطائف » عن الميورقي انه سأل الشيخ محمد بن عمر القسطلاني امام المالكية في وقته : هل رأيت في مذهب مالك مسئلة في صيد وج في الطائف ؟ فقال : لا أعرفها ولا يسعني أن أفتي بتحريم صيدها إلا بالحديث ، ليس فيها من الاحاديث التي يبتني عليها التحريم والتحليل (٢)

« ١ » قد كتب الينا الامير سؤالا في هذه المسألة — رواية الحديث — فاجبنا عن سؤاله في المنار بما نعلم به قصور ما في طبقات ابن سعد وما هو الحق في المسألة فليراجع ذلك من شاء في صفحة ٥٠٧ — ٥١٦ من المجلد التاسع والعشرين

(٢) قال النووي في شرح المهذب : واما حديث صيد « وج » فرواه البيهقي باسناده عن الزبير بن العوام (رض) ان رسول الله ﷺ قال « الا ان صيد وج وعضاهه يعنى شجره حرام » وذلك قبل نزوله الطائف وحصاره ثقيفا لكن اسناده ضعيف قال البخاري في تاريخه لايصح ، ثم ذكر الخلاف في وج هل هو واد بالطائف او بلد

موقع الطائف وهواؤها وماؤها

وأما فضل الطائف في صقعها وجودة مائها وهوائها فهو مما تواطأ عليه المحسوس والمأثور، ولست بمستغرب قول بعض المفسرين لقوله تعالى (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) إن المراد بالقريتين مكة والطائف. وكذلك انا استحلي مارواه صاحب تحفة الطائف من قول بعضهم ان الطائف من تعاليق مكة. أي من مضافاتها. وعندنا في بر الشام إذا بنيت قرية في طرف قرية نسبت اليها، وقيل انها «معلقة» لها فيقال مثلا «معلقة زحلة» و «معلقة الدامور» وهلم جرا. فما أجدر الطائف بان يقال لها «معلقة مكة» ولعمري لنعم المعلقة هي. ولا نزاع انهما في الامصار كالمعلقات السبع في الاشعار. ومن الحديث النبوي المأثور «الطائف من مكة ومكة من الطائف» كررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات

ولقد جاء في بعض الاحاديث التي نقلها الميورقي ورواها العجيمي صاحب «اهداء اللطائف» ان الطائف من مكة ومكة من الطائف، ونقل الميورقي عن سطيح: انه ستكون فتن في آخر الزمان خير الناس في ذلك الزمان من كان بجدارات الطائف إلى عرقوب بجيلة، قال الميورقي انه حديث ضعيف، وقال العجيمي الا انه يشهد له حديث الترمذي عن عمرو بن عوف قال قال رسول صلى الله عليه وسلم «ان الدين ليأرز الى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها» قال في القاموس: والحجاز مكة والمدينة والطائف ومخاليفها كأنها حجزت بين نجد وتهامة انتهى

قلت وزاد صاحب تاج العروس اليمامة فقال انها من الحجاز، وقال في شرح قوله انها حجزت بين نجد وتهامة: أو بين الغور والشام والبادية أو بين الغور ونجد، ثم قال صاحب القاموس: او بين نجد والسراة أو لانها احتجزت بالحرار الخمس، فقال صاحب التاج في شرحها: حرة بني سليم وحرة واقم وحرة ليلى وحرة شوران وحرة النار. وهذا قول الاصمعي

وقال الازهري : سمي حجازاً لان الحرار حجزت بينه وبين عالية نجد قال وقال ابن السكيت : ماارتفع عن بطن الرمة فهو نجد إلى ثنايا ذات عرق ، وما احتزمت به الحرار حرة شوران وعامة منازل بني سليم إلى المدينة فما احتاز في ذلك كله حجاز ، وطرف تهامة من قبل الحجاز مدارج العرج وأولها من قبل نجد مدارج ذات عرق ، وقال الاصمعي : اذا عرضت لك الحرار بنجد فذلك الحجاز وأنشد :

* وفروا بالحجاز ليعجزوني *

أراد بالحجاز الحرار انتهى .

قال العجيمي في تفسير «عرقوب بجيلة» العرقوب ماانحنى من الوادي وطريق في الجبل ، والعراقيب خياشيم الجبال والطريق الضيقة في متونها . وتعرقب أي مسلكها كذا في القاموس انتهى

(قلت) وزاد صاحب التاج ان العرقوب هو الجبل المكلل بالسحاب ، هذا وقد جرت التسمية بالعرقوب كثيراً في بلادنا الشامية ففي جبل لبنان داخل قضاء الشوف ثلاث نواح باسم العرقوب ، وهي العرقوب الجنوبي والعرقوب الشمالي والعرقوب الاعلى ، وهي أودية يخرج من أحدها نبع الباروك ، ومن الآخر نبع الصفا ونبع القاعة ، وهي من أشهر ينابيع الارض في العذوبة لاينابيع لبنان وحده وفي جبل الشيخ ناحية يقال لها أيضاً العرقوب تابعة لقضاء حاصبيا .

وأما عرقوب بجيلة في الحجاز فهو منسوب إلى بجيلة ـ كسفينة ـ وهي قبيلة اختلف في نسبها فقال ابن الكلبي انها حي من اليمن ، وروي عن مصعب بن الزبير أنها من نزار ، وقال صاحب القاموس انها حي في اليمن من معد ، قال الزبيدي في التاج ان صاحب القاموس أراد أن يجمع بين القولين

وقال الامام مالك رضي الله عنه : بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال : لبيت بركبة أحب إلي من عشرة أبيات بالشام . نقل ذلك ابن فهد محمد جار الله بن عبد العزيز صاحب « تحفة اللطائف » وقال ابن وضاح : ركبة موضع بين الطائف ومكة في طريق العراق

قال ابن فهد نقلا عن ابن وضاح : يريد — أي عمر — والله اعلم لطول الاعمار بها وشدة الوباء بالشام، ثم أخذ بعضهم يعترض على هذا التأويل قائلا إن مراد عمر بهذا التفضيل قرب هذا المكان أي ركبة من مكة والمدينة

(قلت) لاوجه لهذا القول لانه إن كان مراد سيدنا عمر رضي الله عنه هو قضية القرب من مكة والمدينة فهذه مزية لم تختص بركبة بل اشتركت بها بقاع لاتعد ولا تحصى ، وكم من مكان أقرب إلى مكة أو إلى المدينة من ركبة هذه التي هي على مسافة يوم ونصف يوم من مكة ، وما أرى عمر قصد إلا طيب الهواء والبعد عن الوباء كما قال ابن وضاح ، فالشام هي مضرب الامثال في جودة الماء والهواء ، ومع هذا فان عمر يرى بقعة مثل ركبة من بقاع الطائف أفضل منه للسكنى . انه لم يقسم لي الذهاب إلى ركبة وانما سمعت من أهل الطائف الشيء الكثير عن طيب نجعتها وبهجة روضها لاسيما في أيام الربيع

وقول ابن وضاح لايخلو من صحة ، فالشام مع كونها مضرب الامثال في طيب الماء والهواء ومع كونها جنة الله في أرضه موصوفة بالوباء من قديم الزمان حتى ان أحد اخواننا المصريين أخذته فيما يظهر الغيرة مما رأى من محاسن دمشق فنبزها بسرعة الوباء اليها من كثرة المياه المتدفقة في كل انحائها فقال ذلك البيت الشهير (١) :

قيل لي صف بردى كوثرها قلت غال بردها برداها

(١) قائله اشهر منه وهو ابن الفارض وهو من أبيات له في تفضيل مصر على الشام نسيها الامير فظن ان البيت لبعض المعاصرين

وقد أبى الله إلا أن يجعل بازاء كل سهل حزنا ، ومع كل سرور حزنا ، وأن لا يدع الكمال نصيب شيء من هذه الدنيا ، فكثرة المياه في القطر الشامي التي هي مصدر رخائه ، ومرجع نضارته وبهائه، هي ايضا سبب وبائه، وشدة بلائه ، فقد تقرر أن الاوبئة تتفشى بالبلاد التي تشرب من الانهار ، اكثر مما تتفشى بالبلاد التي تشرب من الآبار، وذلك لان الميكروب انما ينمو في الماء ، وإذا كان الماء مما يشترك الخلق في وروده كانت العدوى به اكثر كما لا يخفى

واكثر حواضر الشام مبنية على الانهر ، فدمشق على (بردى) وحمص وحماه على (العاصي) وحلب على (قويق) وبعلبك على (رأس العين) وزحلة على (البردوني) وطرابلس على (ابي علي) وصيدا على (الاولي) وهلم جراً ، وقبل ان جر الى بيروت ماء نهر الكلب كانت أقل تعرضا للامراض الوافدة ، فلهذا كانت بلاد الطائف منزهة عن الوباء بسببين (الاول) وفرة الاكسيجين في هواء تلك الجبال العالية (والثاني) قلة المياه الجارية فيها على الضد من جبال الشام ، والمياه هي التي تنقل الجراثيم بواسطتها ، فمن أين تتفشى الاوبئة في ركبة ونواحيها ؟ ومن اين تتكون فيها المستنقعات التي تنشأ عنها الحميات؟ فهذا ماأراده سيدنا عمر بن الخطاب بقوله: لبيت بركبة أحب إلي من عشرة ابيات بالشام

وسبق أن روينا عن الاصمعي — ولم يكن الاصمعي بليداً — قوله: دخلنا الطائف فكأني كنت أبشَّر ، وكأن قلبي ينضح بالسرور ، وما اجد لذلك سبباً الا انفساح حدها ، وطيب نسمتها

ولا أظن أحداً دخل الطائف إلا وشعر بهذا الانشراح في صدره، والانفساح في رئته، ولو كانت الطائف مربوطة بسكة حديدية بجدة لقصدها المصطافون من مصر والشام والهند وسواحل جزيرة العرب

عمران الطائف وتقلصه بعد الحربين

وقد كانت الطائف في ايام الدولة العثمانية معمورة حافلة ، قيل لي انه كان فيها ما يقرب من خمسة عشر ألف نسمة ، فقد كانت إمارة مكة والولاية وقيادة الجيش والاجناد كلها والدوائر الرسمية تنقل الى الطائف وتقيم بها مدة ٦ إشهر وكان بسبب ذلك يزداد توارد الخلق عليها من مكة وغيرها ، وتعمر أسواقها ويكثر الاخذ والعطاء فيها ، وقيل لي انه كان فيها ١٥ طبيبا بين ملكي وعسكري وكان كل مايوجد بمكة يوجد فيها

فبعد الحرب العامة تقلص عمرانها ، وخف قطينها ، حتى عادت كالعرجون القديم ، فلم يبق فيها إلا نحو ألفين الى ثلاثة آلاف ساكن ، وصارت اكثر البيوت خاوية على عروشها . فتداعت من نفسها . ومن البيوت ماعملت فيه القنابر في اثناء حصار العرب للاتراك فيها ، فهذه كانت المرحلة الاولى من مراحل بوارها

وأما المرحلة الثانية فقد كانت في حرب الوهابيين مع الملك حسين فقد زحف اليها سلطان بن بجاد شيخ عتيبة والشريف خالد بن لؤي وحاصراها بجمع كان يعجز عنها لو صادف فيها حامية مستبسلة موطنة نفسها على الكفاح لانها مسوّرة من كل جهاتها ، وقد كانت فيها مدافع وأعتاد كافية للمقاومة . فأوقع الله الوهن في قلب أمراء الحامية التي كانت من قبل الملك حسين ، فانهزموا لا يلوون على شيء . ودخلت عتيبة وأولئك الاعراب الغلاظ الشداد ففتكوا بأهلها فتكة شنيعة ملأت شناعتها الخافقين ، وقتلوا بضع مئات من الاهالي الوادعين ، وانتهبوا البلدة وخربوا ماقدروا على تخريبه

وكان بين القتلى جماعة من العلماء والخواص ، ومنهم وياللاسف المرحوم السيد حسن الشيبي مبعوث الحجاز ونجل الشيخ عبد القادر الشيبي كبير سدنة

بيت الله الحرام . وقد كان رحمه الله زميلي في مجلس المبعوثين في الاستانه وكان من ذوي الشهامة والاخلاق الزكية ، وكانت بيننا مودة أكيدة

فانتهز اعداء الملك ابن سعود في هذه الوقعه الفرصه للطعن فيه وحاولوا ايهام الناس انه كان راضياً عن هذه الفعلة ، وحاشى له من ذلك فانها وقعت بدون ان يعلم بها وقبل أن يكون جاء الى الحجاز ، ولما نمي اليه خبرها بمكانه من نجد ارتمض جدا وأصدر الامر تلو الامر تحت الانذار بالقتل بعدم التعرض لأحد من الاهالي وبالدخول إلى البلد الامين بدون سلاح ، فدخل الوهابيون مكة بدون سلاح ، وطافوا واعتمروا ولم يمسوا أحداً بسوء مما يشهد به كل اهل مكة

فأما فاجعة الطائف فقد سبق فيها السيف العذل ، وبقيت في قلب الملك عبدالعزيز منها حزازات على سلطان بن بجاد لم يثبطه عن عقابه على ما فعله في الطائف سوى حداثة عهده بالاستيلاء على الحجاز ، والتربص ريثما تستتب الاحوال ، فاكتفى الملك بادىء ذي بدء بتضميد جراحات أهل الطائف ومؤاساتهم ، والتعويض عليهم ، ولم يتعرض لسلطان بن بجاد بسوء رعياً لسابق عهده ، حتى فتح هذا على نفسه الباب ، وخرج هو وفيصل الدويش عن طاعة الملك وجاذباه الحبل ، وظنا انهما بقوة عشائرهما - عتيبة ومطير - ينالان منه وطراً ، فحاجزهما الملك مدة شهرين حتى أعيته فيهما الحيلة ، فلما لم يبق من الدواء الا الكي نهد إلى الثوار فمزق شملهم في أقل من ساعتين ، وطرح منهم بالعراء اكثر من ألفي صريع ، وأخذ مقدميهم أسرى وبينهم ابن بجاد والدويش . فكان الذين فتكوا بأهالي الطائف الوادعين هم الذين لقوا هذا النكال الشديد ، فنالوا الجزاء الذي يستحقونه على عملهم بالطائف ، وسُقوا الكاس التي سقوا بمثلها ، ولكنهم سَقوا ببغي وعدوان ، وشربوا بتأديب سلطان وحكم فرقان ، وقيد ابن بجاد بالاصفاد وكفى الله شره

ولكن الدويش بعد أن عالج طبيب الملك جراحه ، فر من الاسر ونكث

وجمع جموعه وجموعا ممن مالؤه على بغيه ، واستأنفوا الثورة ، واضطروا الملك أيده الله أن يزحف اليهم مرة ثانية ، ويصدع شملهم عوداً على بدء . وما زال يضيق عليهم حتى تفرقوا تحت كل نجم ، وجاء الدويش إلى العراق ظانا انه ينجو وانه لايدركه ليل عمله الذي هو مدركه — إلا أن الملك فيصل بن الحسين كان أعقل وأبصر بمصلحة مملكته العراق وبمصلحة العرب من أن يظاهر الخارجين عن طاعة ابن سعود ، لاسيما انهم هم الذين كانوا يوالون على العراق تلك الغارات التي لا نهاية لها . فانتهى الامر بتسليم الانكليز فيصلا الدويش إلى الملك ابن سعود عملا بمعاهدة سابقة في تسليم المجرمين — وصار إلى جانب رفيقه ابن بجاد بحيث لايقدر أحد منهما بعد الآن أن يقلق راحة العرب ولا أن يهرج البلاد ويمرجها ، وكانت هذه الواقعة سبباً في ائتلاف الملكين العاقلين الحكيمين ، اللذين أقر اجتماعهما عيون جميع العرب المخلصين للعروبة ، وفتّ في أعضاد الذين يريدونها دائمة حامية ولو أفضى ذلك الى سقوط العرب

والذي أدى بنا إلى هذا البحث الذي بعد كثيراً عن أصل الموضوع خبر واقعة الطائف هذه التي كانت الضربة الثانية التي قضت على عمرانها ، والتي لو أغفلنا ذكرها وأسبابها لم يكن ذلك منا نصحا بالتاريخ ، ولكننا مسؤولين عن هذا الاغفال

ومن شاء معرفة خطط الطائف وما فيها من حارات وقصور ومساجد وآثار وأنصاب وما حولها من قرى ودساكر وما أشبه ذلك فعليه بكتاب « مارأيت وما سمعت » للخير الزركلي ، فانه قد وعاها بحذافيرها بأحسن أسلوب وأنا لست متعرضا من ذلك إلا لما شاهدته بعيني ، وارتسم في مخيلتي وحك في صدري ، فاني قد سميت كتابي هذا « بالارتسامات اللطاف » وحصرت الكلام فيما رأيته ، وما تجاوزته الا الى الضروري مما رويته .

مسجد ابن عباس بالطائف وقبره وبعض ترجمته

(رضي الله عنه)

أهم أثر في الطائف هو مسجد عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، وهو على طرف البلدة إلى جهة (وج) وليس من بعده إلى وج عمارة

وقد أنزلتني امارة الطائف في دار شاهقة كانت تخص أحد أمراء الاكراد ممن نفي إلى الطائف في أيام السلطان عبدالحميد الثاني العثماني ، وهي لاتبعد عن المسجد العباسي أكثرمن مائة وخمسين ذراعا . وامامهذه الداررباحة كبيرة عمومية تصل الى مدخل المسجد العباسي ، وإلى باب السور الذي بجانبه . وتكثر طبقات الدور بالطائف كما بمكة وكما بالمدينة وكما بجدة ، ، فقد كنت أسكن في الطبقة الرابعة من الدار ، وكثيراً ما كنا نسمر على السطح الاعلى لها ، أنا واخواني فوزي بك القاوقجي والدكتور خيري القباني وغيرهما ، لكننا كثيراً ما كنا نشتمل بالاكسية الثقيلة على ذلك السطح خشية البرد . وكنا نضع كيزان الماء على السطح فلا يمضي على ذلك ساعة حتى ينقلب الماء كانه ثلج مذاب

والمسجد العباسي كبير رحب الفناء قيل لي انه وسع في زمن السلطان عبدالمجيد العثماني فهو يسع ١٥ الف مصل فيما قدرت . ولما أقبل الصيف صرت أرى الناس فيه تزدحم لكثرة الخلق الذين يصعدون إلى الطائف من مكة ، وفي بعض الجمع كان يغص بالناس . وقد كان يؤم فيه قاضي الطائف ، وهو رجل حضرمي من اهل الفضل . وبجانب المسجد قبة فيها قبر حبر الامة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، إلا ان الوهابيين أزالوا القبة وأبقوا القبر ، وذلك بحسب عادتهم في هدم القباب وكراهية زيارتها على الوجه الذي اعتاده كثير من العوام وبعض الخواص

من الاستغاثة والتوسل وتقبيل الحجارة وماشا كل ذلك مما هو خلاف الشرع ، ولا يسمعون فيه لومة لائم (١)

ولما كنت هناك زار الطائف قاضي القضاة بمكة الشيخ عبدالله بن حسن ، وهو من ذرية الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، فرأى بجانب الضريح العباسي خلف الجدار شجرة سدر صغيرة فأمر بقطعها ، خشية أن يتبرك العوام بها . ولا أنكار ان الوهابيين يبالغون في الهدم والقطع والنقض والقلع كما مروا بقبة او مزار أو شجرة تعلق عليها خرق وتقشعر جلودهم من هذه المناظر . ولكني مع اعترافي بغلوهم في هذا الامر لا أراهم حائدين فيه عن سنن الشرع القويم

واني لاروي للقراء قصة جرت معي في تلك الارض وهي اني كنت وجماعة من اخواني نتنزه في الوهط قرية عمرو بن العاص المشهورة ، وهي على نحو ساعة ونصف من الطائف إلى جهة جبل برد ، فرأينا في طريقنا على مقربة من الوهط آثار قرية دارسة يعرف أنها كانت ذات شأن من اتساع جبانتها ، وشاهدنا في الجبانة قبة مهدوما أعلاها قائمة جدرانها ، قيل لنا انها قبة سيدنا عكاشة من

(١) قد صحت الاحاديث النبوية بالنهي عن الصلاة الى القبور وعن تشييدها وتشريفها وبلعن الذين يتخذون قبور الانبياء والصالحين مساجد والذين يضعون عليها السرج وصرح الفقهاء بتحريم ذلك وبوجوب هدم مايبني عليها ، وتسوية القبور المبنية بالارض كما تراه في الزواجر لابن حجر الشافعي ، وفقهاء الحنابلة اشد من غيرهم في هذا ، والوهابيون حنابلة . وذكروا أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) أمر بقلع الشجرة التي بايع النبي صلى الله عليه وسلم اصحابه تحتها بيعة الرضوان وإعفاء اثرها لانه علم ان بعض حديثي العهد بالاسلام يتبركون بها ، فهل يعد الوهابيون غلاة في العمل بما ذكر وقد فشا في الناس عبادة القبور الصالحين كما سيأتي في كلام الامير وهو قليل من كثير ؟

الصحابة رضوان الله عليهم (١)

فقصدنا إلى ذلك المكان فوجدنا مسجداً فيه قبور مشيدة منها ماهو قديم من صدر الاسلام عليه كتابات بالخط الكوفي ، ومنها ماهو من القرن الخامس أو السادس للهجرة . وشاهدنا من هذا الخط كتابات لم ترعيني أجمل منها في البداعة والاتقان ،وتمنيت ان تنقل تلك الخطوط اما بالليتوغرافيا واما بالفوتوغرافيا ولا أزال أحدث نفسي بذلك فيما لو زرت الطائف مرة أخرى

وبينما نحن نتأمل في تلك الآثار إذ أقبل علينا هنديان كانا سائرين على الطريق السلطاني فحادا عنه قاصدين هذا المزار وسألانا هل يجوز ان يصليا في ذلك المكان ؟ فقلنا لهما : ليس لنا ان نعترضهما في صلاتهما ، إلا أننا لانعلم لماذا يفضلان الصلاة في الداخل تحت القبة المهدومة بجانب هذه القبور مع كراهية الصلاة بجانبها على الصلاة في الخارج ، والصلاة هي هى (فأينما تولوا فثم وجه الله)

---

(١) (حاشية للمؤلف) الذي رأيته في تاج العروس عكاشة الغنوي أورده ابن شاهين في الصحابة من طريق حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم عنه وحديثه في سنن النسائي . وعكاشة بن ثور بن أصغر كان عامل النبي (ص) على السكاسك فيما قيل وقال الحافظ هو الغوني بالعين والمثلثة ، وعكاشة بن محصن بن حرثان بن قيس بن مرة الاسدي أحد السابقين كان من أجمل العرب واشجع الصحابة رضي الله تعالى عنهم اه وفي لسان العرب عكاشة (بتشديد الكاف وبخفف) بن محصن الاسدي من الصحابة

وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد : عكاشة بن محصن بن حرثان بن قيس بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة ويكنى ابا محصن شهد بدراً واحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وبعثه رسول الله الى الغمر سرية فى اربعين رجلا فانصرفوا ولم يلقوا كيداً . قال اخبرنا محمد بن عمر قال حدثني عمر بن عثمان الجحشي عن آبائه عن أم قيس بنت محصن قالت توفى رسول الله ﷺ وعكاشة ابن اربع واربعين سنة . وقتل بعد ذلك بسنة ببزاخة في خلافة ابي بكر الصديق سنة اثنتى عشرة وكان عكاشة من أجمل الرجال ثم ذكر ابن سعد كيفية مقتل عكاشة في قتال خالد بن الوليد لاهل الردة اه

فقالا : لانهما رأيا في الداخل محرابا ، فقلنا لهما : نعم إلا أننا لا نعلم وجها شرعيا يجعل للصلاة عند ذلك المحراب فضيلة ليست للصلاة في الصحراء فانصرفا ولم يصليا . ولعلهما رجعا بعد انصرافنا وصليا في داخل المزار لا نعلم (١)

وكيف كان الامر فان كثيراً من العوام أو من الخواص أشباه العوام يحبون الصلاة بجانب القبور ، وهذا مما ينفر منه السلفيون أشد النفور وليسوا في هذا بغالطين

هذا وقد توفي عبد الله بن عباس بالطائف سنة ثمان وستين ، وقيل سنة سبعين وسنه إحدى وسبعون سنة ، وقيل اثنتان وسبعون ، وقيل أكثر . وصلى عليه محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه . ودفن ابن عباس في الطائف بالمكان الذي فيه المسجد اليوم ، ودفن ابن الحنفية في الطائف أيضاً على أصح الاقوال ، وكانت وفاته بعد ابن عباس باثنتي عشرة سنة ، وكانت أم عبد الله بن عباس أم الفضل ابنة الحارث بن حزن بن بجير بن الهرم بن ذريبة بن عبد الله بن عامر وهى التي قيل فيها :

ماولدت نجيبة من فحل بجبل نعلمه أو سهل
كستة من بطن أم الفضل أكرم بها من كهلة وكهل

فان أولادها كانوا باجمعهم أبطالا مجاهدين ، وقيل انه مارؤيت قبور أخوة أشد تباعداً بعضها من بعض من قبور ستة من بني العباس مع كونهم ولدوا في دار واحدة . وذلك ان الفضل استشهد في وقعة اجنادين بفلسطين وقيل بطاعون عمواس ، ومعبد وعبد الرحمن استشهدا بافريقية ، وقيل ان معبداً مات شهيداً

(١) يعلم من هذا ان الصلاة لأجل المزار، لا خالصة لله فهي شرك بالله، وقد صرح بعض فقهاء الحنابلة ببطلان الصلاة في كل مسجد فيه قبر وان لم تكن الصلاة الى القبر او لأجله . لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بناء هذه المساجد ولعن فاعليها وهو يقتضي بطلان الصلاة فيها . واقتضاء النهي للفساد مسالة أصولية معروفة غير خاصة بالحنابلة

بافريقية وعبد الرحمن مات بالشام، وقثم بسمرقند مجاهداً ، ومات عبيد الله باليمن وقيل بالمدينة، وعبدالله مات بالطائف

وكانت فضائل عبد الله بن عباس أكثر من أن تحصى ، وقد ألفت فيها التآليف وأكثر الكتب المؤلفة على الطائف ملأى باخبار عبد الله بن عباس حبر الامة وترجمان القرآن ووالد الخلفاء العظام ، وهو الذي قال فيه أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه : انه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق

وقد روى بعضهم ان النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه « لو كان بعدي نبي مرسل لكان عبد الله بن عباس اللهم فقهه في الدين وانشر منه ، وعلمه التأويل ، وبارك فيه ، انه سيدفن في الطائف فمن زاره فكأنما زار قبري بطيبة » روى هذا الحديث الشيخ عبد الرحمن اليورقي عن احمد بن حاتم الموصلي والاشبه به أن يكون موضوعا واما أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم دعا له بان يفقهه الله في الدين وأن يبارك فيه وأن يعلمه الكتاب والحكمة فهذا معقول

وقد جاء في الصحيح انه صلى الله عليه وسلم ضمه اليه وقال « اللهم علمه الحكمة » (١) وكان عمر ابن عباس لما قبض ابن عمه الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة، وروى السخاوي انه صلى الله عليه وسلم دعا بالحكمة لابن عباس مرتين . وكل ماروى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٠ أحاديث أو أكثر . ومثل ذلك مما شهد فعله (٢) وباقي

« ١ » وصح ايضا انه قال « اللهم علمه الكتاب » وايضا « اللهم فقهه في الدين » كل ذلك في صحيح البخاري

(٢) في ترجمته من تهذيب التهذيب : (فائدة) روي عن غندر ان ابن عباس لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم الا تسعة أحاديث وعن يحيى القطان عشرة . وقال الغزالي في المستصفى : اربعة . وفيه نظر ، ففي الصحيحين عن ابن عباس مما صرح فيه بسماعه من النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من عشرة ، وفيهما مما شهد فعله نحو ذلك ، وفيهما ماله حكم الصريح نحو ذلك فضلا عما ليس في الصحيحين اه

أحاديثه إما مرسل محكوم باتصاله أو غير مرسل(١) عن أبويه وأخيه الفضل وخالته ميمونة وأبي بكر وعمر وعثمان وخلق من الصحابة

وروى الحسن المديني عن سحيم عن حفص عن أبي بكرة قال: قدم علينا ابن عباس البصرة وما في العرب مثله جسماً وعلماً ودينا وجمالا وكمالا. وروى الطبراني وغيره حديثا معناه ان أم الفضل ابنة الحارث زوجة العباس لما وضعت عبد الله بن عباس أتت به النبي ﷺ فأذّن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، وسماه عبد الله ثم قال «اذهبي بأبي الخلفاء» ويجوز أن يكون هذا الحديث «اذهبي بأبي الخلفاء» صحيحا وأن يكون الرسول كوشف بذلك كما انه يجوز أن يكون مما وضع في زمن الخلفاء بني العباس تزلفا اليهم

ومثله ما رواه ابن فهد نقلا عن تاريخ دمشق وهو حديث مرفوع صرح ابن فهد نفسه انه ركيك اللفظ واهٍ وهو «هبط علي جبريل عليه السلام وعليه قباء اسود وعمامة سوداء فقلت ماهذه الصورة التي لم أرك هبطت علي فيها قط؟ قال هذه صورة الملوك من ولد العباس عمك رضي الله تعالى عنه. قلت وهم على حق؟ قال جبريل نعم. فقال النبي ﷺ اللهم اغفر للعباس وولده حيث كانوا وأين كانوا. قال جبريل: ليأتين على أمتك زمان يعز الله عز وجل الاسلام بهذا السواد. فقلت رئاستهم ممن؟ قال من ولد العباس. قلت ومن أتباعهم؟ قال من أهل خراسان، قلت وأي شيء يملكون؟ قال الاصفر والاخضر والحجر والمدر والسرير والمنبر والدنيا إلى المحشر، والملك إلى المنشر» اه والوضع ظاهر كالشمس في هذا الحديث، ومن عادة بعض الناس التزلف إلى الملوك والخلفاء بأقاويل

«١» كذا - والحديث المرسل من سقط من آخر سنده من بعد التابعي وهو الصحابي الذي سمع من النبي ﷺ او حضر او شاهد ما يرفعه اليه كقول التابعي قال رسول الله ﷺ كذا، ويطلق على ما رواه الصحابي مما لم يسمعه ولم يحضره

كهذه هي داخلة في حكم قوله ﷺ « من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار »
وقد يكون بعضهم ممن يستضعف الحديث ولا يثق باسناده لكنه يرويه عملا بحسن
الظن بزعمه او اعتقاداً للمصلحة فيه . وهذا من اكبر الخطأ ولاسيما ان كان من
هذا الباب ، والحق غير محتاج إلى دعامة من الباطل . ولقد انتهى ملك بني العباس
ولم يبق إلى المحشر ، كما انتهى ملك بني عثمان في أيامنا هذه وذهب معها كل ما قيل
في خلود ملكهم سدى

ومن جملة ذلك رسالة للسيد محمود الحمزاوي مفتي الشام رحمه الله اسمها
« البرهان على بقاء ملك بني عثمان الى آخر الزمان » لم أعجب الا من صدورها
عن رجل مثله في سعة علمه وعقله .

وقد روى الحافظ بن الابار القضاعي البلنسي في « التكملة لكتاب الصلة »
ان حيوة بن ملامس الحضرمي من اشراف إشبيلية كانت له منزلة لطيفة من
عبد الرحمن بن معاوية (الداخل إلى الاندلس) وروى عن حنش الصنعاني يرفعه
ان ملك بني أمية لا يزال الى خروج الدجال ، ولما رواه لعبد الرحمن بن معاوية
أقطعه قطيعة معروفة . انتهى وهذا أيضا من الباب المتقدم

وكان ابن عباس أبيض طويلا وسيما جسيما مشربا بصفرة صبيح الوجه له
وفرة يخضب بالحناء ، وكان يعتم بعمامة سوداء يرخيها شبراً . ولعل الخلفاء العباسيين
اتخذوا السواد شعاراً من أجل عمامة جدهم هذه

وقد روى ابن فهد في « تحفة اللطائف » انهم كانوا باقين على لبس السواد
الى عهده ، وقد كانت وفاته سنة ٩٢٣ وكذلك الخطباء في الحرمين الشريفين
وغيرهما من بعض البلدان المعظمة. قال ابن فهد:

« وان معتمدهم في ذلك كونه ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة
سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه. وخطب بها الخلفاء كذلك، لكونه ﷺ كان

في ذلك اليوم منصوراً على الكفار، فاتخذوه شعاراً ليكونوا دائما منصورين على أعدائهم. وسأل الرشيد الاوزاعي رحمهما الله تعالى عن لبس السواد فقال: اني لا أحرمه ولكن أكرهه قل: ولم؟ قل: لانه لا تجلى فيه عروس، ولا يلبي به محرم، ولا يكفن فيه ميت. فالتفت الرشيد إلى أبي نواس فقال: فما تقول أنت في السواد؟ فقال: النور في السواد يا أمير المؤمنين. ثم قال: وفضيلة أخرى يا أمير المؤمنين لا يكتب كل من كتاب الله عز وجل وحديث النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال العلماء رحمهم الله تعالى الا به، وهو مضاف إلى الخلافة. فلما سمع الرشيد هذا الوصف في السواد اهتز طربا وأمر له بجائزة سنية» انتهى

قلت نسبة هذه الرواية للرشيد خطأ محض. وكنا نقول انها سهو ناسخ تبدل لفظة الرشيد بالمنصور لولا مجيء قصة أبي نواس من بعدها. ووجه الخطأ ان الامام الاوزاعي رضي الله عنه توفي يوم الاحد أول النهار لليلتين من صفر سنة سبع وخمسين ومائة هذا الذي عليه الجمهور رواه العباس بن الوليد العذري قاضي بيروت المتوفى سنة ٢٧٠ قال عنه ياقوت في معجم البلدان انه كان من خيار عباد الله

وقد نقل هذه الرواية عن وفاة الاوزاعي زين الدين بن تقي بن عبد الرحمن الخطيب في كتابه «محاسن المساعي في مناقب الامام ابي عمرو الاوزاعي» وهو مخطوط اطلعت عليه أخيراً في المكتبة الملوكية في برلين وعلمت منه ان مؤلفه اكمله سنة ١٠٤٨ وهو لا يقول « في مناقب الامام ابي عمرو الاوزعي » بل «في مناقب الامام أبا عمرو الاوزاعي » لا أعلم اهو من خطأ الناسخ أم من نفس المؤلف عملا بلغة * إن أباها وأبا أباها*؟ وقل ابن خلكان عن وفاة الاوزاعي: وتوفى سنة سبع وخمسين ومائة، لليلتين بقيتا من صفر، وقيل في شهر ربيع الاول بمدينة بيروت. أما الرشيد فقد كانت ولادته سنة ١٤٨ أي إنه يوم وفاة الاوزاعي،

كان قاصراً . واستخلف الرشيدسنة ١٧٠ . فالخليفة الذى سأل الامام الاوزاعي عن السواد هو المنصور لا الرشيد لأن الاوزاعي جرى بينه وبين المنصور حديث طويل. ولما قدم ابو جعفر المنصور الشام زاره الاوزاعي ووعظه ، فعظمه الخليفة وأحبه . ولما أراد الانصراف من بين يديه استأذنه أن لا يلبس السواد فأذن له ، فلما خرج قال المنصور للربيع الحاجب : الحقه فاسأله . لم كره لبس السواد ولا تعلمه إني قلت لك . فسأله الربيع فقال: لأني لم أر محرما أحرم فيه ولا ميتاً كفن فيه ولا عروساً جليت فيه ، فلهذا أكرهه

أما أبو نواس فيجوز أن يكون قال الرشيد هذا وأكثر منه لكن بدون أن يكون الاوزاعي حاضراً . وكيف كان الامر ؟ فكان السواد شعار العباسيين وكان يقال لهم المسودة . وكان الخلفاء العباسيون يخلعون حلل السواد على من ينتسب اليهم أو ينال الحظوة عندهم جاء في «تاريخ الاعيان في جبل لبنان» للشيخ طنوس الشدياق والمعلم بطرس البستاني انه لما وقع القتال على نهر بيروت بين المردة والامير النعمان بن الامير عامر بن الامير هاني بن ارسلان وهزم الامير النعمان المردة وقتل بعضاً وأسر بعضاً وكتب الى موسى بن بغا في بغداد يخبره وأرسل الرءوس والاسرى الى بغداد عرض ذلك موسى للخليفة المتوكل فكتب اليه المتوكل كتاباً يمدح شجاعته ويحرضه على القتال وأقره على ولايته تقريراً له ولذريته وأرسل له سيفاً ومنطقة وشاشاً أسود وكتب اليه أخوه الموفق وغيره كتباً يمدحونه بها وأعاد رسله مكرمين فتقلد الامير السيف وشد المنطقة ولف الشاش ودعا لامير المؤمنين وزينت البلاد »الخ وهذه الرواية محررة لكن باختصار في سجل نسبنا الارسلاني

والخلاصة أن بني العباس أرادوا أن يتميزوا بشعار فجعلوه السواد اقتداء بجدهم عبد الله بن عباس الذي اقتدى بابن عمه (ص) في اعتمامه بالسواد يوم فتح مكة

ومناقب عبدالله بن عباس كثيرة ، وأقواله مأثورة ،ومما ينسب اليه: مذاكرة العلم ساعة خير من احياء ليلة . ويروي عن سعد بن أبي وقاص انه قال: رأيت ما أحداً أحضر فهماً ،ولا ألبّ لباً ،ولا أكثر علما،ولا أوسع حلماً من ابن عباس ولقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات ، فيقول: قد جاءتك معضلة، ثم لا يجاوز قوله وان حوله لأهل بدر . وقيل أن بعضهم وجدوا على عمر في ادنائه ابن عباس دونهم فقال لهم :انه يعظمه لعلمه مع صغر سنه . وكان عمر يستشيره إذا أهمته الامور ويقول : غواص . وأوصاه أبوه العباس أن يحسن صحبة عمر فقال له : يابنى إن أمير المؤمنين يدعوك ويقربك ويستشيرك ، فاحفظ عني ثلاثاً : لايجربن عليك كذبا ، ولا تفشين له سراً ، ولا تغتابن عنده أحداً .

وقالوا انه أورد رجل ذكر القراء أمام عمر فقال ابن عباس : ما أحب أن يتسارعوا (١) في القرآن . فساءه قوله عمر قل ابن عباس : فانطلقت الى منزلي فقلت ما أراني إلا سقطت من نفسه ، فبينا أنا كذلك جاءني رجل فقال : أجب أمير المؤمنين . فذهبت فأخذ بيدي ثم خلا بي فقال : ما كرهت مما قال الرجل؟ فقلت يا أمير المؤمنين إن كنت اسأت فأستغفر الله . قال : لتحدثني . قلت . انهم متى سارعوا (٢) اختلفوا ومتى اختلفوا اقتتلوا . فقال لله أبوك لقد كنت اكتمها للناس . وعن ابن مسعود انه قال. إن هذا الغلام يعني عبدالله بن عباس لو أدرك ما أدركناه ماتعلقنا معه بشيء. وسأل أحدهم ابن عمر عن شيء فقال . سل ابن عباس فانه أعلم من بقي بما أنزل على محمد ﷺ

وعن معاوية : ابن عباس أفقه من مات ومن عاش. وعن عبيد الله بن عبدالله ابن عتبة بن مسعود :ما رأيت أحداً اعلم من ابن عباس بما سبقه من حديث رسول

«١» وفي رواية : ان يتنازعوا «٢» وفي الرواية الاخرى : تنازعوا

الله ﷺ وبقضاء ابي بكر وعمر وعثمان ، ولا أفقه ولا اعلم بتفسير القرآن والعربية والشعر والحساب والفرائض . وكان يجلس يوما للتأويل ، ويوما للفقه ويوما للمغازي ، ويوما لأيام العرب . وما رأيت قط عالما جلس اليه إلا خضع له ولا سائلا يسأله الا اخذ عنه علما

وقال عمرو بن دينار : ما رأيت مجلسا اجمع لكل خير من مجلس ابن عباس: الحلال والحرام والعربية والانساب . وعن عطاء : ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس، اكثر فقهاً وأعظم خشية، ان اصحاب الفقه عنده وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر عنده يصدرهم كلهم من واد واسع. وعن طاوس : ادركت خمسين أو سبعين من الصحابة إذا سئلوا عن شيء فخالفوا ابن عباس لا يقومون حتى يقولوا هو كما قلت . وسمع احدهم ابن عباس يخطب ويفسر فقال : لو سمعته الروم وفارس لأسلمت

ولو شئنا استقصاء مناقبه لطال المقال جداً لاسيما ان كتابنا هو رحلة إلى الحجاز لا ترجمة لابن عباس رضي الله عنه. وإنما اوردنا ماوردنا منها لان التراجم الزكية هي خير ما يطرف به الكاتب القراء ، ولا سيما القراء الناشئين الذين قد يقتدون بما بها من الفضائل ويتعلمون مكارم الاخلاق ومعالي الامور، ونعم التاريخ الذي يزكي النفوس ويشحذ الالباب

وكان ابن عباس عاملا لعلي رضي الله عنهما على البصرة وشهد معه صفين ، فلما استشهد أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه استخلف ابن عباس على البصرة عبد الله بن الحارث النوفلي ولحق بالحجاز، ولما دعا عبد الله بن الزبير الناس إلى مبايعته بالخلافة أبى عبد الله بن عباس أن يبايعه فصعد الى الطائف ، ولم تزل الطائف لاهل الحجاز متنفسا ، ومات فيها، وقال محمد بن الحنفية عند موته: مات اليوم رباني هذه الامة

وقد دفن محمد بن الحنفية في المكان الذي دفن فيه ابن عم ابيه اي ابن عباس

ودفن آخرون من الاعيان والصلحاء والامراء. ومن هؤلاء الامير جعفر بن سعيد ابن سعد بن زيد بن محسن تولى إمارة مكة سنة ١١٧٢ ثم نزل عنها لاخيه مساعد ومات بالطائف سنة ١١٧٨ ثم الامير عبد الله بن محمد بن عبد المعين بن عون ولي إمارة مكة بعد وفاة ابيه محمد بن عون اول أمير عليها من ذوي عون وبقي فيها نحو ٢٠ سنة وكانت وفاته بالطائف سنة ١٢٩٤ ثم الامير عون الرفيق ابن محمد بن عبد المعين بن عون أخو الامير عبد الله ولي الامارة سنة ١٢٩٩ وبقي فيها إلى ان توفى بالطائف سنة ١٣٢٣ وله قصر بديع ، اتم الطاق الاول منه وبقي بدون نجارة ولا يزال قائما من شدة متانته وهو مشرف على السهل الافيح الممتد منه إلى الثكنة العسكرية

ونزل بالطائف رهط من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم عروة بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف كان حين حاصرهم الرسول - على ماسيأتي خبره - غائبا بجُرَش يتعلم عمل الدبابات والمنجنيق فلما قدم الطائف بعد انصراف الرسول صلى الله عليه وسلم عنها قذف الله في قلبه الاسلام ، فقدم على الرسول بالمدينة فأسلم واستاذنه في الرجوع إلى قومه ليدعوهم إلى الاسلام فقال صلى الله عليه وسلم له « انهم إذاً قاتلوك » فقال لو وجدوني نائما ما أيقظوني ، فلما رجع إلى الطائف اتته ثقيف تسلم عليه بتحية الجاهلية فأنكرها عليهم وقال لهم عليكم بتحية اهل الجنة ، فنالوا منه ، فحلم عنهم وخرجوا من عنده وجعلوا يأتمرون به ، وطلع الفجر فأذن بالصلاة فخرجت اليه ثقيف من كل ناحية فرماه أوس بن عوف من بني مالك فاصاب اكحله فقام غيلان بن سلمة وكنانة بن عبد ياليل والحكم بن عمرو وغيرهم وقالوا نموت عن آخرنا او نثأر به عشرة من بني مالك ، فلما رأى عروة ما يصنعون قال لا تقتلوا في ، قد تصدقت بدمي على صاحبه لأصلح بذلك بينكم ، فهي كرامة اكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلي ، وأشهد ان محمداً رسول

الله لقد اخبرني انكم تقتلوني ، ثم دعا رهطه فقال إذا مت ادفنوني مع الشهداء الذين قتلوا في حصار الرسول للطائف فدفنوه معهم و بلغ الرسول ﷺ خبر قتله فقال «مثل عروة مثل صاحب ياسين دعا قومه الى الله فقتلوه »

ومنهم ابو مليح بن عروة بن مسعود وقارب بن الاسود بن مسعود أسلما ولحقا برسول الله بالمدينة . ولما وفدت ثقيف على الرسول ﷺ وأسلمت عادا إلى الطائف . وقال ابو مليح للرسول ﷺ ان أبي مات وعليه دين مائتا مثقال ذهب فان رأيت أن تقضيه من حلي الربة أي اللات فعلت، فقال الرسول ﷺ « نعم » فقال قارب بن الاسود : وعن الاسود بن مسعود أبي، فانه ترك دينا مثل دين عروة فاقضه عنه من مال الطاغية. فقال الرسول ﷺ « ان الاسود مات كافراً » فقال قارب : تصل به قرابة ، إنما الدين علي وأنا مطلوب به، فقضى الرسول عنه دينه من مال الطاغية .

ومنهم الحكم بن عمرو أسلم في وفد ثقيف على الرسول ، ومنهم غيلان بن سلمة وكان شاعراً ، وفد على كسرى فسأله أن يبني له حصنا بالطائف فبنى له ولما جاء الاسلام أسلم ، وكان عنده عشر نسوة فقال له الرسول « اختر منهن أربعا » فاختار أربعا وطلق الباقيات

ومنهم شُرحبيل بن غيلان وكان في وفد ثقيف على رسول الله، ومنهم عبد يا ليل ابن عمرو وكان رئيس الوفد ، ومنهم كنانة بن عبد ياليل وأسلم يومئذ ، ومنهم الحارث بن كلدة طبيب العرب، وكان الرسول ﷺ يأمر من به علة أن يأتيه، ومنهم نافع بن الحارث بن كلدة وهو أبو عبدالله الذي انتقل إلى البصرة، ومنهم العلاء ابن جارية بن عبدالله بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن ثقيف ، ومنهم عثمان بن أبي العـاص بن بشر بن عبد دهمان بن عبدالله بن همام ابن ابان بن يسار بن مالك بن حطيط بن جشم بن ثقيف ، قدم مع وفد ثقيف

على رسول الله بالمدينة وكان أصغرهم سناً فكانوا يخلفونه على رحالهم يتعاهدها لهم ، فاذا رجعوا من عند رسول الله وناموا وكانت الهاجرة أتى عثمان رسول الله فأسلم قبلهم سراً منهم ، وكتمهم ذلك ، وكان يسأل رسول الله ﷺ عن الدين ويستقرئه القرآن ، وكان إذا وجد رسول الله نائماً عمد إلى أبي بكر فسأله واستقرأه فأعجب به رسول الله وأحبه، فلما أسلم الوفد وكتب لهم الرسول ﷺ الكتاب الذي قاضاهم عليه وأرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا : يارسول الله أمر علينا رجلا منا . فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص وهو أصغرهم لما رأى من حرصه على الاسلام . قال عثمان بن أبي العاص : استعملني رسول الله ﷺ على الطائف فكان آخر ماعهد إلي رسول الله ﷺ أن قال « خفف عن الناس الصلاة » ولما قبض رسول الله ﷺ كان عامله على الطائف عثمان بن ابي العاص فبقي عليها إلى خلافة عمر ، فاحتاج عمر إلى عامل يستعمله على البحرين فسموا له عثمان بن أبي العاص فقال : ذاك أمير أمره رسول الله ﷺ على الطائف فلا أعزله قالوا له : ياأمير المؤمنين تأمره يستخلف على عمله من أحب وتستعين به فكأنك لم تعزله فقال أما هذا فنعم . فكتب اليه ان خلف على عملك من أحببت وأقدم علي فخلف أخاه الحكم بن ابي العاص على الطائف وقدم على عمر فولاه البحرين

قال محمد بن سعد في الطبقات فلما عزل عن البحرين نزل البصرة هو وأهل بيته وشرفوا بها والموضع الذي بالبصرة يقال له شط عثمان اليه ينسب . وكان الحكم بن عثمان ممن صحب النبي ﷺ أيضاً

وممن أسلم مع وفد ثقيف أوس بن عوج أحد بني مالك الذي رمى عروة بن مسعود حسبما تقدم القول وكان خائفا من أبي مليح بن عروة وقارب بن الاسود فشكا ذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه فنهاهما ابو بكر عنه وقال لهما ألستما مسلمين؟ قالا بلى، قال فتأخذان بذحول الشرك(١) وهذا رجل قدم يريد الاسلام وله ذمة

«١» الذحول بالذال المعجمة والحاء المهملة جمع ذحل وهو الثأر

وأمان ولو قد أسلم صار دمه عليكما حراما ثم قارب بينهم حتى تصافحوا وكفوا عنه .

ومنهم أوس بن حذيفة الثقفي وكان ممن أسلم في وفد ثقيف قال خرجنا من الطائف سبعين رجلا من الاحلاف وبنى مالك فنزل الاحلافيون على المغيرة بن شعبة وأنزلنا رسول الله ﷺ في قبة له بين مسكنه وبين المسجد

ومنهم أوس بن أوس الثقفي ومما روى عنه حفيد له انه أومأ اليه وهو في الصلاة ان ناولني نعلي فناولته نعليه فصلى فيهما وقال رأيت رسول الله ﷺ يصلي في نعليه

ومنهم الحارث بن عبد الله بن أوس الثقفي ويروى عنه انه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من حج أو اعتمر فليكن آخر عهده بالبيت »

ومنهم الحارث بن اويس الثقفى وقد صحب وروى

ومنهم الشريد بن سويد ، ومما حدث به ان النبي ﷺ قال « جار الدار أحق بالدار من غيره » وقد استنشده الرسول من شعر أميـة بن أبي الصلت وجعل يقول « إن كاد ليسلم » مات الشريد في خلافة يزيد بن معاوية .

ومنهم نمير بن خرشة الثقفي كان في وفد ثقيف إلى المدينـة .

ومنهم سفيان بن عبد الله وكان فيهم أيضا وولى سفيان الطائف ،

ومنهم الحكم بن سفيان ، ومنهم ابو زهير بن معاذ الثقفي ، ومنهم كردم بن سفيان جاء الى الرسول ﷺ فقال له إني نذرت ان أنحر عشرة أبعرة لي ببوانة (١)

---

(١) حاشية للمؤلف : بوانة ، بضم اوله كثمامة- هضبة وراء ينبع- ويفتح . وايضاً ماءة لبني جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بالقرب من مكة ، وايضاً ماء لبني عقيل ، وانشد الجوهري

لقد لقيت شول بجنبي بوانة نصياً كاعراف الكوادن اسحما

وقال وضاح اليمن :

ايا نخلتي وادى بوانة حبذا اذا نام حراس النخيل جناكما

فقال رسول الله ﷺ « نذرت ذلك وفي نفسك شي من أمر الجاهلية ؟ » قال لا والله ، قال « فانطلق فانحرها »

ومنهم وهب بن خويلد الثقفي أسلم وصحب ومات على عهد الرسول ﷺ ، ومنهم وهب بن أمية بن ابي الصلت الثقفي الشاعر وأسلم وهب وصحب ، ومنهم ابو محجن بن عمرو بن عمير الثقفي وكان شاعراً . ومنهم الحكم بن حزن الكلفي من بني كلفة بن عوف بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن روى عنه محمد بن سعد في الطبقات انه وفد على رسول الله ﷺ سابع سبعة او تاسع تسعة وشهد معه الجمعة فقام الرسول ﷺ متوكئا على قوس او على عصا فحمد الله وأثنى عليه كلمات خفيفات طيبات مباركات ثم قال « أيها الناس انكم لن تطيقوا ولن تفعلوا كل ما أمرتكم فسددوا وابشروا »

ومنهم زفر بن حرثان بن الحارث من هوازن ايضا وفد وأسلم ، ومنهم مضرس بن خفاجة بن النابغة من هوازن أيضاً وفد وأسلم وشهد حنيناً وذكره العباس بن مرداس في شعره ، ومنهم يزيد بن الاسود من بني سواة روي انه صلى مع النبي ﷺ الفجر في مسجد منى في حجة الوداع فلما قضى الصلاة التفت فاذا هو برجلين لم يصليا فقال « ائتوني بهما » فأتي بهما ترعد فرائصهما فقال « ما منعكما أن تصليا معنا ؟ » قالا : يا رسول الله صلينا في رحالنا ، قال « فاذا جئتم والامام يصلي فصلوا معه فانها لكم نافلة » وكان يزيد شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم وصحب . ومنهم عبيد الله بن معية من بني سواة . ومنهم أبو رزين العقيلي واسمه لقيط بن عامر بن المشفق ، قيل انه أتى الرسول ﷺ فقال له يا رسول الله ان أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن فقال « حج عن أبيك واعتمر »

***

وروى ابن سعد في الطبقات انه كان بالطائف بعد هؤلاء من الفقهاء والمحدثين

عمرو بن الشريد بن سويد الثقفي وعاصم بن سفيان الثقفي، وابوهندية الذي روى عنه سعيد بن المسيب، وعمرو بن أوس الثقفي، وعبدالرحمن بن عبدالله بن عثمان ابن عبدالله من ثقيف وامه أم الحكم بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية وخاله معاوية . وكان جده عثمان بن عبدالله حامل لواء المشركين يوم حنين فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال رسول الله « أبعده الله انه كان يبغض قريشا » وقد ولى عبدالرحمن بن عبدالله الكوفة ومصر . قال محمد بن سعد: وولده اليوم يسكنون دمشق (محمد بن سعد كان في القرن الثالث)

ومنهم وكيع بن عدس (بضمتين) ويعلى بن عطاء أقام بواسط في آخر سلطنة بني أمية وعبدالله بن يزيد، وبشر بن عاصم الثقفي، وابراهيم بن مسيرة وعطيف ابن أبي سفيان ،وعبيد بن سعد، ومحمد بن أبي سويد وسعيد بن السائب وعبدالله ابن عبدالرحمن بن يعلى بن كعب الثقفي ويونس بن الحارث الطائفي ومحمد بن عبدالله بن أفلح الطائفي ومحمد بن أبي سعيد الثقفي ومحمد بن مسلم بن سوسن الطائفي ويحيى بن سليم الطائفي وكان قد نزل مكة

*
* *

وأما شهداء الصحابة في الطائف عام ثمانية للهجرة فهم سعيد بن سعيد بن العاص الاموي . وعرفطة بن عبدالله بن أمية ، والسائب بن الحارث بن قيس القرشي أحد المهاجرين الى الحبشة . وعبدالله بن الحارث بن قيس أخو السائب ومثله في المهاجرة إلى الحبشة . وطلحة بن عبدالله بن ربيعة وثابت بن الجزع الخزرجي من الانصار والمنذر بن عبدالله الخزرجي الانصاري، ورقيم الانصاري وعبدالله بن عامر بن ربيعة ورجل من بني الليث وألحق بعضهم بهم عبدالله بن أبي بكر الصديق لانه كان جرح في غزاة الطائف واندمل جرحه عدة ثم انتكس ومات

ومن أشهر المولودين في الطائف زياد بن عبيد المعروف بزياد بن أبيه لاختلاف المؤرخين في نسبه وهو الذي استلحقه معاوية بن أبي سفيان وأمه سُمية جارية الحارث بن كلدة. كان كاتبا لابي موسى الاشعري، وكانت ولادته سنة الهجرة وقال في الطبقات الكبرى: عام الفتح، ولي البصرة لمعاوية حين دعاه وضم اليه الكوفة فكان يشتو بالبصرة ويصيف بالكوفة، ويولي على الكوفة إذا خرج منها عمرو ابن حريث، ويولى على البصرة إذا خرج منها سمرة بن جندب، ولم يكن زياد من القراء ولا الفقهاء الا انه كان معروفا. ثم ذكر صاحب الطبقات ان عائشة أم المؤمنين كتبت اليه كتابا خاطبته فيه بزياد بن أبي سفيان، ومات بالكوفة وهو عامل عليها لمعاوية. وكان زياد بلا مراء من أعاظم الرجال. قال الشعبي: ما رأيت أحداً أخصب ناديا ولا أكرم مجلسا ولا أشبه سراً بعلانية من زياد

وقال الاصمعي: أول من ضرب الدنانير والدراهم ونقش عليها اسم الله ومحا عنها اسم الروم ونقوشهم زياد. وقال العتبي: ان زياداً أول من ابتدع ترك السلام على القادم بحضرة السلطان، وقالوا انه أول من عرف العرفاء ورتب النقباء ومشى الاعوان بين يديه ووضع الكرسي وربع الارباع وخمس الاخماس في الكوفة والبصرة.

ونقل الخير الزركلي عن ابن حزم مايلي: امتنع زياد وهو قفعة القاع (القفعة بفتح أوله القفة من خوص وقد يكون أعلاها ضيقا وأسفلها واسعا وفي لبنان يصغرونها ويقولون قفوعة، واما القاع فالارض المطمئنة، والمقصود بذلك انه ليس بشيء في نسبه وحسبه) لاعشيرة له ولا نسب ولا سابقة ولا قدم فما أطاقه معاوية إلا بالمداراة حتى أرضاه وولاه

وقال الاصمعي: الدهاة أربعة، معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة بن شعبة للمعضلة، وزياد لكل كبيرة وصغيرة. قلت فضل زياد في المكانة

التي حازها أعظم من فضل جميعهم لان معاوية أموي وعمرو بن العاص سهمي والمغيرة ثقفي فاما زياد فهو ابن سمية ... وانما* نفس عصام سودّت عصاما*

ومن أشهر المولودين بديار الطائف الحجاج بن يوسف الثقفي الذي صار اسمه رمزاً للظلم وسفك الدماء ، فاذا قيل سفاك دماء قيل حجاج ، قيل انه قتل أكثر من مائة ألف صبراً ، وسمعوه يقول عند الموت: رب اغفر لي فان الناس يزعمون انك لا تغفر لي .

قال الذهبي في كتاب دول الاسلام: انه كان شجاعا مهيبا جباراً عنيداً ، ومخازيه كثيرة إلا انه كان عالما فصيحا مفوها مجوداً للقرآن . وقال انه قتل الامام المفسر سعيد بن جبير ظلما . فما امهله الله بعده فهلك في رمضان سنة خمس وتسعين وله ثلاث وخمسون سنة . وقرأت في محل آخر انه عاش خمسا وخمسين سنة ، وقال ابن خلكان انه كان عمره ثلاثا وخمسين ، وقيل اربعا وخمسين وهو الاصح . وروى ابن خلكان انه كان ينشد في مرض موته هذين البيتين لعبيد بن سفيان العكلي

يارب قد حلف الأعداء واجتهدوا ايمانهم انني من ساكني النار
أيحلفون على عمياء ويحهم ماظنهم بعظيم العفو غفار

قلت ان الناس غير مخطئين فيما يذهبون اليه من أمر الحجاج، فكما ان الله عظيم العفو فهو عظيم العدل أيضا سبحانه وتعالى ، إن لم يعاقب مثل الحجاج على ماسفك من دماء الابرياء فمن يستحق العقوبة اذا ؟

وقال ابن خلكان عن مرضه : إن الله سلط عليه الزمهرير فكانت الكوانين تجعل تحته مملوءة ناراً وتدنى منه حتى تحرق جلده وهو لايحس بها ، وشكا مايجده إلى الحسن البصري فقال له : قد كنت نهيتك أن تتعرض إلى الصالحين فلججت ، فقال له : ياحسن لاأسألك ان تسأل الله ان يفرج عني ولكن اسألك

ان تسأله يعجل قبض روحي ولا يطيل عذابي . ولما جاءموت الحجاج إلى الحسن البصري سجد لله تعالى شكراً وقال اللهم انك قد أمته فامت عنا سنته . وكانت وفاته بمدينة واسط ودفن بها وعفي قبره وأجري عليه الماء

قلت ليس الحجاج مسؤولا فيما أتاه من الموبقات وقتل من قتل من عباد أكثر من عبدالملك بن مروان الذي استعمله وأملى له . وكان ولاه العراق وخراسان ، وولاه قبل ذلك الحجاز ، وكانت له امرة بدمشق ولا يزال فيها بناء اسمه قصر حجاج أظنه منسوبا له ، ولما توفى عبد الملك وتولى الوليد أبقاه في عمله فكأنه أعجب بني أمية

وقال ابن خلكان : وكان للحجاج في القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم يسمع بمثلها ويقال ان زياد بن أبيه — او ابن سمية او ابن ابي سفيان — أراد ان يتشبه بامير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ضبط الامور والحزم والصرامة واقامة السياسات إلا انه أسرف وتجاوز الحد ، واراد الحجاج ان يتشبه بزياد فاهلك ودمر ، وكان الحجاج يخبر عن نفسه ان أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لايقدم عليها غيره ، ومن كان كذلك فكيف يوليه الخلفاء الولايات الكبرى ويطلقون فيها يده ؟ نعم ان الضبط والربط والحزامة من الامور التي تصلح للولاة ، بل من الامور التي لايصلح الولاة إلا بها ، لكن على شرط ان لايخرج ذلك بالولاة إلى الاسراف والاعتداء وتجاوز حدود الله ، فان العدل هو الحد الوحيد الذي لايجوز التأخر عنه ولا التقدم عليه ، ومن تجاوز حد العدل فقد أفرط ومن تأخر عنه فقد فرط ، وما يسع الجميع إلا العدل ، ومن أشد الامور ضرراً ان يتعمد الوالي او القائد اتيان الامور التي تجعل له هيبة في قلوب الناس بزعمه ، او ان يتلذذ بسمعة البطش وارهاف الحد كما كان يفعل جمال باشا التركي قائد الجيش العثماني في سورية أيام الحرب الكبرى ، فقد كان يتعمد البطش واظهار الاستخفاف بدماء البشر املا بان ينال المهابة في الصدور وان تسير عنه

الاخبار ، فاضر عمله بدولته وأمتـه وزاد في شقاق الترك مع العرب وما نفعت سياسته إلا الافرنج الطامحين إلى البلاد، وما نفعت إلا الرائدين لهم الساعين بين أيديهم من أبناء البلاد

فاما الحزامة والضبط فقد روي فيهما عن الحجاج مالو وقف عند ذلك الحد، لما انتقده أحد، قالوا : كان الحجاج وابوه يعلمان الصبيان بالطائف ثم لحق الحجاج بروح بن زنباع الجذامي وزير عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته إلى ان رأى عبد الملك انحلال عسكره ، وان الناس لايرحلون برحيـله ولا ينزلون بنزوله ،فشكا ذلك إلى روح بن زنباع . فقال له إن في شرطتي رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لارحل الناس برحيـله وأنزلهم بنزوله، يقال له الحجاج بن يوسف ، قال فانا قد قلدناه ذلك . فكان لايقدر أحد ان يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع، فوقف عليهم يوما وقد أرحل الناس على الطعام يأكلون فقال لهم : مامنعكم ان ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟ فقالوا له انزل ياابن اللخناء فكل معنا ، فقال لهم هيهات ذهب ذلك ، ثم أمر بهـم فجلدوا بالسياط وطوفهم في العسكر وأمر بفساطيط روح فاحرقت بالنار ، فدخل روح على عبد الملك باكيا وقال ياأمير المؤمنين إن الحجاج الذي كان في شرطتي ضرب غلماني وأحرق فساطيطي ، قال علي به ، فلما دخل عليه قال ماحملك على مافعلت؟ قال انا مافعلت، قال ومن فعل ؟ قال أنت فعلت انمـا يدي يدك، وسوطي سوطك،وما على أمير المؤمنين ان يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين ، وعوض الغلام غلامين ، ولا يكسرني فيما قدمني له . فمن ذلك الوقت تقـدم الحجاج في منزلته ، ولكن كان ينبغي لهم ان يلزموه من الحزامة والصرامة هـذا الحـد ولا يسمحوا له أن يتجاوزه

قال الامام السيوطي في تاريخ الخلفاء « لو لم يكن من مساويء عبد الملك

إلا الحجاج وتوليته إياه على المسلمين وعلى الصحابة رضي الله عنهم يهينهم ويذلهم قتلا وضربا وشتما وحبسا ، وقد قتل من الصحابة والتابعين مالا يحصى فضلاعن غيرهم ، وختم في عنق أنس وغيره من الصحابة ختما يريد بذلك ذلهم فلا رحمه الله ولا عفا عنه »

(قلت) وأغرب من تولية عبد الملك الحجاج بن يوسف - توصيته ولده الوليد به عند موته فقد قال له وهو يجود بروحه « وانظر إلى الحجاج فاكرمه فانه هو الذي وطأ لكم المنابر وهو سيفك ياوليد ويدك على من ناواك فلاتسمعن فيه قول أحد وأنت اليه أحوج منه اليك » فكأن عبد الملك تحمل تبعة أعمال الحجاج حيا وميتاً

ومن أغرب الغرائب ان بعض الناس يلتمس العذر لعبد الملك بقوله : إن الحجاج هو الذي أنقذ ملك بني أمية وانه لولاه لانتقلت الخلافة لآل الزبير. فان الناس بعد موت يزيد بن معاوية بايعوا لعبد الله بن الزبير، وكان فحل قريش الصائل في وقته ، لايدركه أحد في شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة ، وأطاعه الحجاز واليمن والعراق وخراسان، ولم يمتنع عن مبايعته إلا اهل الشام ومصر فانهم بايعوا معاوية ابن يزيد إلى أن مات، فبايعوا ابن الزبير إلى ان خرج مروان بن الحكم فغلب على الشام ومصر . والحافظ الذهبي لايعده من أمراء المؤمنين بل يعده باغيا خارجا على ابن الزبير ويعد عهده لابنه عبد الملك بن مروان غير صحيح وقد صحح السيوطي هذا القول

وهذا يدل على ان أصل الولاية في الاسلام هو ولاية الامة ، وان لاملك ولا خلافة إلا من الامة (١) وان الاختيار هو الشرط الاول لا الارث، خلافا لظن من لم يقرأ شيئا عن أصول الحكم في الاسلام ، ظنوا أن استمداد الحكم من الامة

(١) والدليل على ذلك أنها لاتنعقد الا بمبايعة الامة الاختيارية، واما الارث فلا أصل له ولا دليل عليه البتة

هو منزع أوربي جديد ! قاتلهم الله ما أجهلهم بالتاريخ هذا إن لم يكونوا يتجاهلون عمداً للمرض الذي في قلوبهم

ولما استوسق الامر لعبد الملك أرسل الحجاج في اربعين ألفاً لقتال ابن الزبير فحصره بمكة أشهراً ورمى الكعبة بالمنجنيق وخذل ابن الزبير أصحابه وتسللوا إلى الحجاج فظفر به وقتله، وكان ابن الزبير أخبر أمه أسماء بنت ابي بكر الصديق رضي الله عنهما عن خذلان الناس اياه واستشارها فيما يصنع فأشارت عليه بان يخرج ويقاتل إلى ان يقتل في خبر يعرف منه الانسان درجة الانفة وعزة النفس اللتين عند العرب حتى عند النساء اللائي كن يفضلن قتل أولادهن على المهانة والذل

* *
*

ونعود إلى المشهورين من ثقيف ومن سكان ديار الطائف، فمنهم السائب بن الاقرع الثقفي روى عن عمر بن الخطاب و كان قليل الحديث وولاه عمر ولايات في فارس بعد ان شهد فتح نهاوند العظيم ومات باصبهان

ويوسف بن محمد بن يوسف الثقفي ابن أخي الحجاج وهو ممن ولي مكة تولاها في زمن الوليد بن يزيد بن عبد الملك

العرجي الشاعر

ومنهم العرجي الشاعر المشهور وهو عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس، قال في كتاب الاغاني سمى العرجي لانه كان يسكن عرج الطائف. وقيل سمي كذلك لماء كان له ومال عليه بالعرج. وكان من شعراء قريش، وممن شهر بالغزل منهم ونحا نحو عمر بن ابي ربيعة في ذلك وتشبه به فاجاد، وكان مشغوفاً باللهو والصيد حريصاً عليهما قليل المحاشاة لاحد فيهما. نقل السيد خير الدين الزركلي في كتابه «ما رأيت وما سمعت» عن كتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الامين» للمؤرخ الامام الحافظ ابي الطيب محمد

تقي الدين بن أحمد بن علي الحسني الفاسي المكي المتوفى في منتصف القرن التاسع ان محمد بن هشام بن اسماعيل كان والياً على مكة لهشام بن عبد الملك فسجن العرجي في تهمة دم مولى لعبد الله بن عمر، فلم يزل في السجن الى أن مات . ولكن رواية الاغاني تخالف ذلك، فهو يقول انه كان يشبب بجيداء أم محمد بن هشام بن اسماعيل المخزومي ليفضح ابنها لا لمحبة كانت بينهما، فكان ذلك سبب حبس محمد إياه وضربه له حتى مات في السجن . وذكر صاحب الاغاني انه كان صاحب غزل وفتوة وقال انه كان من الفرسان المعدودين مع مسلمة بن عبد الملك بارض الروم وكان له معه بلاء حسن ونفقة كثيرة . وذكر أن العرجي باع أموالا عظاماً كانت له واطعم ثمنها في سبيل الله حتى نفد ذلك كله . وكان قد اتخذ غلامين فاذا كان الليل نصب قدره وقام الغلامان يوقدان فاذا نام الواحد قام الآخر، فلا يزالان كذلك حتى يصبحا يقول لعل طارقاً يطرق. وأخبار العرجي كثيرة ونكاته مشهورة، والظاهر انه كان على كرم عريض وفتوة اكيدة الا أن الله ابتلاه بالنسيب بنساء قريش في شعره مما كان يعرض من يتشبب بهن للظنة وسوء القالة . ومن ظريف ما يحكى ان جارية من مولدات مكة صارت إلى المدينة فلما أتاهم موت عمر بن أبي ربيعة اشتد جزعها، وجعلت تبكي وتقول : من لمكة وشعابها وأباطحها ونزهها ووصف نسائها وحسنهن ؟ فقيل لها : خفضي عليك فقد نشأ فتى من ولد عثمان رضي الله عنه يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه . فقالت : انشدوني من شعره فانشدوها فمسحت عينها وضحكت وقالت الحمد لله الذي لم يضيع حرمه

*
* *

أمية بن أبي الصلت

وممن اشتهر بالنسبة إلى الطائف أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة ابن عوف بن عقدة بن عنزة بن قيس وهو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن

قال صاحب الاغاني : هكذا يقول من نسبهم إلى قيس . وأم أمية بن أبي الصلت قرشية وهي رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف

وكان أمية من أشعر العرب واليه ينسب هذا البيتان

قوم إذا نزل الغريب بارضهم ردوه رب صواهل وقيان
لا ينكتون الارض عند سؤالهم لتلمس العلات بالعيدان

وهما من قصيدة أولها

قومي ثقيف إن سألت وأسرتي وبهم أدافع ركن من عاداني

قال أبو عبيدة : اتفقت العرب على أن أشعر اهل المدن أهل يثرب ثم عبد القيس ثم ثقيف، وان أشعر ثقيف أمية بن أبي الصلت . قالوا وطمع أمية في النبوة وكان قد نظر في الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً وحرم الخمر وشك في الاوثان وكان مما قرأ أن نبيا يبعث من العرب فكان يرجو أن يكون هو . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قيل له هذا الذي كنت تنتظره فحسده وقال انما كنت أرجو أن أكونه . وكان يرثي قتلى قريش في وقعة بدر

ومما استحسن من شعره قوله معاتباً ابناً له أغضبه

غذوتك مولوداً ومنتك يافعاً تعل بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة آبتك بالشجو لم أبت لشكواك الا ساهراً أتملل
كأني أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني فعيني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وانني لاعلم ان الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي اليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل

ومات ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لكنه كان يقول ان الحنيفية حق لذلك كان الرسول يقول صلى الله عليه وسلم « ان كاد أمية ليسلم »

طريح بن اسماعيل الثقفي الشاعر

ومنهم طريح بن اسماعيل بن عقبة الثقفي وساق صاحب الاغاني نسبه هكذا: طريح بن اسماعيل بن عبيد بن أسيد بن علاج بن أبي سلمة بن عبدالعزى بن عزة ابن عوف بن قسي وهو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر . قال ابن الكلبي : ومن النسابين من يذكر أن ثقيفا هو قسي بن منبه بن النبيت بن منصور بن يقدم بن أقصى بن دعمي بن اياد بن نزار . وروى الكلبي ان ابارغال هو ابو ثقيف كلها وانه من بقية ثمود وكان ملكا بالطائف . وقيل بل ذكرت القبائل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال «قبائل تنمى الى العرب، وليسوا من العرب حمير من تبع وجرهم من عاد وثقيف من ثمود».

وكان طريح شاعراً فحلا انقطع الى الخليفة الوليد بن عبدالملك الذي كان يمت اليه بالقرابة لان أم الوليد ثقفية واستفرغ شعره في الوليد وأدرك دولة بني العباس ومات في زمان المهدي العباسي وقيل في زمان الهادي

وكان الوليد مكرما لطريح عظيم البر به . وكان طريح يغلو في مديحه ما شاء، قيل ان الوليد جلس يوما في مجلس له عام ودخل اليه أهل بيته ومواليه والشعراء وأصحاب الحوائج فقضاها وكان أشرف يوم رؤي له فأنشده طريح ما يأتي

انت ابن مسلنطح البطاح ولم تطرق عليك الحني والولج
طوبى لفرعيك من هنا وهنا طوبى لاعراقك التي تشج
لوقلت للسيل دع طريقك والمو ج عليه كالهضب يعتلج
لساخ وارتد أو لكان له في سائر الارض عنك منعرج

مسلنطح البطاح ما اتسع منها . والحني ما انخفض من الارض. والولج كل متسع في الوادي، أي لم تكن بين الحني والولج ليخفى مكانك، وطوبى لفرعيك

من هنا وهنا أي انه كريم الاب والام من قريش وثقيف، وانه يطيعه من هيبته كل شيء حتى انه لو أمر السيل بالانصراف لاطاعه .

قيل انه لما انقضت دولة بني أميه واديل منهم لبني العباس دخل طريح على المنصور في جملة الشعراء فقال له المنصور : لاحياك الله ولا بياك أما اتقيت الله ، وبلك حيث تقول للوليد بن يزيد

لوقلت للسيل دع طريقك والمو ج الخ

فقال طريح : قد علم الله عز وجل اني قلت ذاك ويدي ممدودة اليه تبارك وتعالى واياه تعالى عنيت فقال المنصور : ياربيع أما ترى هذا التخلص ؟

ويعجبني جداً من شعر طريح هذه القصيدة في الوليد

لم انس سلمى ولا لياليبنا ... بالحزن اذ عيشنا بها رغد
اذ نحن في ميعة الشباب واذ ... أيامنا تلك غضة جدد
في عيشة كالفرند عازبة الشـ ... ـقوة خضراء غصنها خضد
نحسد فيها على النعيم وما ... يولع إلا بالنعمة الحسد
أيام سلمى غريرة أنف ... كأنها خوط بانة رؤد
ويحي غداً إن غدا علي بما ... أكره من لوعة الفراق غد
قد كنت أبكي من الفراق وأحـ ... ـيانا جميع ودارنا صدد
فكيف صبري وقد تجاوب بالـ ... ـفرقة منها الغراب والصرد

ومنها في المديح

دع عنك سلمى لغير مقلية ... وعد مدحا بيوته شرد
للافضل الافضل الخليفة عبـ ... ـد الله من دون شأوه صعد
في وجهه النور يستبان كما ... لاح سراج النهار إذ يقد
يمضي على خير مايقول ولا ... يخلف ميعاده اذا يعد

من معشر لايشم من خذلوا عزاً ولا يستذل من رفدوا
بيض عظام الحلوم حدهم ماض حسام وخيرهم عتد
أنت امام الهدى الذي أصلح الـ له به الناس بعد مافسدوا
لما أتى الناس ان ملكهم اليك قد صار أمره سجدوا
واستبشروا بالرضا تباشرهم بالخلد لو قيل انكم خلد
رزقت من ودهم وطاعتهم مالم يجده من والد ولد
أثلجهم منك أنهم علموا أنك فيما وليت مجتهد
ألفت أهواءهم فاصبحت الا ضغان سلما وماتت الحقد
كنت أرى ان ماوجدت من الـ فرحة لم يلق مثله أحد
حتى رأيت العباد كلهم قد وجدوا من هواك ماأجد
قد طلب الناس مابلغت فما نالوا ولا قاربوا وقد جهدوا
يرفعك الله بالتكرم والتقـ وى فتعلو وأنت مقتصد
حسب امرىء من غنى تقربه منك وإن لم يكن له سند
فأنت أمن لمن يخاف ولا مخذول أودى نصيره عضد

غيلان الشاعر

وممن ينسب إلى الطائف من الشعراء غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك بن كعب ابن عمرو بن سعد بن عوف بن قسي وهو ثقيف وأمه سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف بن قصي أخت امية بن عبد شمس أدرك الاسلام فاسلم بعد فتح الطائف ولم يهاجر ، وأسلم ابنه عامر قبله وهاجر ومات عامر بطاعون عمواس بالشام سنة ١٨ وكان مع خالد بن الوليد وكان فارس ثقيف في زمانه فرثاه غيلان بقوله

عيني تجود بدمعها الهتان سمحا وتبكي فارس الفرسان
ياعام من للخير لما أحجمت عن شدة مرهوبة وطعان

لو أستطيع جعلت مني عامراً بين الضلوع وكل حي فان

وكان له من الولد غير عامر ثلاثة عمار ونافع وبادية ، وقيل إن خثعم جمعت جموعا من اليمن وغزت ثقيفا بالطائف فخرج اليهم غيلان بن سلمة في ثقيف فقاتلهم قتالا شديداً فهزمهم وقتل وأسر ثم منَّ على الاسرى فقال :

ألا يا أخت خثعم خبرينا بأي بلاء قوم تفخرينا
جلبنا الخيل من أكناف وج وليَّة نحوكم بالدار عينا
تركن نساءكم بالدار نوحا يبكون البعولة والبنينا
جمعتم جمعكم فطلبتمونا فهل أنبئت حال الطالبينا

واستشهد نافع بن غيلان مع خالد بن الوليد بدومة الجندل فجزع عليه غيلان وقال :

مابال عيني لاتغمض ساعة إلا اعترتني عبرة تغشاني
أرعى نجوم الليل عند طلوعها وهنا وهن من الغروب دوان
يا نافعاً من للفوارس أحجمت عن فارس يعلو ذرى الاقران

وكثر بكاء غيلان على نافع فعوتب في ذلك فقال : والله لاتسمح عيني بماءٍ فأضن به على نافع ثم تطاول العهد ففتر مابه فقيل له في ذلك فقال : بلي نافع وبلي الجزع ، وفني وفنيت الدموع واللحاق به قريب .

ووفد غيلان على كسرى في خبر استوفاه صاحب الاغاني فعهد اليه كسرى بان يبني له قصراً بالطائف ففعل

وممن ينسب إلى الطائف واشتهر جداً المختار الثقفي بن ابي عبيد ولد عام الهجرة ورحل من الطائف مع أبيه في أيام عمر حين ندب الناس إلى العراق وكان منقطعاً إلى بني هاشم وصحب علياً وسكن البصرة بعد علي ، ولما تولى بنو أمية نفوه إلى الطائف بلده فأقام بها إلى ان بويع عبدالله بن الزبير بمكة فأتاه واستعمله ابن الزبير على الكوفة فجرى بينه وبين مصعب بن الزبير خلاف أدى إلى القتال فقتله مصعب في سنة ٦٧ وقيل ادعى النبوة فقتله ابن الزبير

تخطيط الطائف

وسبب نزول ثقيف بها

ولنذكر الآن ماقيل عن تخطيط الطائف وسبب نزول ثقيف بها فنقول قال الهمداني صاحب « صفة جزيرة العرب » الذي لم يؤلف في بابه مثله مايلي :

« الطائف مدينة قديمة جاهلية وهي بلد الدباغ يدبغ بها الاهب الطائفية المعروكة وتسمى المدينة أيضا الطائف والمعنى مدينة الطائف ، وساكنو الطائف ثقيف ، ويسكن شرقي الطائف قوم من ولد عمرو بن العاص ، وواد قريب من الطائف يقال له (برد) فيه حائطان لزبيدة عظيمان يقال لموضعهما (وج) وبشرقي الطائف واد يقال له (لية) يسكنه بنو نصر من هوازن . ومن يماني الطائف واد يقال له (جفن) لثقيف وهو بين الطائف و بين معدن البرام ، ويسكن معدن البرام قريش وثقيف . ومن قبلة الطائف أيضاً واد يقال له (مشريق) لبني أمية من قريش ووادي (جلذان) منقلب إلى نجد في شرقي الطائف يسكنه بنو هلال . وفي قبلة الطائف حائط أم المقتدر الذي يدعى (سلامة) وبين الطائف وبين عرفة وادي نعمان وفيه طريق الطائف المختصرة إلى مكة وأما المحجة فعلى قرن المحارم » انتهى

قلت أما ان الطائف قديمة جاهلية فمما لاشك فيه . وقال في صبح الاعشى : انها كانت قديما للعمالقة ثم نزلها ثمود قبل وادي القرى ويقال انه نزلها عدوان بعد العمالقة وغلبهم عليها ثقيف فهي الآن دارهم ،

وأما الدباغ فليس له أثر اليوم فيما رأيت . وأما برد (بالتحريك) فالذي سمعته من أهل الطائف انه اسم الجبل الذي في غربي الطائف يبعد عنها نحو ثلاث إلى أربع ساعات وهو أعلى جبل هناك ومن أسفله يأتي ماء المثناة ومنه يسيل وادي وج . ولا

ينافيه قول الهمداني انه واد فان الجبل لا يكون بلا واد والوادي لا يتصور وجوده بلا جبل فقد يكون اسم « برد » للجبل والوادي معاً. وهذا الجبل شديد البرد ومنه اسمه « برد » لدال على برده إلا انه لا ينزل عليه الثلج في الشتاء مثل جبال الشام وانما ينزل البرد (محركة) وهو حب الغمام ويتجمد فيها الماء . والجبال في جزيرة العرب وإن أنافت على جبال الشام في الارتفاع فانها لوقوعها في المنطقة الحارة (إن الهمداني يستعمل الخبة بالكسر بمعنى المنطقة ولعله أخذها من قولهم الخبة مثلثة طريقة من رمل أو سحاب ، والخبة من الثوب شبه الطرة ، وقيل شبه طية من الثوب مستطيلة) لا ينزل عليها الثلج مثل جبالنا فلهذا لا تجد في الجزيرة الانهار الكبار التي نجدها في الاراضي الضاربة في الشمال (١)

وقد ورد في كتب اللغـة اسم « برد » و « بردى » و « برديا » لاماكن كثيرة من أنهار وغدران وجبال وغيرها وقيل ان « برد » وضبطها البكري بكسر الراء — جبل في أرض غطفان، ولا أظن انه هو هذا الجبل الذي بقرب الطائف لان هذا مفتوح الراء ثم لان غطفان وهم بطن من قيس — عيلان كانوا ينزلون بوادي القرى شمالي الحجاز وبجبلي اجا وسلمى فليست منازلهم بالطائف وجبالها وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان « برد » محركة بفتح الراء وقال انه موضع في قول بدر بن حزان الفزاري :

ماضطرك الحرز من ليلى إلى برد يختاره معقلا عن جش أعيار

ولم يعين هذا الموضع . اما جش أعيار الذي ذكره بدر الفزاري فهو موضع أيضاً لم يذكر ياقوت أي موضع هو ؟ وجاء في تاج العروس هذا البيت منسوبا الى بدر المازني لا بدر الفزاري . ولم يفسر « جش اعيار » الا بقوله موضع

---

(١) يقول بعض علماء الافرنج انه كان فيها انهار عظيمة وعمران عظيم قبل عصر التاريخ ويدل على ذلك وجود الوديان العميقة

وأغرب منه ان البيت نفسه وارد في لسان العرب منسوبا إلى النابغة «وجش أعيار» غير مفسر فيه إلا بقوله موضع، وأورد ياقوت بيتاً آخرعن «برد» مفتوح الراء للفضل بن العباس اللهبي :

اني إذا حل أهلي من ديارهم بطن العقيق وأمست دارها برد

وبعده :

تجمعنا نية لا الخل واصلة سعدى ولا دارنا من دارهم صدد

ولا نقدر أن نعرف منه هل برد المقصود في هذا الشعر هو هذا الجبل الذي نحن بصدده أم غيره ؟ وقد ورد اسم « بردى » بالالف المقصورة لجبل فى الحجاز فهل ياترى هو هذا الذي يقولون له « برد » وقد أوردوا شاهداً عليه قول النعمان ابن بشير كما في تاج العروس

يا عمرو لو كنت أرقى الهضب من بردى او العلا من ذرى نعمان اوجردا

بما رقيتك لاستهونت مانعها فهل تكونين الا صخرة صلدا

فالاشبه أن يكون هو المراد وذلك نظراً لذكره « نعمان » وهو الوادي الذي بين مكة والطائف ومنه الى « الهدا » العقبة الكبرى التي يقال لها « الكرى الكبير » واما « جرد » محركة فهو جبل فى بني سليم

واما قول الهمداني «ان في برد حائطين كبيرين لزبيدة عظيمين يقال لموضعهما وج » فأظنه يعني بهما « الوهط » و « الوهيط » الاول بفتح فسكون والثاني بالتصغير وذلك انه لايوجد في سفوح برد مياه جارية تسقي بساتين الافي الوهط والوهيط، الاول جار الآن في وقف الاشراف ذوي زيد والثاني يخص ذرية الشريف عون الرقيق من ذوي عون . ولقد ورد ذكر الوهط في معجم البلدان قال ياقوت : والوهط المكان المطمئن المستوي ينبت العضاه والسمر والطلح وبه سمي الوهط .. وهو مال كان لعمرو بن العاص بالطائف وهو كرم كان على الف

الف (أي مليون) خشبة شرى كل خشبة بدرهم. قال ابن الاعرابي: عرّش عمرو ابن العاص بالوهط الف الف عود كرم على الف الف خشبة ابتاع كل خشبة بدرهم فحج سليمان بن عبد الملك فمر بالوهط فقال: أحب أن أنظر اليه. فلما رآه قال هذا أكرم مال وأحسنه، ما رأيت لاحد مثله، لولا ان هذه الحرة في وسطه. فقيل له: ليست بحرة ولكنها مسطاح الزبيب وكان زبيبه جمع في وسطه فلما رآه من البعد ظنه حرة سوداء. وقال ابن موسى الوهط قرية بالطائف هي على ثلاثة أميال من وج كانت لعمرو بن العاص

قلت: لما فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر ثم غزا منها طرابلس مر بالجبل الاخضر الذي يندر نظيره في الخصب والامراع وخضرة البقاع فقال: لولا أموالي بالحجاز ما اخترت على هذه الارض. فكنت إذا قرأت هذا الكلام ولم أكن عرفت جبال الطائف أتعجب منه قائلا ماذا عسى أن يكون لسيدنا عمرو من الاموال في قطر ناشف كالحجاز؟ ولما ذهبت في جهاد طرابلس الغرب الى الجبل الاخضر وأقمت به أشهراً وعرفت عين منصور وعين ماره والقيقب وشحات (محل سيرنا القديمة) والمرج وغيرها، وسرت بين فينان الدوح ومشتبك الشجر الذي لا يتخلله نور الشمس في كثير من المواضع مسافة عشرة أيام ورأيت تلك المناظر المشرفة من شاهق على البحر لا يحاكي فسحة منظرها الا عالية وعبية وبيت مري وبرمانا وما في خطها من جبل لبنان، قلت لنفسي لما عرفت ما الجبل الاخضر وما هو من طيب النجعة علمت معنى افتتان عمرو بن العاص بالجبل الاخضر لكنني لم أعلم وجه مقايسته له بالحجاز وعدم رغبته عن أمواله في الحجاز الى ذلك الجبل المنقطع النظير في الخضرة والنضرة، الا اني لما شاهدت جبال الطائف وأقمت بها أيضا عدة أشهر علمت ان لعمرو بن العاص وجها للقول وحقا في التيه بأمواله في الحجاز، فان في جبال الطائف جنانا مدت عليها الخضرة رواقها، ورياضا

شدت بها النضرة نطاقها، فاما الوهط فقد انحط كثيراً عن درجته السابقة ورتبته السامقة ولا تجد فيه لا الف الف عود كرم ولا الف عود كرم ولا مسطاحاً واحداً للزبيب (١)

ومن أغرب الأمور التي حدثت كثيراً في أرض الوهط على ما هي عليه الآن فلم أجدها تسع هـذه النعمة التي وصفوها ، ولم أجد الماء كافياً لشيء منها ، بل رأينا عين الوهط وكان ذلك في شهر أغسطس لا تجري إلا الى مسافة قصيرة جداً وقال لنا أهل القرية انها في بعض السنين التي يكون المطر فيها نزراً تنقطع تماما ويضطرون الى الاستقاء من المثناة أي من مسافة ساعة . فكيف كان الوهط بتلك النعمة التي حدثوا عنها وهو الآن لا يكاد ماؤه يسقى بعض حيطان ، وقد ينقطع بعض السنين ، ان في ذلك لسراً . والذي أظنه انه قد كان الشجر في جبال الطائف لذلك العهد أكثر جداً فكان المطر أغزر وكانت العيون أجرى وكانت الجنان أعظم ، وان الذي أصاب هذه الجبال من قلة المطر التي لا تسمع أهل تلك الديار إلا شاكين منها انما هو من أثر قطع الاشجار وزوال الحراج الملتفة . وهناك سبب آخر للخصب والعمران قد زال أيضاً بتطاول الاعصر وهو السدود التي كانوا يجعلونها على الأودية ومجاري المياه الشتوية فكانت تخزن المياه الى مدة طويلة وتسقي الأرضات العطاش وتمسك بأرماق الخضرة في سني القحط ،

(١) الذي في لسان العرب وفي القاموس هو المسطح لا المسطاح قال في اللسان والمسطح تفتح ميمه وتكسر مكان مستو يبسط عليه التمر ويجفف ويسمى الجرين يمانية ، وقد استدرك صاحب تاج العروس على القاموس بقوله والمسطاح لغة في المسطح . ومنه قول ياقوت الحموي او قول الذي نقل عنهم . ونحن أيضا في جبل لبنان نقول مسطاح تين ومسطاح زبيب)

وأينما ذهبت في جزيرة العرب تجد سدوداً دارسة وقنياً خربة (١)

ولما كان العرب منحصرين في الجزيرة لا يتجاوز ملكهم شطوطها البحرية وبادية الشام من الشمال كانت الجزيرة عامرة والمدن كثيرة والقرى متصلة والمزارع ناضرة والقصور والجواسق وأماكن النزهة لا يأخذها العد، فان أراضيها المنبتة كانت تضيق بأهلها فكانوا يعملون فيها بجد عظيم ليستغلوا منها كل ما يقدرون أن يستغلوه ويتذرعون للخصب بأصناف الحيل. فلما ظهر الاسلام وهب العرب للفتوحات ونشر عقيدة التوحيد من جبال الهندكوش الى جبال الالب وكان خلفاؤهم يندبونهم للغزوات ويستجيشونهم بدون انقطاع، وكانوا هم مادة الاسلام

«١» حاشية المؤلف: قرأت في ارجوزة احمد بن عيسى الرداعي في الحج قوله

لضيعة الطلحي مستقيمة صادرة عنها تؤم الزرعة
ثم على سبوحة القديمة حيث بريد الصخرة القديمة
مطنبة في السير ذي العزيمة الى اريك تعتلي صميمة
حميدة في الركب لا مليمة باقية اعراقها كريمة
انى لأرجو ان ترى سليمة محمودة في الركب لا مذمومة

قال الهمداني في تفسير هذه الابيات ضيعة الطلحي من قريش نخل قديمات. الزرعة موضع فيه بستان ابن عبيد الله الهاشمي وكان في ايام المقتدر على غاية العمارة وكان يغل خمسة الاف دينار مثقال وفيه حصن المقاتلة مبني بالصخر ويحميه بنو سعد من ساكنه عروان وعدد جذوعه الوف. وفيه غيل مستخرج من وادى نخلة عز بز يفضى الى فوارة في وسط الحائط تحت حنية ثم الى ماجل كبير، وفيه الموز والحنا وانواع من البقول. وسبوحة موضع واريك عقبة تضاف الى المكان فيقال عقبة أريك بضم الالف وأريك بفتحها اه

قلت مررت بالزرعة مراراً ولم اجد شيئاً من تلك العمارة التى كانت في ايام المقتدر ولا حصناً هذا وصفه. وانما هناك عين فوارة من الصخر يسمع خريرها من بعيد وليس فوقها حنية ويسقي بها العرب بعض زرائع واشجار في الوادي

وحملة الدين الجديد الى الامم ، كانت القواصي تأكلهم والحروب تفني منهم مئات الالوف ، وكانت قبائلهم أصبحت منتشرة من الصين الى الهند الى فارس الى الروم الى مصر الى أفريقيـة الى الاندلس الى فرنسة الى جزائر البحر فلم يبق منهم في الجزيرة العدد الذي يقوم بعمرانها

وكانوا في هذا أشبه باسبانية التي بعد فتحها للمكسيك ولامريكا الجنوبية قد تقهقرت الى الوراء بما هاجر من أهلها الى تلك الديار التي فاق فيها الاسبانيول في العدد من بقي منهم في وطنهم الاصلي

فهذا هو السبب الحقيقي في تقلص عمران الجزيرة بعـد الاسلام حتي عاد الوهط مثلا دسكرة حقيرة بعد أن كان مسطاح الزبيب فيه يظن حرّة لسواده واتساعه

ومما لا ريب فيه ان كروم الطائف كانت لعهد البعثة أكثر مما هي الآن مراراً وكانت الخيرات فوق التصور ، فقد روى البلاذري في «فتوح البلدان» ان سفيان بن عبدالله الثقفي كتب الى عمر وكان عاملا له على الطائف يذكر ان قِبَله حيطانا فيها كروم وفيها من الفرسك(١) والرمان ماهو أكثر غلة من الكروم أضعافا واستأمره في العشر فكتب اليه عمر : ليس لها عشر

ويظهر من كلام البلاذري انه كانت تصدر من الطائف غلات عظيمة من الزبيب ومن سائر المحصولات ومن العسل ، ولقـد بقي من هـذا شيء لكنه لايقاس في قليل ولا كثير إلى ما كان في الجاهلية وصدر الاسلام ، وانما غاضت هـذه الغلات بغيض العمران الذي يتوقف على الرجال . وكان أكثر الرجال خرجوا الى الفتوحات واعتمروا أطراف الارض .

«١» المؤلف : الفرسك هو ما نسميه نحن في الشام بالدراقن بالتشديد وقد يخفف . قال

وتضربني الحبيبة بالدراقن وتحسبني الحبيبة لا اراها

ويقولون له في مصر والمغرب الخوخ . وأما في اليمن فيقولون له فرسك كما في الحجاز وهي لفظة فارسية فان اسم هذه الفاكهة فرسك في بلاد العجم . ويظهر ان الالمان اخذوها من فارس فهم يقولون لها ايضاً فرسك Pfirsich

والأصلح الآن لاستئناف العمران طريقتان : إحداهما زرع الحراج والاكثار من غرس الاشجار حتى تكثر الامطار ، فان الله خلق لكل شيء سبباً وهذه من أسباب الامطار . والثانية الرجوع الى السدود والخزانات التي تحفظ المياه وتروي الأرضين عند عطشها ، وعند الوهط مكان ضيق على وج لو ان ادارة الزراعة في الحجاز بنت فيه سداً لما كانت كلفته كثيرة ولاستأنف به الوهط عمرانه القديم

وأما وادي « لية » الذي يسكنه بنو نصر من هوزان فقد زرته وبت فيه ليلة. وهو واد ضيق مستطيل يمتد مسافة اربع ساعات ، مبدؤه من بلاد السفانية من ثقيف . وهو ينحدر نحو الشرق الجنوبي وعليه من الجانبين البساتين والجنان والزروع وكلها تسقى بالسواني لأن مياه الوادي تشح كثيراً في الصيف وقد ينقطع بعضها عن بعض فلا يبقى منها الا غدران تردها المواشي اشهرها الذي يقال له غدير البنات . وبيوت سكان الوادي مرتفعة عن النهر احتياطاً من السيل لأنه كثيراً ماتطغي المياه على الجانبين. والبيوت مبنية بالحجر تظن بعضها ابراجاً منيعة. وللوادي تربة هي الحد الاقصى في الخصب فتجد من نماء الشجر مايحار له العقل. وجميع ما في هذه الجنان اشجار مثمرة منها الكرم والسفرجل والرمان والفرسيك والحماط والكمثرى وغيرها وكلها عدا الحماط أي التين هي في الطبقة العليا بين الفواكه . أما الرمان فهو كحب الياقوت ليس له نظير منظراً وطعماً وقد اشتهر وادي لية به. ومما يجب على ادارة الزراعة في الحجاز أن تبني في أعلى المعمود من هذا الوادي سداً يتكون منه خزان يكفل جميع حاجة الوادي في ايام القيظ عندما تشح آبار السواني . وقيل لي إن خزاناً كهذا لاتزيد كلفته على خمسة أو ستة آلاف جنيه على حين مايزيده من ريع البساتين يعدل هذه القيمة من أول سنة . فان أثمان الفواكه في مكة لا يعادلها شيء ويمكن الحكومة أن تبني لأهل

وادي لية هذا الخزان ثم تسترد منهم كلفته تقسيطاً

هذا وقد ذكر ياقوت هذا الوادي في المعجم فقال : لية بتشديد الياء وكسر اللام لها معنيان: اللية قرابة الرجل وخاصته واللية العود الذي يستجمر به وهو الالوة، ولية من نواحي الطائف مر به رسول الله ﷺ حين انصرافه من حنين يريد الطائف وأمر وهو في لية بهدم حصن ملك بن عوف قائد غطفان وقال حفاف ابن ندبة :

سرت كل وادٍ دون رهوة دافع　　وجلذان أو كرم بلية محدق

في ابيات ذكرت في جلذان وقال مالك بن خالد الهذلي

امال ابن عوف انما الغزو بيننا　　ثلاث ليال غير مغزاة اشهر

متى تنزعوا من بطن لية تصبحوا　　بقرن ولم يضمر لكم بطن محمر

اه واستشهد بابيات أخر على ذكر لية

وأما جلذان بكسر الجيم وسكون اللام — واختلف في الدال فمنهم من رواها معجمة ومنهم من رآها مهملة — فموضع بقرب الطائف . قال ياقوت يسكنه بنو نصر بن معاوية من هوازن ، ومن الامثال المضروبة : أسهل من جلذان. فنقل ياقوت عن نصر بن حماد انه حمى قريب من الطائف مستوٍ كالراحة ، وجاء في المعجم عن جلدان هذان البيتان لحسن بن ابراهيم الشيباني من سكان الطائف:

وجلدان العريض قطعن سوقا　　يُطرن بأجرعيه قطاً سكونا

تخال الشمس إن طلعت عليها　　لناظرها علالي أو حصونا

ومن الامثال المضروبة . صرحّته بجلذان وبجدان وبجدّاء اذا تبين لك الامر وصرح ، والتاء في قولهم صرحت اشارة الى القصة أو الخطة

وقال أمية بن الاسكر :

أصبحت فرداً لراعي الضان يلعب بي　　ماذا يريبك مني راعي الضان

أعجب لغيري اني تابع سلفي أعمام مجد واخوان وأخذان
وانعق بضأنك في أرض تطيف بها بين الاصافر وانتجها بجلذان

وقال خفاف بن ندبة يذكر جلذان :

ألا طرقت أسماء من غير مطرق وأنى وقد حلت بنجران نلتقي؟
سرت كل واد دون رهوة دافع وجلذان أو كرم بلية محدق
تجاوزت الاعراض حتى توسدت وسادي لدى باب بجلذان مغلق

فالكروم المحدقة في (لية) هي من قديم الزمان

وأما سكان وادي (لية) الآن فأولهم الاشراف الذين يقال لهم الفعور ولهم أفضل البساتين والباقي من العرب شماطيط، وأكثرهم من عتيبة ، ويقال إن عتيبة هي من هوازن ، وقد بحثت عن عتيبة في الكتب القديمة فلم أجد إلا قولهم عتيبة قبيلة من العرب ، وقد ذكروا ان حياً من اليمن اسمه عتيب

وأما هوازن فمن قبائل قيس ، وهم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ، ومن هوازن بنو سعد بن بكر بن هوازن كانوا أفصح العرب وكان النبي ﷺ رضيعاً فيهم ، قال في صبح الاعشي نقلا عن العبر : وقد افترق بنو سعد هؤلاء في الاسلام ولم يبق لهم حي فيطرق ، إلا ان منهم فرقة بافريقية من بلاد المغرب بنواحي باجة يعسكرون مع جند السلطان

قلت : وقد أصاب هذا التشتت كثيراً من قبائل العرب بسبب الفتوحات الاسلامية في صدر الملة والرحيل الى الآفاق ، ففي كاشغر قبائل تركية أصلها من العرب من عهد قتيبة فاتح بلاد الترك ، وفي الطاغستان على شواطيء بحر الخزر بطون كثيرة أصلها عرب من زمن الفتح . وفي السند والهند أناس كثيرون متحدرون من أصول عربية . وفي افغانستان وفارس أسر كثيرة أصولها عربية، وفي الاندلس وفي جنوبي فرنسة وفي صقلية وعلى شطوط ايطالية أمم أصلها من

العرب ، هـذا عدا القبائل التي تفرقت في الاقطار والتي هي الى الآن عربية كالشام والجزيرة والعراق ومصر والسودان وبرقة وطرابلس والصحراء الكبرى الى أواسط أفريقية وبحيرة تشاد ، وكذلك تونس والجزائر والمغرب والسوس الاقصى الى تنبكتو ، وأضف الى هذا بلاد الحبشة والصومال وزنجبار وجزائر القمر ومادغشقر وموزابيق ، ولا تجد في أفريقية قطراً إلا فيه أقوام من العرب ولا تنس سنغافورة والجاوى وسومطرة الخ(١)

ومن هوازن بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ومن بني عامر بن صعصعة بنو كلاب الذين هاجروا إلى الشام و كانت لهم دولة وصولة في حلب . ومن بني عامر بن صعصعة بنو هلال ، وهم الذين ذكر الهمداني انهم يسكنون وادي جلذان ، وقد هاجر بنو هلال الى مصر والشام والمغرب ولم يبق لهم في جبال الطائف الا آثار وأخبار فكل شيء قديم يقول عنه الاهالي انه من زمن بني هلال . قال الهمداني وكان لهم بلاد صعيد مصر كلها وذكرهم ابن سعيد في عرب برقة وقال: منازلهم فيما بين مصر وافريقية ، ولم يزالوا إلى أن بايعوا لابي ركوة في أيام الحاكم العبيدي فرماهم بغيرهم من العرب وأفنى أكثرهم ونزح من بقى منهم إلى المغرب الاقصى فهم مع بني جشم هناك ، ومنهم طائفة بحلب وطوائف في اسوان واخميم وأصفون واسنا من الصعيد

ولا يزال من بني هلال في الحجاز حرب فيما ذكره ابن سعيد ، وهم ثلاثة بطون بنو مسروح وبنو سالم و بنو عبيد الله

ومن هوازن بنو عقيل بضم العين وفتح القاف وهم بنو عقيل بن كعب بن

---

(١) العبرة الكبرى في هذا ان العرب كانوا فى ايام حياتهم ودولهم يدخلون المصر او القطر من بلاد الاعاجم فيحولون اهله الى دينهم ولغتهم بقوة تأثيرهم في الهداية ثم انعكست القضية فتحولوا هم الى لغة بعض الاقطار والى دين بعض آخر ولغته فهل يعتبرون فيعلموا أكيف يرجعون؟

ربيعة بن عامر بن صعصعة . وكانت منازلهم بالبحرين وكان معهم من العرب بنو تغلب وبنو سليم (بضم ففتح) فاقتتلوا في احدى المرار ، وكان بنو تغلب وبنو عقيل يداً على بني سليم فأخرجوهم من البحرين فجاءوا إلى مصر ومنها نزلوا ببرقة ، فأكثر عرب الجبل الاخضر من بني سليم بن منصور . ثم اقتتل بنو تغلب وبنو عقيل فتغلب بنو تغلب على هؤلاء ، فخرجوا إلى العراق ومنها تغلبوا على الموصل والجزيرة وكانت لهم هناك دولة وسلطان ، ثم لما جاء الاتراك السلاجقة وانتزعوا منهم بلاد الجزيرة رجع منهم أناس الى البحرين وتغلبوا على بني تغلب فيها

ومن بني عقيل بنو عبادة بالجزيرة الفراتية وبنو خفاجة بالعراق وكانت لهم إمرة فيه

ومن بطون هوازن بنو جشم وكانوا بالسروات وهي تلال تفصل بين تهامة ونجد ، وسرواتهم متصلة بسروات هذيل ، وقد هاجر أكثرهم الى بلاد المغرب

وثقيف من بطون هوازن وقد تقدم ذكر نسبهم ، ويقال لوادي وج بلاد ثقيف ، ولمدينة الطائف سوق ثقيف — الى يوم الناس هذا

﴿ عرض الطائف الجغرافي وسبب تأسيسه ﴾

والطائف في الاقليم الثاني وعرضها احدى وعشرون درجة كما في معجم البلدان ، والاظهر في تسميتها بالطائف انه من الحائط المحدق بها ، ومنه قول أبي طالب بن عبد المطلب * نحن بنينا طائفاً حصيناً * قال ياقوت : وهي مع هذا الاسم الفخم بليدة صغيرة على طرف واد ، وهي محلتان احداهما عن هذا الجانب يقال لها طائف ثقيف ، والاخرى على هذا الجانب يقال لها الوهط ، والوادي بين ذلك تجري فيه مياه المدابغ التي يدبغ فيها الاديم يصرع الطيور رائحتها إذا مرت بها ، وبيوتها لاطئة حرجة ، وفي أكنافها كروم على جوانب ذلك الجبل

فيها من العنب العذب مالا يوجد مثله في بلد من البلدان ، وأما زبيبها فيضرب بحسنه المثل ، وهي طيبة الهواء شامية ربما جمد فيها الماء في الشتاء ،وفوا كه أهل مكة منها ، والجبل الذي هي عليه يقال له غزوان ، ونقل عن عرّام ان الطائف ذات مزارع ونخل وأعناب وموز وسائر الفواكه ،وبها مياه جارية وأودية تنصب منها الى تبالة وجل أهل الطائف ثقيف وحمير ، وقوم من قريش وهي على ظهر جبل غزوان ، وبغزوان قبائل هذيل اه

قلت يظهر ان هذا الواصف لم يشاهد الطائف، لانه لو شاهدها لعرف انه ليس بها نخيل ولا موز إلا اذا كان يعني بالطائف جميع البلاد التي حولها فقد يوجد في الهابط من جوارها شيء من النخيل

قالوا: وكانت الطائف تسمى وجا باسم وج بن عبد الحي من العماليق وهو أخو أجا الذي سمي به جبل طيء ، قالوا وكان رجل من الصدف يقال له الدمون بن عبد الملك قتل ابن عم له بحضرموت وفر هاربا . فأتى مسعود بن معتب الثقفي وكان معه مال كثير فرغب إلى ثقيف أن يزوجوه فزوجوه ، وكان من رأيه أن يبني لهم طوفا مثل الحائط حتى لا يصل اليهم أحد من العرب،فبناه لهم فسميت من ذلك الوقت الطائف ، وقيل بل كانت الطائف بين ولد ثقيف وولد عامر بن صعصعة، فلما كثر الحيان قالت ثقيف لعامر : انكم اخترتم العمد على المدن والوبر على الشجر ، فلستم تعرفون مانعرف ، ولا تلطفون مانلطف . ونحن ندعوكم إلى حظ كبير لكم مافي أيديكم من الماشية والابل ، والذي في أيدينا من هذه الحدائق، فلكم نصف ثمره فتكونوا بادين حاضرين يأتيكم ريف القرى ولم تتكلفوا مؤونة وتقيمون في أموالكم وماشيتكم في بدوكم ولا تتعرضون للوباء (كانوا يعلمون ان الوباء انما يكون في الحواضر) ولا تشتغلون عن الرعى . ففعلوا ذلك فكانوا يأتونهم كل عام فيأخذون نصف غلاتهم ، وقد قيل ان الذي وافقوهم عليه كان الربيع

فلما اشتدت شوكة ثقيف وكثرت عمارة وج رمتهم العرب بالحسد ، وطمع فيهم من حولهم وغزوهم ، فاستغاثوا ببني عامر فلم يغيثوهم فأجمعوا على بناء حائط يكون لهم حصنا ، فكانت النساء تلبن اللبن والرجال يبنون الحائط حتى فرغوا منه وسموه الطائف لاطافته بهم وجعلوا لحائطهم بابين (أحدهما) لبني يسار (والآخر) لبني عوف وسموا باب بني يسار صعبا وباب بني عوف ساحراً، ثم جاءهم بنو عامر ليأخذوا ماتعودوه فمنعوهم منه وجرت بينهم حرب انتصرت فيها ثقيف وتفردت بملك الطائف فضربتهم العرب مثلا ، فقال ابو طالب بن عبد المطلب

منعنا أرضنا من كل حي ... كما امتنعت بطائفها ثقيف

أتاهم معشر كي يسلبوهم ... فحالت دون ذلكم السيوف

وقال بعض الانصار :

فكونوا دون بيضكم كقوم ... حموا أعنابهم من كل عاد

وذكر المدائني: ان سليمان بن عبد الملك لما حج مر بالطائف فرأى بيادر الزبيب فقال ماهذه الحرار ؟ فقالوا ليست حراراً ولكنها بيادر الزبيب ، فقال لله در قسى : بأي أرض وضع سهامه ، وبأي أرض مهد عش فراخه اه

قلت لعل سليمان بن عبد الملك سمع بذكر عنب الطائف الشهير فخج اليه من بعد ان حج البيت ورأى مارأى منه ، وهنا يخطر ببالي قصة عن شدة نهمه رواها عنه أحد أصحابه وهو انهم ذهبوا معه يوما إلى بستان للنزهة فأتوه بزنبيلين أحدهما ملآن تينا والآخر ملآن بيضا ، فلم يزل يأكل من هذا تينة ومن هذا بيضة حتى أتى عليهما ، ثم قام يطوف على الاشجار المثمرة فقطف بيده من كل نوع وأكل أكلا ذريعاً . قال راوي القصة ثم صرنا نقول له وهذا العنقود ياأمير المؤمنين فيخرطه في(١) الخ فلا عجب ان عرج أمير المؤمنين سليمان على كروم الطائف...

---

(١) خرط العنقود : وضعه في فيه فقضم حبه واخرج عمشوشه عاريا

(خبر فتح النبي ﷺ الطائف)

قال ياقوت : ثم حسدهم طوائف العرب وقصدوهم فصمدوا لهم وجدوا في حربهم . فلما لم يظفروا منهم بطائل ولا طمعوا منهم بغرة، تركوهم على حالهم أغبط العرب عيشاً إلى ان جاء الاسلام فغزاهم رسول الله ﷺ فافتتحها سنة تسع من الهجرة صلحاً وكتب لهم كتابا . نزل عليها رسول الله ﷺ في شوال سنة ثمان عند منصرفه من حنين وتحصنوا منه واحتاطوا لانفسهم غاية الاحتياط فلم يكن اليهم سبيل . ونزل إلى رسول الله ﷺ رقيق من رقيق أهل الطائف منهم ابو بكرة نفيع بن مسروح مولى رسول الله ﷺ في جماعة كثيرة منهم الازرق الذي تنسب اليه الازارقة والد نافع بن الازرق الخارجي الشاري فعتقوا بنزولهم اليه ونصب رسول الله ﷺ منجنيقا ودبابة فأحرقها أهل الطائف، فقال رسول الله ﷺ « لم يؤذن لي في فتح الطائف » ثم انصرف عنها إلى الجعرانة ليقسم سبي أهل حنين وغنائمهم فخافت ثقيف أن يعود اليهم فبعثوا اليه وفدهم وتصالحوا على أن يسلموا ويقروا على مافي أيديهم من أموالهم وركازهم ، فصالحهم رسول الله ﷺ على أن يسلموا وعلى أن لايزنوا ولا يربوا وكانوا أهل زنا وربا » اه

قال ياقوت وكان معاوية يقول : أغبط الناس عيشاً عبدي أو قال مولاي سعد ، وكان يلي أمواله بالحجاز ، ويتربع جدة ، ويتقيظ الطائف ويشتو بمكة . ولذلك وصف محمد بن عبد الله النميري زينب بنت يوسف أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية فقال :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

(انتهى)

وقال البلاذري في فتوح البلدان عن غزوة الرسول ﷺ للطائف مايأتي :

« لما هزمت هوازن يوم حنين وقتل دريد بن الصمة أتى فلُّهم أوطاس،

فبعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عامر الاشعري فقتل . فقام بأمر الناس أبو موسى عبدالله بن قيس الاشعري ، وأقبل المسلمون الى أوطاس ، فلما رأى ذلك مالك بن عوف بن سعد أحد بني دهمان بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ، وكان رئيس هوازن يومئذ هرب الى الطائف فوجد أهلها مستعدين للحصار قد رمّوا حصنهم وجمعوا فيه الميرة فأقام بها وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين حتى نزل الطائف فرمتهم ثقيف بالحجارة والنبل ، ونصب رسول الله صلى الله عليه وسلم منجنيقا على حصنهم ، وكانت مع المسلمين دبابة من جلود البقر ، فألقت عليها ثقيف سكك الحديد المحماة فأحرقتها فأصيب من تحتها من المسلمين ، وكان حصار رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف خمس عشرة ليلة وكان غزوه إياها في شوال سنة ثمان قالوا ونزل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رقيق من رقيق أهل الطائف ، منهم أبو بكرة بن مسروح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه نفيع ومنهم الازرق الذي نسبت الازارقة اليه كان عبداً رومياً حداداً وهو أبو نافع بن الازرق الخارجي فأعتقوا بنزولهم ، ويقال ان نافع ابن الازرق الخارجي من بني حنيفة وان الازرق الذي نزل من الطائف غيره .

ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف الى الجعرانة ليقسم سبي أهل حنين وغنائمهم ، فخافت ثقيف أن يعود اليهم فبعثوا اليه وفدهم فصالحهم على أن يسلموا ويقرهم على مافي أيديهم من أموالهم وركازهم ، واشترط عليهم أن لا يربوا ولا يشربوا الخمر وكانوا أصحاب ربا وكتب لهم كتابا ، وكانت الطائف تسمى وج فلما حصنت وبني سورها سميت الطائف »

ثم قال البلاذري: حدثني المدائني عن أبي اسماعيل الطائفي عن أبيه عن أشياخ من أهل الطائف ، قال : كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا بها للتجارة فوضعت عليهم الجزية ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف ، قالوا : وكانت للعباس بن عبد المطلب رحمه الله أرض بالطائف وكان

الزبيب يحمل منها فينبذ في السقاية للحاج وكانت لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها ، فلما فتحت مكة وأسلم أهلها طمعت ثقيف فيها حتى اذا فتحت الطائف أقرت في أيدي المكيين وصارت أرض الطائف مخلافا من مخاليف مكة ، قالوا وفي يوم الطائف أصيبت عين أبي سفيان بن حرب » اه

قلت ان من عرف ان أكثر المؤرخين ينقلون في الفتوح عن البلاذري نظراً لقرب روايته من أيام الفتح ومتانة أسانيده وقارن بين رواية ياقوت الحموي في معجم البلدان ورواية البلاذري فى فتوح البلدان ، علم ان ياقوت انما أخذ عن البلاذري لان العبارة تكاد تكون واحدة . وقد نقلها البلاذري عن الكلبي ، وانما تجنب ياقوت أن يذكر ان الازرق الذي نسبت الازارقة اليه « كان عبداً رومياً حداداً » لأن ياقوت نفسه كان عبداً رومياً فحذف من روايته عن البلاذري مايذكر الناس بأصله هو . . .

وقد روى محمد بن سعد بن منيع صاحب « الطبقات الكبرى » غزوة الطائف كما يلي :

« ثم غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف في شوال سنة ثمان من مهاجره . قالوا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين يريد الطائف وقدم خالد بن الوليد على مقدمته وقد كانت ثقيف رمّوا حصنهم وأدخلوا فيه مايصلحهم لسنة ، فلما انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم وتهيؤا للقتال وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قريباً من حصن الطائف وعسكر هناك ، فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً كأنه رجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة وقتل منهم اثنا عشر رجلا فيهم عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة وسعيد بن العاص ، ورمي عبدالله بن أبي بكر الصديق يومئذ فاندمل الجرح ثم انتقض به بعد ذلك فمات منه : فارتفع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى موضع مسجد الطائف اليوم ، وكان معه من نسائه أم سلمة

وزينب فضرب لهما قبتين ، وكان يصلي بين القبتين حصار الطائف كله فحاصرهم ثمانية عشر يوما ونصب عليهم المنجنيق ونثر الحسك (١) سقبين من عيدان حول الحصن (٢) فرمتهم ثقيف بالنبل فقتل منهم رجال ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع أعنابهم وتحريقها فقطع المسلمون قطعا ذريعا ثم سألوه أن يدعها لله وللرحم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فاني أدعها لله وللرحم » ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما عبد نزل من الحصن وخرج الينا فهو حر » فخرج منهم بضعة عشر رجلا منهم أبو بكرة نزل في بكرة فقيل أبو بكرة فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفع كل رجل منهم الى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في فتح الطائف . واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم نوفل بن معاوية الديلي فقال « ما ترى ؟ » فقال ثعلب في جحر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل فضج الناس من ذلك وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فاغدوا على القتال » فغدوا فأصابت المسلمين جراحات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنا قافلون إن شاء الله » فسروا بذلك وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « قولوا لا إله إلا الله وحده صدق ، وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » فلما ارتحلوا واستقلوا قال « قولوا آئبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون » وقيل : يارسول الله ، أدع الله على ثقيف . فقال « اللهم اهد ثقيفا وائت بهم »

« أخبرنا عمرو بن عاصم الكلابي أخبرنا أبو الاشهب أخبرنا الحسن قال :

---

(١) آلة من الحديد واحيانا من الخشب تلقى حول العسكر لتنشب في رجل من يدوسها وهى اشبه بما يقال له اليوم الاسلاك الشائكة

(٢) السقب بفتح فسكون الطويل من كل شيء وكل شيء تم وامتلأ فهو سقب والغصن الغليظ الريان ، سقب انتهى والحاشيتان للمؤلف

حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف قال فرمي رجل من فوق سورها فقتل فأتى عمر فقال : يانبي الله ادع على ثقيف . قال « إن الله لم يأذن في ثقيف » قال فكيف نقتل في يوم لم يأذن الله فيهم ؟ قال « فارتحلوا » فارتحلوا اه

وقالوا في كتب السير في سبب غزاة الرسول للطائف : انه لما حصرته صلى الله عليه وسلم قريش في الشعب ومات عمه ابو طالب الذي كان يحوطه وماتت زوجته خديجة التي كانت تثبته وتقر عينه في الناس ، خرج الى الطائف من شدة الكرب يرجو عند أهلها النصرة لان الله جعل الطائف متنفساً لاهل مكة . فلما انتهى رسول الله الى الطائف عمد الى نفر من ثقيف وهم ثلاثة اخوة: عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب ابناء عمرو بن عمير بن عوف الثقفي ، وكانوا سادات قومهم ، وكانت تحت أحدهم امرأة من قريش من بني جمح . فجلس اليهم رسول الله يدعوهم الى الاسلام والى نصرته فيما جاء به . فقال له أحدهم : امرط ثياب الكعبة أن كان الله ارسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله من يرسله غيرك ؟ وقال الثالث والله لا أكلمك ابداً ، لئن كنت رسول الله كما تقول لانت اعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك . فقام رسول الله ﷺ وقد يئس من خير ثقيف وقال لهم « إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا ذلك عني » وكره ﷺ أن يبلغ ذلك قومه فيثيرهم . ولكن هؤلاء لم يفعلوا فاغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ونحوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه . ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . ثم جلس في ظل حبلة من عنب (الحبلة بالتحريك شجرة العنب) وابنا ربيعة ينظران اليه

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اليك اشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، ياأرحم الراحمين ، انت رب المستضعفين ، وانت ربي

الى من تكلني؟ أإلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته امري، ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي اوسع بي. اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت به الظلمات، وصلح عليه امر الدنيا والآخرة، من ان ينزل بي غضبك أو على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»

فلما رآه ابنا ربيعة وما لقي تحركت له رحمتهما فدعوا غلاما لهما نصرانيا، وقيل يهوديا، يقال له عداس فقالا له: ياعداس خذ قطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق واذهب به الى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه. ففعل عداس ثم اقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له كل. فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال «بسم الله» ثم أكل. فنظر عداس في وجهه ثم قال. والله ان هذا الكلام مايقوله اهل هذه البلاد. فقال له رسول الله «ومن أي البلاد انت؟» فقال. انا رجل نصراني من أهل نينوي، فقال رسول الله «أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟» فقال عداس وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال له رسول الله «ذاك اخي، كان نبياً وانا نبي» فاكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه واسلم، فقال احد ابني ربيعة لاخيه اما غلامك فقد افسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا ويلك ياعداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ فقال ياسيدي ما في الارض شيء خير من هذا الرجل، لقد اخبرني بامر لا يعلمه إلا نبي. قالا له ويحك ياعداس لا يصرفنك عن دينك فان دينك خير من دينه ـ ولكن عداسا لم يتزعزع بقولهما، ولا يزال في المثناة محل يزار يقال انه المكان الذي اسلم فيه عداس

وقد روى اهل السير أن رسول الله لما خرج الى الطائف يدعو ثقيفا الى الاسلام كان معه زيد بن حارثة وأقام شهراً يدعوهم الى الله ولم يجيبوه، ثم اغروا به سفهاءهم وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى لقد شج في رأسه ﷺ وحتى إن رجليه

لتدميان ، وزيد يقيه بنفسه . ثم انه غزا الطائف وضرب في اثناء حصاره الطائف قبتين لزوجتيه: أم سلمة وزينب رضى الله عنهما . وكان يصلي بين القبتين. فلما أسلمت ثقيف بني عمرو بن أمية بن وهب بن مالك على مصلى رسول الله ﷺ مسجداً.

قالوا ونصب الرسول على حصن الطائف منجنيقا قيل اشار به سلمان الفارسي رضى الله عنه، وقيل قدم به الطفيل بن عمرو ، وقيل يزيد بن زمعة ومعه دبابتان وقيل قدم بالمنجنيق وبالدبابتين خالد بن سعد بن حريش، وكانوا يضعون الدبابات ويغطونها بجلود الابل والبقر ويدخلون في جوفها فتقيهم من السهام والحجارة .

ثم قال ابن فهد في تاريخه للطائف ، نقلا عن الحافظ مغلطاى : ان هذا المنجنيق هو اول منجنيق رمي به في الاسلام. وقد نثر رسول الله الحسك حول حصن الطائف . ورمى رجال ثقيف الدبابتين بسكك الحديد المحماة بالنار فأحرقت الدبابتين وأصيب جماعة من المسلمين . وقالوا ان رسول الله قال « لم يؤذن في ثقيف » ثم انصرف من الطائف إلى الجعرانة، وأرادوه على أن يدعو على ثقيف فكان دعاؤه « اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم » ولما اسلمت ثقيف ثبتت وحسن اسلامها ولما لحق رسول الله بالرفيق الاعلى وارتدت العرب ثبتت ثقيف على الاسلام ومن ارتد منهم قتلوه وقالوا مادخلنا آخر الناس إلا لما تبين لنا من الحق

﴿ وجوب اتخاذ آلات الحرب الحديثة وفنون صناعاتها ﴾

قلت: ان رسول الله ﷺ قد استخدم اذاً الصناعة في الحرب بما أجمعت عليه الرواة من ضربه حصن الطائف بالمنجنيق ونثره حوله الحسك وقتاله بالدبابات وكل هذا من الصناعة المحضة فالمنجنيق كان بمنزلة المدفع في هذه الايام. والحسك أشبه بالاسلاك الشائكة ، والدبابات هي دبابات « التانك » التي يصفحونها اليوم بالفولاذ حتى لايخرقها الرصاص ، وكانوا في ذلك العصر يجللونها بالجلود ، وعليه يكون استعمال الآلات الحربية بأنواعها سنة نبوية أكيدة لايجوز اهمالها ولا التهاون

بها هذا فضلا عن الامر الالهي الصريح الذي تتضمنه آية (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة) ونحن مع الاسف نرى المسلمين اليوم أقل الامم اعتناء بالميكانيكيات والطبيعيات والكيمياء وجميع العلوم التي يكفل لهم اتقانها الحيل الحربية وجر الاثقال واختراع الآلات التي توفر دماءهم وتصون دهماءهم ، ونرى جمهور علمائهم نافرين من هذه العلوم والفنون كانها من عمل الشياطين، يقضون الاعمار الطويلة في درس علوم مخصوصة لا يتعدونها ، من نحو وصرف وحديث وتفسير وما أشبه ذلك مما لاشك في ضرورته ، لانه به قوام اللغة والعقيدة، ولكنه ليس يغني أصلا عن العلوم الطبيعية التي هلك اليوم من أهملها وعن الميكانيكيات التي لو أفرغوا لها من الوقت ربع ما أفرغوه للحديث والتفسير والفقه والنحو والصرف لكانوا من الصناعة ومن ثم من التجارة والثروة على حظ يضاهي حظوظ الامم الاوربية ، ولكننا قد أهملنا علوم هذه الدنيا وحصرنا جميع عنايتنا بعلوم الآخرة (١) غير ذاكرين ان الاسلام انما هو شرع دنيا وآخرة ، وان من أهمل أحد الشقين فهو آثم ، كما لو أهمل الشق الآخر .

ونعود الى الدبابات فنقول :

ان الافرنج قد استعملوها من القديم ، وأهم ما روي عنهم فيها ما صنعوه في حصار عكا في الحرب الصليبية . فقد صنعوا ثلاثة أبراج طول البرج ستون ذراعا جاءوا بخشبها من جزائر البحر وعملوها طبقات وشحنوها بالمقاتلة ولبسوها جلود البقر والطين بالخل وقربوها من الاسوار ، وكادوا يأخذون بها البلد لان المسلمين رموها بالنيران فلم تعمل فيها فحاروا في أمرهم ودخل عليهم من الخوف ما لا يوصف قال ابو الفداء : فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الاول فاحترق بمن فيه من الرجال

«١» قد ضعفت كل هذه العلوم ايضاً في جميع الامصار الاسلامية وقلما يوجد احد يشتغل بها لأجل الآخرة

والسلاح ، ثم أحرقوا الثاني والثالث وانبسطت نفوس المسلمين لذلك بعد الكآبة. وقد روى بهاء الدين ابن شداد في سيرة صلاح الدين يوسف الايوبي — وكان ابن شداد شاهداً تلك الوقائع ملازما للسلطان : ان الذي تحيل لاحراق هذه الابراج المسيرة على العجل بعد أن أعياهم أمرها كان نحاسا حمويا قال للمسلمين : أنا أكفيكم أمرها بشرط أن تهيئوا لي كذا وكذا — وذكر مواد أتوا له بها — فطبخ من هذه المواد ثلاث قدور ورمى كل دبابة بقدر منها فلم تكد تصيبها حتى اشتعلت بمن فيها جميعا فكان من فرج المسلمين بصناعة هذا النحاس الحموي مالا تفي به عبارة

وقد ذكر المستشرق الفرنسي الشهير رينو Reinaud صاحب كتاب «غارة العرب على فرنسة » انه لما زحف العرب من الاندلس الى فرنسة وافتتحوا اربونة Narbonne وقرقشونة Carcassonne ووصلوا الى افينيون وليون وغيرها تحت قيادة السمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي والحر الثقفي كانت معهم آلات لم تكن عند الافرنج في ذلك العصر ذكر « رينو » ذلك في كلامه على حصار السمح الخولاني لطلوزة Toulouse

فاليوم قد انعكست الامور وصرنا في وسائل الدفاع عيالا على أعدائنا أنفسهم ، فان طاب لهم أن يتفقوا علينا ويمنعوا عنا السلاح بأجمعه أمسينا وليس ماندافع به طياراتهم ودباباتهم ومدافعهم وقذائفهم سوى أصابعنا وأظافرنا ، ولقد رأيناهم بالفعل قرروا منع الاسلحة عن جزيرة العرب في مؤتمر نزع السلاح الذي انعقد منذ بضع سنوات في جنيف ووقع هذا القرار بأصوات أكثرية الدول بناء على رغبة انكلترة وفرنسة وايطالية وتوابعهن ، وغاية ما فعلته الاقلية انها استنكفت عن اعطاء الرأي لا سلبا ولا ايجابا ، وهي لو كانت راضية عن سياسة الاكثرية لما تأخرت عن موافقتها على منع السلاح عن العرب . فكان اعتناء العرب وجميع العالم الاسلامي بقضية التسلح فرضاً عليهم كفرض الصلاة ، إذ

لا بقاء لهم بدونه ، وكان هذا متوقفا على الصناعة التي هي من ثمرات العلم الطبيعي، ولاجل هذا كان انصراف المسلمين الى اتقان العلوم الطبيعية وادخالها بحذافيرها في برامج تعليمهم من الامور الحيوية التي لا يجوز أن يغفلوا عنها طرفة عين .

وأراني قد بعدت عن الموضوع الذي كنت فيه وليست هذه بأول مرة جرّنا الاستطراد الى ماهو بعيد عن المقام الذي نكون فيه ، ولكننا في كل مرة لم نخرج الى شيء غير مرتبط بأصل الموضوع .

عود الى الطائف

وآثار حضارة العرب فيها

ولنعد إلى سياحتنا في الطائف وجبالها بعد أن روينا مالا بد منه من تاريخها فنقول :

من أنصع الدلائل على مدنية العرب ، لا في دور الجاهلية فقط بل في صدر الاسلام أيضاً - كثرة الكتابات المنقوشة على الصخور

فمن المعلوم ان الامم الهمجية لا تعرف قيد الحوادث ولا تخليد الذكريات ولا تفكر في اطلاع الاعقاب على ماجري في سالف الاحقاب، وانه لا يعنى بأمور كهذه إلا من علا كعبهم في الحضارة، وبعد شأوهم في العمارة ، وهذه أمم الافرنجة اليوم بعد أن بلغوا مابلغوه من هذا المدى البعيد في المدنية نجدهم لا يبرحون يشيدون المباني وينحتون التماثيل ويقيمون الانصاب، وينقشون عليها كلها التواريخ المتعلقة بها خدمة لعلم التاريخ في مستقبل الدهر، وحرصاً على اطراد سلسلته ووصل فصوله، وتفاديا من انقطاع أسانيده وضياع مصادره . وبالجملة لا يجتمع حفر الكتابات والنقش على الصخور مع الجهل والانحطاط وخلوا الدار من الفاضل، وما عثرنا في أثناء الحفر عمداً أو عرضاً على حجارة من أنقاض السلف عليها كتابات قديمة

إلا وجدناها محررة بلغات أمم عظيمة الآثار، جليلة الاقدار، كالرومانيين واليونانيين ومن قبلهم كالمصريين والفينيقيين والحثيين والبابليين والعرب الذين كان الناس لايدركون درجة مدنيتهم العالية في الاعصر المتوغلة في القدم الى أن اطلعوا على ماتركوه من المباني الباذخة والقصور الشاهقة والمصانع والسدود وغير ذلك من الآثار الدالة على رسوخ الحضارة وقرأوا ماعليها من الكتابات بالحميرية

وقد كان أول من نبه على ذلك الهمداني الحسن بن أحمد صاحب كتاب «صفة جزيرة العرب» وكتاب «الاكليل» لا سيما في الجزء الثامن من الاكليل الذي فيه ذكر محافد اليمن ومساندها وقصورها ونقل كتابات بالقلم المعروف بالمسند، وجاء بعض المستشرقين مثل «مولر» وغيره فحققوا ماقاله الهمداني ولم يجدوا فيه مبالغة، ونشر «مولر» كتابا طبعه في «فينا» سنة ١٨٨١ عن هذه الآثار الباهرة واعتمد في تأليفه على «الاكليل» (١)

(١) (حاشية المؤلف) هذا الكتاب عشرة اجزاء في اول الجزء الثامن منه ما يلي: الجزء الثامن من الاكليل للحسن بن أحمد الهمداني وهو كتاب محافد اليمن ومساندها ودفائنها ومراثي حمير والقبوريات وشعر علقمة، والمحفد القصر، وانما سمي محفداً لحفود الناس حوله اى شدهم وقصدهم، منه دعاء الوتر «إليك نسعى ونحفد» والحفد الخدم. واعلم ان كتاب الاكليل عشرة أجزاء. فلاول مختص في المبتدا واصول الانساب والثاني نسب ولد الهميسع بن حمير. والثالث في فضائل قحطان. والرابع في السيرة القديمة الى عهد تبع ابى كرب. والخامس في السيرة الوسطى من اول ايام اسعد تبع الى ايام ذو نواس. والسادس في السيرة الاخيرة الى الاسلام. والسابع في التنبيه على الاخبار الباطلة والحكايات المستحيلة. والثامن في ذكر قصور حمير ومدنها ودواوينها وما حفظ من شعر علقمة والمراثي والمساند. والتاسع في امثال حمير وحكمها باللسان الحميري وحروف المسند. والعاشر في معارف حاشد وبكيل. والله اعلم واحكم =

وملخص الكلام انه لايتصور العقل بلاداً تكثر فيها النقوش والرسوم على الحجارة المنضودة في الابنيـة أو الصخور المبعثرة في الجبال والفلوات إلا اذا كانت تلك البلاد في أعصرها الخوالي حافلة بالعمران موصوفة بكثرة السكان .

ومما لاريب فيه أن الطائف وجبالها كانت من جملة أقسام الجزيرة العربية المعمورة وانه قد تقلص عمرانها كما تقلص عمران سائر الجزيرة بسبب الفتوحات الاسلامية التي ضربت من الجزيرة إلى الصين والهنـد شرقا ، وإلى الاناضول

= كنت سمعت بوجود جزء من هذا الكتاب في مكتبة جامع بايزيد في استنبول فارسلت الى الاخ الفاضل خالد بك القرقني الطرابلسي الغربي المنسوب الى بني هردماوك سرقسطة بالاندلس وكان يومئذ بتلك العاصمة ليحث لي عنه فوجدهم نقلوه الى مكتبة دار الفنون ونقل لي بعض صفحات منه، فاذا به الجزء الثامن، وقال لي انه قد بلغه وجود نسخة من هذا الجزء في برلين، فلما ذهبت الى برلين اواخر السنة الماضية ١٩٣٠ بحثت عنه في المكتبة الملوكية فوجدت منه جزئين الجزء الثامن والجزء العاشر، ووجدت مع الجزء العاشر في جلد واحد بعض رسائل منها شيء عن المعادن التي في اليمن وكتاباً من تأليف الملك الاشرف ابى حفص عمر ابن رسول الغساني اسمه (طرفة الاصحاب في معرفة الانساب) فاخذت صور جميع ذلك بالفوتوغرافيا، وبينما انا مصمم على طبع هذين الجزئين من الاكليل اذ بلغني ان اللغوي المحقق الاب انستاس الكرملي مباشر طبع الجزء الثامن ببغداد معتمداً في ذلك على خمس نسخ وقعت في يده وانه سيطبعه مع حواش وتفاسير، فلما علمت ذلك وقفت عن طبع هذا الجزء حتى ارى ما يكون ثم اني ارسلت الى حضرة صاحب السمو صديقي الامير سيف الاسلام محمد والي تهامة ونجل الامام المتوكل على الله يحي بن محمد بن حميدالدين صاحب اليمن اسأله عما يوجد من اجزاء هذا الكتاب في اليمن، فاجابني بانه لا يوجد من الاكليل الا جزءان وثلاثة مقطعة مفرقة، وانه مع ذلك سيبحث ثانية وهذا ما عرفنا الى الان عن هذا الكتاب

.

والطاغستان شمالا ، وإلى الاطلنتيك غرباً، وكانت كلها على أيدي العرب الذين التهمتهم القواصي وأفنى رجالهم قراع الكتائب ، فخلا كثير من ديارهم الاصلية ، وصفرت الجزيرة من تلك الجموع التي كانت تموج بهـا ، وتداعت القصور ، وانهارت السدود ، وتعطلت القنى ، وتصوحت النضرة ، وعطشت الارض . وأما الكتابات المنقوشة على الصخور فلم يضر بها الجوع ولا العطاش، فبقيت على حالها ناطقة بما كان ثمة من عمران سابق ومجد سامق

ولقد أتيح لي ان أرى طرفا من هذه الكتابات وان اقرأ بعضها وان يشكل علي قراءة البعض الآخر، فعولت فيه على بعض الاساتيذ المخصصين بمعرفة الخطوط القديمة، وذلك اني نسخت ماقرأته في جبل السكارى في وسط الطائف وبعثت به إلى برلين وذلك إلى الاستاذ مورتيز من فحول المستشرقين . فحل الكتابة وأعادها لي، ولم تكن من الخط المسند بل من الخط الكوفي القديم الذي لم نألفه فان الخط الكوفي ليس شكلا واحداً . وهذه الكتابات خالية مع الاسف من التواريخ .

وأكثر ماعثرت به من هذه الكتابات في كل محل خلو من ذكر السنة التي كتبت فيها إلا ماكان منها متأخراً من آثار القرن الرابع والقرن الخامس للهجرة وما بعد ذلك فهو مؤرخ بالاشهر والسنين كما هي العادة ، ويظهر ان الكتابات التي في جبل السكارى هي من القرن الاول للهجرة وربما كان بعضها من زمن الجاهلية ونص واحدة منها « اعف يا الله، عبدك أود بن موسى » ونص أخرى « اياد بن عيفر بن أوس، بربه واثق » ونص أخرى « بالله محمد بن عبد الرحمن ابن أبي (كلمة لم تمكن قراءتها) واثق بالله » ونص أخرى « اللهم حكم عبدك عيفر بن ابي قبيع من النادي وكتب » ونص أخرى « اللهم صل على محمد النبي وكتب محمد بن ابي قبيع » وجبل السكارى هذا على طرف الطائف إلى جهة المثناة ـ رابية لاتعلو أكثر من ستين متراً عن سطح الارض، لكنها لشدة قربها من البلدة يشرف

الذي يتوقل فيها على جميع الطائف وبساتينها فيقصد الناس النزهة هناك ، ولما كان الجبل كله صخريا كانت فيه جنادل كثيرة بعضها فوق بعض . ومنها ماهو ملاق الآخر على شكل يتكون منه شيء أشبه بالكهف فيتقي الذين يقيلون تحت هذه الصخور حر الشمس

وقد كان لنا هناك قيلات لم نزل نتذكر لطفها بدعوة الشيخ عبد القادر الشيبي كبير سدنة البيت الحرام الذي هو المثل البعيد في الكرم وحسن الوفادة والذي ذكرته مراراً في هذه الرحلة إلى ان قال لي الكثيرون : تالله تفتأ تذكر الشيبي ، فقلت ارتجالا :

يقولون لي: نبغي جواب سؤالنا ويسألني عن ذاك صحبي وجلاسي
لماذا نرى الشيبي عندك أولا وتؤثره في كل شيء على الناس
فقلت :أرى الشيبي يندر مثله ببر واكرام ولطف وإيناس
وفي خدمة الاسلام قدشاب مفرقي لذاك أرى الشيبي تاجا على رأسي

وبعد ان برحت الحجاز بقيت المكاتبة بيني وبين الشيخ المشار اليه متصلة يتخللها النظم والنثر ، ومقابلة الشيء بمثله من القافية والبحر . ولا عجب في فصاحة بني شيبة وهم لباب قريش وخلاصة العرب ، والمقصر فيهم سابق حتى لقد قرأت في « بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس » لاحمد بن يحيى بن احمد بن عميرة الضبي ان أبا العباس احمد بن رشيق الكاتب لما كان في سن المراهقة يطلب علم النحو بتدمير من بلاد الاندلس دخل عليهم من طريق البحر رجل أسمر ذكر انه من بني شيبة حجبة البيت وانه يقول الشعر على طبعه ولا يقرأ ولا يكتب . وكان يقول انه دخل عليه اللحن بدخول الحضر وروى ابن رشيق من شعره :

ياخليلي من دون كل خليل لاتلمني على البكا والعويل
إن لي مهجة تكنفها الشو ق وعينا قد وكلت بالهمول

كلما عودت هتوف العشايا والضحى هيجت كمين غليـل
ذات فرخين في ذرى أثلات هدلات غضف الذوائب ميـل
لم يغيبا عن عينهـا وهي تبكي حذر البين والفراق المديل
أنا أولى بغربتي وانتزاحي واشتياقي منها بطول العويل
حل أهلي بالابطحين وأصبحـ ـت مع الشمس عند وقت الافول

فأنت ترى فصاحة الامي منهم، فما ظنك بالمتأدب الذي قرأ العلم وثافن العلماء ورأى من رجال الاسلام قصاد البيت الحرام مالم يتيسر لأحد ان يره .

ثم ان لهذا البيت من مزية خدمة البيت مالا يشركهم فيه غيرهم منذ بضعة عشر قرنا حتى ان النبي ﷺ لما فتح مكة قال لقريش « ماتظنون ؟» قالوا: نظن خيراً ونقول خيراً، اخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ، قال «فاني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام (لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)» ثم قال ﷺ « الا كل دين ومال ومأثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي إلا سدانة البيت وسقاية الحاج »

وحدثوا من طريق آخر انه ﷺ قال في خطبة « الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر جنده ،وهزم الاحزاب وحده ، ألا ان كل مأثرة في الجاهلية وكل دم ودعوى موضوعة تحت قدمي، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » وقالوا ان النبي ﷺ كان أخذ مفتاح البيت يوم فتح مكة من عثمان بن طلحة بن ابي طلحة ثم نزلت الآية (إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها) فاستدعى عثمان وأعاد اليه المفتاح قائلا له « خذوها يابني ابي طلحة بامانة الله سبحانه لاينزعها منكم إلا ظالم » وفي رواية أخرى « خذوها يابني ابي طلحة خالدة تالدة لايظلمكموها إلا كافر » وقيل « إلا ظالم » ولهـذا بقي مفتاح البيت في هـذا البيت إلى اليوم ، و ليس في مكة أعرق منهم لانه لم يبق من صـدر الاسلام ملازما مكة بسبب

سدانة البيت غيرهم . ولقد رأيت فتاوى كثير من العلماء في وجوب البر بهم مكافأة على هذه الخدمة المقدسة التي اختصوا بها بحكم الذكر من قديم الدهر

هذا ولقد ذكر السيد خير الدين الزركلي جبل السكارى الذي كنا بصدده وقال انهم يسمونه « ام السكارى » وروي عن قاضي الطائف الذي كان يومئذ (سنة ١٣٣٩) أن على هذا الجبل أسطراً تاريخها سنة ١٨٨ قال فصعدته ورأيت كتابات كثيرة ولم أر التاريخ الذي ذكره (قلت) وأنا لم أر كتابة عليها تاريخ ، ولكن يجوز أن تكون على صخر لم يقع نظرنا عليه فان هذا الجبل مغطى بالصخور وفيه مقطع حجارة لبناء أهل الطائف وليس كل ما يراه الواحد يراه الآخر

وأما تسمية هذا الجبل « بأم السكارى » أو جبل « السكارى » فنظنها من جهة اجتماع الناس فيه للنزهة والشرب من أيام الجاهلية . ويقال ان أبا سفيان ابن حرب انما اجتمع مع سمية أم يزيد في هذا الجبل اتاه بها أبو مريم الخمار

وهناك جبل مناوح لمسجد ابن عباس على مسافة ٢٠ دقيقة منه ، فيه صخور كثيرة عليها كتابات وصور حيوانات . ومن هذه الكتابات ما يظهر انه قديم ومنه ما هو من القرن الثالث أو الرابع او الخامس . وقد نقل الخير الزركلي منها كتابة هي (ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وفي آخرها « محمد بن مهدن »

وجبل آخر اسمه « الردف » بفتح الدال وتشديدها . يذهب السائر اليه من الباب الذي بقرب مسجد ابن عباس رضي الله عنه ويأخذ الوصول اليه نحو ساعة من الزمن على طريق بستان « حوايا » وبستان « شهار » وفي « الردف » هذا حجارة كبيرة مترادفة على بعضها كتابات قرأنا بعضها وهو من الخط الكوفي القديم من القرن الاول وما يليه . نقل من ذلك الخير الزركلي في كتابه (ما رأيت وما سمعت) الجمل الآتية :

(عبدالله بن علي بن أبي محجن يسأل الله بوجهه الكريم الجنة)

(عبد الله بن علي بن ابي محجن يسأل الله القتل في سبيله على بركته)

(عبد الرحمن بن سعيد بن عبد الرحمن يشهد أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما)

وبينما كنا قافلين من وادي «لية» الى الطائف رأينا ايضاً كتابات على صخور منها كتابة ممحوة بعض كلماتها فهمنا منها انه كان أصاب البلاد قحط وأمطروا بعد ذلك ورأينا كتابات على الصخور في طريق الطائف إلى وادي محرم . وقد تقدم اننا رأينا خطوطا كوفية وأخرى من القرن السادس في سيدنا عكاشة من ارض الوهط وقيل لي ان بين المدينة المنورة وحائل كتابات كثيرة ولا أعلم هل هي من الخط الكوفي أو من الخط النبطي أو من خطوط أخرى ؟ وغاية مايدرك الانسان من كثرة هذه الخطوط في جزيرة العرب انها كانت حافلة بالسكان، بالغة الشأو الاقصى من العمران . وان الفتوحات الاسلامية أثرت في درجة عمرانها فغلبت عليها البداوة في التالي . ويظن بعضهم ان هناك أسبابا طبيعية أيضا تقاص بها العمران: من غيض مياه ونضوب أنهار جارية وما أشبه ذلك مما حدا العرب الى الجلاء والتفرق في الاقطار

ونعود إلى الطائف فنقول : ان عمرانها كان قبل الحرب العامة أكثر منه اليوم بكثير ، وانه بسبب الحرب بين الشريف حسين والاتراك ثم بينه وبين النجديين خرب جانب كبير منها ونزح أكثر سكانها

﴿ اشراف الحجاز على العمران ، بشمول العدل والامان ﴾

وقد بدأ عمرانهـا بل عمران الحجاز كله بالتراجع في هاتين السنتين بعد استقرار الامن وشمول الدعة مما أقر به القاصي والداني واعترف الناس بالفضل فيه لله ثم لابن سعود

ولقد شافهـتنا هناك الاهالي في الفرق الذي بين حالتهم الحاضرة وحالتهم الماضية فأجمعوا على ان نعمة الامن التي هم متمتعون بها الآن لم يعرفوا شيئا منها من قبل لا هم ولا آباؤهم ولا أجدادهم ولا سمعوا بها عن سلفهم

حدثني بعض الاشراف الهـاشميين من أولاد امراء مكة انفسهـم انهم كانوا في القرى التي لهم حول الطائف يوصدون أبوابهم ليلا ولا يفتحونها لأي طارق خيفة الغيلة وحذراً من سطو اللصوص حتى جاءهذا العهد السعودي فصاروا يأمنون أن يبيتوا وأبوابهم مفتحة وصاروا يفتحون لاي طارق جاءهم

وحدثني الجميع انهم كانوا لا يقدرون على التجوال الا مسلحين ، فأصبح الآن كل انسان يجول في الحواضر والبوادي أعزل لا يحمل شيئا ولا السكين وقد يكون حاملا الذهب ولا يخشى عادية ولا حادثة . وكثيراً ما يترك الناس أوقار دوابهم في قارعة الطريق وتبقى أياما وليالي إلى ان يعود أصحابها فيأخذوها ولا يجرأ احد ان ينظر اليها

وقيل ان عِدْلا من الشعير تركه صاحبه لإعياء مس دابته ومضى ينشد دابة أخرى يحمل عليها عدله فجاء ووجد في العدل ثقب سكين تتساقط منه حبوب الشعير فأخبر الشرطة فلم يزالوا يبحثون حتى عرفوا ذلك الرجل الذي وجأ العكم بسكينه وجلدوه بالسياط ، لانه حاول أن يعرف ما احتوى عليه ذلك العكم (١)

---

١) حكى الريحاني وغيره مثل هذه الحادثة في بلاد نجد والحالة العامة تلد حوادث متشابهة

وكل يوم يؤتى الى دوائر الشرطة في كل بلدة بأمتعة وأسباب وحوائج وأموال منها الكثير ومنها القليل ومنها الثمين ومنها الخسيس مما يجده السابلة في الطرق اتفاقا، فلا تجد أحداً يطمع في شيء بعد أن كان الدعَّارة يذبحون ابن السبيل من أجل حاجة لا تكاد تساوي قطميراً

فسبحان الذي أدال من تلك الحال لهذه الحال ، وأوقع الرعب في قلوب الادعار، في السهول والاوعار . وليس في باب الامن في ممالك ابن سعود متطلع لمزيد ، وقصار ما يتمنى الانسان دوام هذه النعمة

ومن هذا الباب ان الثارات والدماء كانت بين قبائل العرب متصلة والغارات مستمرة، وانه إذا وقع دم بين قبيلة وأخرى انقطع كل اتصال بينهما وصار ابن احداهما لا يقدران يمر بارض الاخرى إلا تحت خطر القتل . وقد سمعت من القبائل التي شافهتها في الحجاز انها الى زمن استيلاء ابن سعود كان بعضها لا يقدر أن يدخل منطقة بعض ولو كان في أقرب محل اليه ، وان كل ذلك قد نسخ الآن باحكام ابن سعود وصار الناس يمر بعضهم بارض بعض عزلا من السلاح ولا يخشى أحد منهم مكروها ، وانطوت تلك الثارات والذحول كأنها لم تكن، ولا نظن ان الاعراب ينسون الثارات وليس ذلك من طبيعتهم ولكنهم اذا وقعت هيبة السلطان في قلوبهم وعرفوا ان ليس عند السلطان الا العدل واقامة الحد الشرعي بدون هوادة مع أحد انقادوا للاحكام انقياد الغنم

لهذا تجد العمران قد بدأ يتراجع إلى الحجاز بشمول الامن واستراحة الفكر فالقوافل والسيارات الكهربائية ذاهبة جائية تخترق الصحاري بالامنة التي تمر بها في شوارع البلد الحرام ، والناس بعد ان امنوا على أموالهم وزروعهم وضروعهم قد نشطوا للعمل ووثقوا بالمستقبل ، واذا مضت عشرون سنة ـ وهذه الحالة لم تتبدل وهذه الامنة ممتدة الرواق على البلاد كما هي اليوم ـ فان البلاد تسير شوطا

بعيداً في ميدان الفلاح، ويتضاعف عدد قطينها، وترتفع أثمان أراضيها، ويقصد اليها كثيرون من أهل العالم الاسلامي الذين يثقل عليهم حكم المستعمرين الاوربيين، كما كانوا بدأوا يهاجرون اليها قبل الحرب العامة . مع ان أمنة السوابل لم تكن حينئذ كما هي الآن

ومن الاغلاط المشهورة التي شهرتها لاتمنع كونها غلطا الظن بان بلاد الحجاز هي من القحولة بحيث لاتتحمل عدداً من السكان يزيد على أهاليها الحاضرين وان زاد فلا يكون إلا قليلا ، وان الحجاز ناشف، وان الحجاز يابس، وان الحجاز كثير الحجار والحرار قليل الرياض والغياض، غير اريض الاراض الى غير ذلك من وجوه الاعتراض . وهذا كله من الكلام المرسل بدون تحقيق، الذي يقوله من لايعرف الحجاز او لايعرف شيئاً عن الحجاز او بعض الكسالى من أهل الحرمين الشريفين الذين يبدون ويعيدون أمام حجاج البيت الحرام وزوار الروضة النبوية عن فقر الحجاز تعمداً منهم، ليستزيدوا بر الحجاج بهم، ويستدروا عوارف العالم الاسلامي عليهم

وحقيقة الحال انه لو كان سكان الحجاز ثمانية اوعشرة ملايين نسمة لكان ثمة مكان لهذا القول . ولكن بدون أن نعرف بالتدقيق عدد أهالي الحجاز نقدر ان نقول انهم جميعاً بدواً وحضراً لايزيدون على مليون نسمة وربما لايناهزون هذا العدد . وان من عرف جزءاً من الحجاز - لا كله - علم ان الحجاز إذا قام أهله على فلاحه وزرعه حق القيام أعاش منهم ملايين بالراحة التامة، واصار اليهم من الخيرات مالا يذكر موسم الحج في جانبه شيئاً

ولقد رأيت على مقربة من مكة وادي فاطمة الممتد إلى وادي الليمون مسافة خمس عشرة ساعة فرأيت جنة من جنان الله في أرضه لاتفضلها بقعة لافي الشام ولا في مصر ولا في العراق .

ولما كنت في المدينة المنورة قبل الحرب العامة وجولت في عواليها والبقاع التي تليها وشاهدت زكاء تلك الارضات وسمعت خرير هاتيك المياه قدرت ان البلدة الطيبة وحدها إذا كانت سكة الحجاز الحديدية متصلة بها وبقيت المهاجرة اليها من الآفاق قد تحمل نصف مليون نسمة ولا يتكاءدها أمر معيشتهم . وقد كان بلغ عدد سكان المدينة قبل الحرب العامة نحو خمسين الف نسمة وصار المتر المربع من الارض الفضاء في وسط البلدة يباع بعشرة جنيهات وفي الضواحي بجنيه واحد وكانت الناس مقبلة على الشراء من كل جانب فلما انقطعت السكة الحديدية الحجازية الواصلة بين المدينة والشام بسبب استئثار دولتي فرانسة وانكلترة اللتين وضعتا أيديهما على قطع هذا الخط التي في سورية وفلسطين والبلقاء، وجعلتا بل هضمتا حقوق المسلمين الخاصة فيه، تقلص عمران المدينة المنورة ونزل عدد سكانها من الخمسين ألفاً إلى ١٥ الفاً، كما ان جميع القرى التي كانت على جوانب الخط مثل معان وتبوك ومداين صالح والعلا وغيرها قد تراجعت إلى الوراء بعد أن كانت السكة قد بدأت تعيد اليها غابر عمارتها . ولعل التخوف من عمران الحجاز كان من جملة الاسباب التي حدت دولتي انكلترة وفرنسة على المعارضة في تسليم السكة الحجازية الحديدية المسلمين .. فان هاتين الدولتين اللتين تسلطتا على نحو ١٥٠ مليون مسلم تكرهان أن يكون لهم ملجأ تهوي اليه أفئدتهم ويكون معموراً وتتوافر فيه أسباب الراحة وينتهي الامر بازدحام السكان فيه (ولا سيما الحجاز ولا سيما الحجاز ولا سيما الحجاز)

ولكن استئناف عمران الحجاز أمر لامناص منه مهما وضع الاجانب أعداء الاسلام في طريقه من العراقيل والعواثير، لان المسلمين يأرزون إلى الحجاز من كل صوب كما تأرز الحية إلى وكرها . وقد كانوا يشتكون قلة الامنة في السبل فقد أزيحت هذه العلة بتمامها بفضل الله ثم بفضل عبد العزيز بن سعود . وقد كانت

تطول عليهم المراحل، وتتعبهم أكوار الرواحل فالآن قامت السيارات الكهربائية مقام الاباعر، وطوت تلك المسافات الطوال طي السجل للكتاب. ولا بد من أن يأتي دور السكة الحديدية يوما فتكمل من المدينة الى مكة ويمتد خط من جدة إلى مكة ثم من مكة إلى الطائف، وإذا كان العرب عربا ساروا به من الطائف الى ابها إلى صنعاء اليمن إلى عدن. فان الامة العربية سائرة إلى الوحدة مهما عارض في ذلك اللئام من أعدائها، والمتفلسفون من أبنائها وان هذه الوحدة آتية لاريب فيها ولو بعد مائة سنة أو أكثر

وطالما قلت: ان من أهم الشروط الاساسية لهذه الوحدة هو مد الخطوط الحديدية بين الشام وجزيرة العرب، والعراق وجزيرة العرب، على أن تكون هذه الخطوط للعرب وبايدي العرب

وبينما كنت اقرأ ترجمة حياة « كافور » مؤسس الوحدة الايطالية بقلم المسيو « باليولوغ » سفير فرنسة في بطرسبورغ سابقا إذ وجدته يقول: إن كافور كان يرى الشرط الاساسي لوحدة ايطالية ربط جميع أجزائها بالخطوط الحديدية، وقد ابتدأ بذلك من قبل ان أتم الوحدة الايطالية

* * *

قابلية خيبر للعمران

ونعود إلى عمارة الحجاز فنقول: إن من البقاع الملأى مستقبلا - كما يقول الافرنج - بقعة خيبر، ولم أصل إلى خيبر ولكنني سمعت بها كثيراً. وقيل لي إن بها سبعة أودية سائلة ونخيلا من فوق التصور. وكنت أيام أنا مبعوث الشام في مجلس النواب باستانبول سعيت بمد شعبة من الخط الحديدي إلى خيبر ينفصل من قبل الوصول إلى المدينة المنورة بنحو ساعتين، ولا تكون مسافة هذا الخط المنشعب من الخط العمودي أكثر من ساعتين فقط، وكان يمكن ذهاب الانسان

من المدينة إلى خيبر في أربع ساعات لا غير . وكنا قررنا مد هذه الشعبة إلى خيبر كما قررنا مد شعبة أخرى من أذرعات (درعا) إلى عجلون في حوران ، وشعبة أخرى من (ضبعة) إلى الكرك في شرق الاردن ، كلها من الخط الحجازي ، وجاءت الحرب العامة فوقفت كل هذه المشروعات ، ثم جاء احتلال الاجانب للبلاد فاخنى على كل شيء ، بينما هم يدعون أنهم انما أتوا لاجل اسعاد البلاد وترقية عمرانها !

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان : إن خيبر سبعة حصون : حصن ناعم ، وحصن القموص ، وحصن الشق ، وحصن النطاة ، وحصن السلالم ، وحصن الوطيح ، وحصن الكتيبة . ولها كلها مزارع ونخل كثير .

وروي ان غزاة النبي ﷺ لها كانت لست سنين وثلاثة أشهر واحد وعشرين يوما للهجرة ، وفتحها وحقن دماء أهلها اليهود وقالوا له يارسول الله إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علما فاقرنا . فاقرهم وعاملهم على الشطر من التمر والحب . فلما كانت خلافة عمر ظهر فيهم الزنا وكان سمع ان النبي ﷺ قال « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » فاجلى عمر رضي الله عنه يهود خيبر إلى الشام وقسم خيبر بين المسلمين ، قال وكان رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن رواحة إلى أهل خيبر ليخرص عليهم فقال : إن شئتم خرصت وخيرتكم ، وإن شئتم خرصتم وخيرتموني ، فاعجبهم ذلك وقالوا هذا هو العدل ، هذا هو القسط ، وبه قامت السموات والارض .

وخيبر موصوفة من القديم بالحمى ، وذلك من كثرة مستنقعاتها . وفيها اليوم اكثرة من السودانيين الزنوج لا يقدرون على الاقامة بها لولا ألفتهم للحمى . وأما اذا قيض لخيبر وللحجاز اصلاح وأعيدت السكة الحديدية إلى مجراها وانشعب من عمودها شعبة إلى خيبر وعمرها الناس فللحمى طرق فنية كثيرة تكفل استئصال جراثيمها تدريجا من احدار المياه وحصرها في القنى السائلة وغرس

الغياض الكثيرة من شجر الاوكاليبتوس وتجفيف المناقيع واتقاء الحمى بالكينا وغير ذلك مما جرى مثله في أماكن أخرى كانت وبيئة في الماضي فصارت مصاح للاجسام

العلا ووادي القرى

ومن الاماكن القابلة جداً للعمارة « العلا » (بضم أوله) وهي على مسافة سبع أو ثماني ساعات من المدينة المنورة إلى الشمال بسير القطار الباخر

قال ياقوت : هو اسم لموضع من ناحية وادي القرى بينها وبين الشام، نزله رسول الله ﷺ في طريقه إلى تبوك . ولم يذكر ياقوت شيئا عن جنان العلا ولذة فواكهها ، وجودة ثمارها وتمورها . فهي من أجل المراكز المرجوة لعمران القسم الشمالي من الحجاز . ووادي القرى كله من الاماكن المرجوة لعمران الحجاز

نقل ياقوت في المعجم قول ابي المنذر عن وادي القرى قال « سمي وادي القرى لان الوادي من أوله إلى آخره قرى منظومة، وكانت من أعمال البلاد، وآثار القرى إلى الآن بها ظاهرة إلا انها في وقتنا هذا كلها خراب ومياهها جارية تتدفق ضائعة لا ينتفع بها أحد

قال ابو عبد الله السكوني : وادي القرى والحجر والجناب منازل قضاعة ثم جهينة وعذرة وبلي، وهي بين الشام والمدينة يمر بها حاج الشام، وهي كانت قديما منازل ثمود وعاد، وبها أهلكهم الله وآثارها إلى الآن باقية ونزلها بعدهم اليهود ، واستخرجوا كظائمها ، وأساحوا عيونها ، وغرسوا نخلها ، فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفاً ، وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأكل في كل عام ومنعوها لهم عن العرب ودفعوا عنها قبائل قضاعة

وروي ان معاوية بن ابي سفيان مر بوادي القرى فتلا قوله تعالى (أتتركون فيما ههنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل) الآية، ثم قال: هذه الآية نزلت في أهل هذه البلدة وهي بلاد ثمود فأين العيون ؟ فقال له رجل: صدق الله في قوله

أتحب ان استخرج العيون ؟ قال نعم ، فاستخرج ثمانين عينا . فقال معاوية : الله أصدق من معاوية

وكان النعمان بن الحارث الغساني ملك الشام أراد غزو وادي القرى فحذره نابغة بني ذبيان ذلك بقوله :

تجنب بني حن فان لقاءهم كريه وإن لم تلق إلا بصابر
هم قتلوا الطائي بالحجر عنوة أبا جابر واستنكحوا ام جابر
وهم ضربوا أنف الفزاري بعدما أتاهم بمعقود من الامر قاهر
أتطمع في وادي القرى وجنابه وقد منعوا منه جميع المعاشر ؟

في أبيات

وحن — بضم الحاء المهملة والنون المشددة — هو ابن ربيعة بن حرام بن ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة . وابو جابر — هو الجلاس بن وهب بن قيس بن عبيد ابن طريف بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن طيء ، وكان ممن اجتمعت عليه جديلة طيء .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر في سنة سبع امتد إلى وادي القرى فغزاه ونزل به . وقال الشاعر :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادي القرى اني اذاً لسعيد ؟
وهل أرين يوما به وهي أيم وما رثّ من حبل الوصال جديد

انتهى كلام ابي المنذر وكلام ياقوت .

ووادي القرى اليوم خراب كما كان في أيامها ولا يرجى له استئناف عمران إلا باستئناف حركة الخط الحديدي الحجازي .

ولقد كان وادي القرى معموراً في صدر الاسلام وما يليه ، وبه مات موسى

ابن نصير اللخمي فاتح الاندلس وغازي الارض الكبيرة الاوربية وفاتحها كلها لو تركه أعداؤه وحساده في دمشق يكمل عمله في الغرب

وقرأت في كتاب « الصلة » لابن بشكوال في تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ترجمة احمد بن محمد بن عبيدة الاموي الذي يعرف بابن ميمون من أهل طليطلة: وفيها انه رحل إلى المشرق سنة ٣٨٠ وحج وزار المدينة وانه سمع بوادي القرى من ابي جعفر احمد بن علي بن مصعب، وبمدين من ابي بكر السوسي الصوفي وبأيلة من ابي بكر بن المنتصر، وبالقلزم من ابي عبيد الله بن غسان القاضي

فمن ذكره علماء في هذه الاماكن يأخذ عنهم مثل ابن ميمون الطليطلي بجلالة قدره يعرف انها كانت معمورة مأهولة . والحال انها اليوم خراب، فلا وادي القرى ولا مدين ولا ايلة ولا القلزم عليها رائحة العمارة ،أو فيها شيء يشبه القرى فضلا عن الحواضر او المزارع، فضلا عن الجنان النواضر. أين اليوم وادي القرى ومدين وايلة والقلزم ، وأين العلم والادب والسماع منها ؟

اودية العقيق في المدينة واليمامة وغيرها

ومن أجمل مافي الحجاز بل في جزيرة العرب الامكنة التي يقال لها العقيق، ويترنم بها الشعراء بالشعر المتين الرقيق ، والعرب تقول لكل مسيل ماشقه السيل في الارض فانهره ووسعه عقيق . فمن هذه الاعقة عقيق عارض اليمامة وهو واد واسع مما يلي العرمة يتدفق فيه شعاب العارض وفيه عيون عذبة

قال السكوني : عقيق اليمامة لبني عقيل فيه قرى ونخل كثير ، ويقال له عقيق تمرة، وهو منبر من منابر اليمامة عن يمين من يخرج من اليمامة يريد اليمن، عليه أمير ،وفيه يقول الشاعر :

تربع ليلى بالمضيح فالحمى ... وتحفر من بطن العقيق السواقيا

ذكر ذلك ياقوت في معجم البلدان ، ثم ذكر عن عقيق المدينة ماملخصه:

انه عقيقان الاكبر مما يلي الحرة مابين أرض عروة بن الزبير إلى قصر المراجل ومما يلي الحمى مابين قصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو بن عثمان الى قصر المراجل ثم اذهب بالعقيق صعداً الى منتهى البقيع ، والعقيق الاصغر ماسفل عن قصر المراجل الى منتهى العرصة ، وفي عقيق المدينة يقول الشاعر وهو المديح المرقص الذي ليس وراءه مديح في الكرم :

انّي مررت على العقيق وأهله   يشكون من مطر الربيع نزوراً

ماضركم إن كان جعفر جارَكم   أن لايكون عقيقكم ممطوراً؟

قال : وفي هذا العقيق قصور ودور ومنازل وقرى . قال القاضي عياض : العقيق واد عليه اموال أهل المدينة، وهو على ثلاثة أميال اوميلين وقيل ٦ وقيل ٧ وهي أعقة (احدها) عقيق المدينة عق عن حرتها، وهذا العقيق الاصغر وفيه بئر رومة . والعقيق الاكبر بعد هذا وفيه بئر عروة . وعقيق آخر أكبر من هذين وفيه بئر على مقربة منه وهو من بلاد مزينة ، ومنها العقيق الذي جاء فيه (انك بواد مبارك) هو الذي ببطن وادي ذي الحليفة . ومنها عقيق اليمامة لبني عقيل ، وفيه يقول ابن حمير (بضم فتشديد) العقيلي:

يريد العقيق ابن المهير ورهطه   ودون العقيق الموت ورداً وأحمراً

وكيف تريدون العقيق ودونه   بنو المحصنات اللابسات السنورا

ومنها العقيق ماء لبني جعدة وجرم ، تخاصموا فيه إلى النبي ﷺ فقضى به لبني جرم ، ومنها عقيق البصرة واد مما يلي سفوان ، ومنها عقيق آخر يدفع سيله في غوري تهامة ، وهو الذي ذكره الشافعي رضي الله عنه فقال : لو أهلوا من العقيق كان أحب إلي (يريد أهل العراق الذين من عادتهم أن يهلوا من ذات عرق). ومنها عقيق تمرة قرب تبالة وبيشة وقيل عقيق تمرة هو عقيق اليمامة. والعقيق واد لبني كلاب نسبة الى اليمن لان أرض هوازن في نجد مما يلي اليمن

وأرض غطفان في نجد مما يلي الشام ، وإياه عنى الفرزدق بقوله:

ألم تر أني يوم جو سويقة بكيت، فنادتني هنيدة : ماليا ؟
فقلت لها ان البكاء لراحة به يشتفي من ظن أن لا تلاقيا
قفي ودعينا يا هنيد ، فانني أرى الركب قد ساموا العقيق اليمانيا

انتهى ملخصاً من معجم البلدان

وسيد الاعقه كلها عقيق المدينة المنورة ، وهو الذي يدور ذكره على ألسنة الشعراء . وإذا قيل العقيق وحاجر، اشتد الشوق وسالت الدموع من المحاجر ، وقد تنزهت فيه ونشقت طيب هوائه ، ورشفت من عذب مائه ، وهو على مسافة ساعة من المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، وفيه بئر عثمان بن عفان - رومة - وبئر عروة بن الزبير رضي الله عنهما . وقد كانت لنا أيام زرت المدينة قبل الحرب العامة بسنة قيلات كثيرة على بئر عروة المشهورة بخفة مائها والتي كان يرسل بمائها إلى هارون الرشيد. قال الزبير بن بكار : رأيت أبي يأمر به فيغلى ثم يجعله في القوارير ويهديه الى الرشيد وهو بالرقة

هذا — وقد كنت أشعر عند بئر عثمان من انشراح الصدر ، وانفساح الفكر ، ما لا أشعر به في مكان آخر ، حتى أني أردت مقابلة أعيان المدينة المنورة الكرام على حفاوتهم بي ، والمكارم التي أظهروها، والمآدب التي اتخذوها ، فدعوت منهم خمسين أو ستين شخصاً إلى مأدبة اخترت لها بئر عثمان التي قال فيها النبي ﷺ « نعم القليب قليب المزني » وهي البئر التي كانت تسمى من قبل: بئر رومة (بضم فسكون) كانت لرجل غفاري يقال ان اسمه رومة، فلما أعجبت رسول الله ﷺ اشتراها عثمان بخمسة وثلاثين الف درهم ، وتصدق بها على المسلمين . وقال مصعب بن الزبير يذكر بئر رومة ويتشوقها وهو بالعراق:

أقول لثابت - والعين تهمي - دموعاً ما أنهنها انحدارا

أعرني نظرة بقرى دجيل تخايلها ظلاما او نهارا

فقال ارى برومة أو بسلع منازلنا معطلة قفاراً

ولم تكن جميع المنازل وقتئذ بالعقيق معطلة قفاراً ، بل كانت تلك الديار عامرة ، وكانت حولها الجنان ناضرة ، ولا تزال آثار العمارة هناك ظاهرة ، ومنها آثار قصر عروة بن الزبير وقصر سعيد بن العاص وغيرهما ، واذا زخر عمران يثرب يوما من الايام فلابد من أن تتصل المنازل من البلدة الى العقيق «١»

سلع المدينة المنورة

واما سلع ـ بفتح أوله وسكون ثانيه ـ فهو جبل على طرف المدينة المنورة إلى الشمال الغربي بيضي الشكل شامخ مشرف على جميع البلدة تعلو ذروته عنها نحو ثلاثمائة متر فلو حفل عمران المدينة وعادت اليها السكة الحديدية متصلة بالشام كما لا بد أن يكون ذلك ان شاء الله وجعلت إلى ذروة هذا الجبل مرقاة funiculaire كما ترى في سويسرة للجبال العالية القريبة من العمران التي يتوقلون اليها بالسكك الراقية لكان في رأس سلع متنزه يعز نظيره في الدنيا ولا يمل الناس الاختلاف اليه. ومعنى لفظة ـ سلع بالفتح وقد يكسر ـ الشق في الجبل قال ياقوت : قال ابوزياد: « الأسلاع طرق في الجبال يسمى الواحد منها سلعا ، وهو أن يصعد الانسان في الشعب وهو بين الجبلين يبلغ أعلى الوادي ثم يمضي فيسند في الجبل حتى يطلع فيشرف على واد آخر يفصل بينهما هذا المسند الذي سند فيه (سند فيه رقى فيه ، والسند ما قابلك من الجبل وما علا عن السفح ، وفي وطني من جبل لبنان مكان يصعد فيه الانسان من عين عنوب الى عيناب يقال له سند عيناب) ثم ينحدر حينئذ في الوادي

«١» في احاديث اشراط الساعة وما يحدث قبلها ما يدل على ان منها عمران المدينة وان النبي صلى الله عليه وسلم قال « تبلغ المساكن إهاب او يهاب » رواه مسلم في صحيحه من حديث ابى هريرة وان بعض رواته قال ان إهاب على بعد عدة اميال من المدينة

الآخر حتى يخرج من الجبل منحدراً في فضاء الارض فذاك الراس الذي أشرف من الواديين السلع ولا يعلوه الا راجل » اه

(قلت) في سلع المدينة ذروة تناوحها ذروة أخرى وبينهما منحدر خفيف من الارض وكان الاتراك قد جعلوا هناك نقطة عسكرية ومدافع ولعلها باقية الى اليوم ولقد علوت هذا الجبل راجلا في جماعة من الاحباب بدعوة قائد المدينة قبل الحرب العامة (بصري باشا) الذي دعانا إلى شرب الشاي هناك ، ولكن سيأتي يوم تعمر فيه مدينة الرسول عمرانا حفيلا ويصعد الناس إلى سلع بالمرقاة ان شاء الله. قال صفي الدين الحلي :

ان جئت سلعا فسل عن جيرة العلم واقرا السلام على عرب بذي سلم

والشعر في سلع كثير .

ينبع ورابغ وبيشة

ومن الاماكن الحجازية اللاتي بالمستقبل - كما يقول الافرنج « ينبع » قال ابن دريد « أخذ اسمها من الفعل المضارع لكثرة ينابيعها » وهي عن يمين جبل رضوى لمن كان منحدراً من المدينة المنورة إلى البحر على ليلة من رضوى وعلى سبع مراحل من المدينة

قال ياقوت « قال الشريف ابن سلمة بن عياش الينبعي : عددت بهـا مائة وسبعين عينا » وقال عرام بن الاصبغ السلمي « وهي لبني حسن بن علي وكان يسكنها الانصار وجهينة وليث وفيها عيون عذاب غزيرة وواديها بليل ، وبها منبر وهي قرية غناء »

ومنها رابغ وهي بلدة على واد من دون الجحفة يقطعه الحاج من دون «عزور» (بفتح فسكون) قال الحازمي : يظن رابغ واد من الجحفة له ذكر في المغازي وفي أيام العرب ، ومعنى الرابغ العيش الناعم ، وكذلك الرابغ الذي يقيم على أمر ممكن له ، وحجاج الشام يحرمون من رابغ [1] وإذا كانوا في السفين في البحر الاحمر

«١» وكذا سائر من يجيء من الشمال وشرقيه وغربيه فيمر منهـا برا وبحرا ولو عمرت ميناء رابغ لكانت اولى بنزول هؤلاء الحجاج منها لأن بحرها خير من بحر جدة وبرها خير من برها لكثرة المياه والشجر فيه وان كان ابعد عن مكة

وعلموا انهم صاروا بحذاء رابغ أحرموا ولبوا ، ووادي رابغ من أخصب أودية الجزيرة يجعل الاهالي هناك له سداً موقتاً من طين يجددونه كل سنة ويزرعون عليه ، ولو انتدبت شركة اسلامية وأخذت من حكومة الحجاز امتيازاً ببناء سد من حجر يتكون وراءه خزان مياه ذو مفاجر تسد وتفتح بحسب الحاجة لكانت عملية من أربح العمليات الاقتصادية لان الزراع وأصحاب الاراضي يتمنون أن يؤدوا شيئاً معلوما لاصحاب الخزان بشرط أن يأمنوا على قضية ري أراضيهم . ومن مزايا رابغ ان ميناءها آمن ميناء في الحجاز . إذ من المعلوم ان مرافيء بحر الحجاز كلها مخوفة لاتقدر السفن أن ترفأ اليها الا بدلالة بحرية من أهل الحجاز يتخللون البحر امامها . وأما رابغ فقد عافاها الله من هذه العلة

ومن المواضع الزراعية ذات البال في الحجاز بيشة التي إلى الجنوب من الحجاز نحو اليمن . قال ياقوت « اسم قرية غناء في واد كثير الاهل من بلاد اليمن . وعن أبي زياد : خير ديار بني سلول بيشة . وهو واد يصب سيله من الحجاز حجاز الطائف ثم ينصب في نجد حتى ينتهي في بلاد عقيل . وفي بيشة بطون من الناس كثيرة في خثعم وهلال وسؤاة بن عامر بن صعصعة وعقيل والضباب وقريش وهم بنو هاشم لهم المعمل » ثم قال ياقوت « وبيشة من عمل مكة مما يلي اليمن على خمس مراحل وبها من النخل والفسيل شيء كثير ، وفي وادي بيشة موضع مشجر كثير الاسد » قال السمهري:

وأنبئت ليلى بالغريين سلمت ... علي ودوني طخفة ورجامها
فان التي أهدت على نأي دارها ... سلاما لمردود عليها سلامها
عديد الحصى والاثل من بطن بيشة ... وطرفائها مادام فيها حمامها

قلت طخفة جبل ورجام جبل أيضاً ، وأما المعمل الذي أشار اليه ياقوت فهو ملك لبني هاشم في بيشة. والاصل في تسميته « المعمل » هو هذه القصة :

كان في بيشة سلول وخثعم يتنازعون: يحفر السلوليون فيضعون الفسيل فيجيء الخثعميون فينتزعونه ولا يزال بينهم القتال على ذلك ، وسمي المكان الذي كانوا

يتنازعون فيه مطلوبا . فتخوف العجير السلولي من وقوع شر أعظم فأخذ من طين هذا المحل ومائه ولحق بهشام بن عبدالملك الاموي ووصف له صفته وأتاه بالماء والطين وأخبره بما في بيشة من الاودية وما فيها من الفسيل وقال له ان من الممكن هناك غرس عشرة آلاف فسيلة في يوم واحد ، فأرسل الخليفة هشام من الشام الى أمير مكة أن يشتري مائة زنجي ويجعل مع كل زنجي امرأته ثم يحملهم حتى يضعهم بمطلوب وينقل اليهم الفسيل حتى يغرسوه ، ففعل أمير مكة ما أمره به الخليفة، فلما رأى الناس ذلك قالوا ان مطلوبا معمل يعمل فيه ، فذهب اسمه « المعمل » إلى اليوم وقال العجير السلولي :

لانوم للعين إلا وهي ساهرة حتى أصيب بغيظ أهل مطلوب
أو تغضبون فقد بدلت أيكتكم ذرق الدجاج وتجفاف اليعاقيب
قد كنت أخبرتكم ان سوف يملكها بنو أمية وعداً غير مكذوب

قلت اليعاقب جمع يعقوب، وهو الذكر من الحجل والقطا. وتجفجف اليعقوب انتفش وتحرك وألقى جناحيه على البيضة . يريد أن يقول لسلول وخثعم مازلتم تتنازعون حتى اضطررتموني أن ألجأ إلى الخليفة الاموي وأدعوه أن يملك المحل ويحرمه الفريقين، فبدلتم بالجنان والمغارس ذرق الدجاج وتجفجف القطا

ولم أشاهد ينبع النخل ولا رابغ ولا بيشة وانما شافهت كثيراً ممن شاهدوها وكان أكثر من ذكر لي خصب بيشة وخيراتها الكاتب النمساوي ليوبولد وايس الذي أسلم وتسمى محمد اسد الله. فقد حدثني عنها ان فيها من قابلية الزراعة ما تكفي فيه ميرة مكة وجوارها طول السنة لو كان العمل قائماً فيها كما يجب . وأما النخيل فكثرته تدهش العقل ، وقد سمعت اسد الله يذكر مثل هذا لجلالة الملك ابن سعود في مجلسه الملوكي بمكة

وهذه بعض أمثلة اجتزىء بها عن الاستقصاء ، فأقول :

الطريقة المثلى لعمران الحجاز الاقتصادى

ان الحجاز فيـه بقاع زراعيـة هي في الدرجة القصوى من الخصب والزكاء ، ولكن ينبغي لها المال والعلم فلا بد من بناء السدود كما كانت من القديم ، ومن حفر الآبار الارتوازية لاستنباط المياه ، ومن الاعتماد في السواني على الآلات الرافعه البخارية (المواتر) وهناك طريقة رأيتها في الصيف الماضي في جزيرة ميورقة وهي الدواليب الهوائية تدور بهبوب الريح فترفع المـاء ويتصبب إلى الصهاريج ، ولا يتكلف عليها صاحبها زيتاً ولا فحما

فاذا وجد الماء وجد من الخصب والخير والمير في الحجاز مالا يوجد في قطر آخر . وأما المال اللازم للمشروعات الزراعية المذكورة فله طريقان

(احداهما) ان تنتظم الميزانية المالية لحكومة الحجاز تنظيما حسنا ويفرز منها جانب واف لمصلحة الزراعة ، فتأخذ هذه كل سنة بمشروع وتقوم بانشائه من مال الخزانة ثم تستوفي ذلك من الاهالي المنتفعين على أقساط معلومة مؤجلة إلى عدة سنوات بحسب جسامة المشروع

(والثانية) أن تتقدم لهذه الاعمال شركات اسلامية بحتة من حجازيين ونجديين ومصريين وشاميين وهنود واندونسيين وغيرهم وتعطيها حكومة الحجاز بها امتيازات الى آجال معينة ، وهذه الشركات هي التي تبني السدود وتستوفي على الري شيئاً معلوما من الزراع ، او تحفر الآبار الارتوازية وتأخذ بدل العمل مع الربح الذي يكون وقع عليه الشرط أو تقدم المواتر لاصحاب السواني وتأخذ منها منجما على عدة سنوات وما أشبه ذلك (١)

(١) وفي أخبار أم القرى ان الحكومة السعودية انتدبت أحد كبار مهندسي الامريكان لاختبار الارض وأماكن وجود المياه فيها . وانه وجد مياه غزيرة قرب وادي فاطمة من جهة جدة ، وستحفر هناك الآبار الارتوازية لاستخراجها وسقي الارض بها

*
* *

ويوجد عدا الزراعة منبع عظيم الرزق في الحجاز بل في كل جزيرة العرب هو المعادن . فان غنى الجزيرة بالمعادن موصوف معروف عند جميع الامم من قديم الدهر حتى ان المؤرخين أجمعوا على ان حضارة هذه الجزيرة الباهرة في الحقب القديمة انما قامت بامرين (أحدهما) نقل متاجر الهند والشرق الاقصى إلى الغرب بموقع العرب بين الاثنين (والثاني) ثروة المعادن التي تكنها أرض الجزيرة

فينبغي الآن وقد مضى وقت الفتوحات وصرنا لانطمح إلا إلى حفظ الموجود بيدنا، أن نأرز إلى الجزيرة التي هي مهد العرب المنتشرين في أقطار المعمور جميعاً ونجعلها الكهف المانع ، والاصل الجامع ، ونستخرج كل مافيها من عيون الحياة الكامنة، حتى تصون نفسها، وتنجد أخواتها التي انبسطت عليهن أيدي الاستيلاء الاجنبي،وأصبحن لايملكن لانفسهن أمراً، فتزحزح عنهن هذا الرق الذي يرسفن في قيوده، وتتم بذلك الجامعة العربية التي هي نكتة الحيا ، ونشيدة آمالنا في هذه الدنيا . ويجب ان لاننسى ان هذا الامر لايصلح آخره إلا بما صلح به أوله . فقد كانت معادن الجزيرة في القديم من أغزر منابع ثروتها وعزها وارتقائها وهي لاتزال هي هي لاينقصها إلا الارادة والعمل

ولقد يقال إن استثمار المعادن ليس بامر سهل وانه ان انشبت الشركات الاوروبية مخالبها في هذه المعادن جنينا منها السيطرة الاجنبية ، والذل ،والندامة، فالافضل ان نكون فقراء أحراراً ولا نكون أغنياء أرقاء ... ولن نكون أرقاء وأغنياء أبداً، لان الثروة لاتجتمع مع فقد الاستقلال. وهاؤم أهل المغرب والجزائر وتونس عندهم من معادن الفوسفات وغيرها مايقوم بالمليارات وليس بايديهم منه شيء حتى كأن ذلك ليس في أرضهم

كل هذا التعليل صحيح لااعتراض عليه . وأحسن لنا ان نبقى فقراء مستقلين من ان يبتلعنا الاستعمار الاجنبي بواسطة معادن نرجو في استثمارها اليسر، فيؤول بنا الامر إلى الخسر . ولكن هذا التعليل لايحل المشكل ، ولا يجوز لامة عاقلة رشيدة أبية تبغي الحياة مثلنا ان تعول في قضية ذات بال كهذه على حل سلبي

صرف، نظن أننا قد أجبنا به ضمائرنا الناشزة، وسكنا به خواطرنا الثائرة، على حين انه الحل الذي يليق بالامم التي استوى عندها الماء والخشبة والتي لاتريد ان تعمل شيئاً ، بل تنتظر قضاء الاستيلاء الاجنبي ان ينفذ فيها

أقول في تعليل ذلك (أولا) ان الذين يقترحون استثمار هذه المعادن الثمينة لايشيرون باعطاء أقل شيء منها لشركة أجنبية او لشركة مؤلفة من مسلمين هم تبع لدولة أجنبية غير مسلمة ، بل يشيرون باعطاء الامتيازات لاستثمارها إلى شركات اسلامية مرجعها حكومات اسلامية ، ومما لانزاع فيه ان الشركات التجارية في بلاد الاسلام قليلة وان رءوس الاموال قليلة أيضاً

فالمسلمون لم يتعودوا أسلوب الشركات في التجارة فضلا عن ان ثروتهم العامة لاتساعدهم على تأليف هذه الشركات . الا ان المبالغة في كل شيء مذمومة فلا يجوز ان نظن أن تأليف الشركات عند المسلمين مستحيل ولا ان المال معدوم تماما بين أيديهم ، فكلا هذين الافتراضين مخالف للمحسوس

وفي بلاد الاسلام شركات اقتصادية كثيرة ، ومن المسلمين عدد غفير من ذوي الثروة ، وعدد غفير من ذوي المهارة في الامور الاقتصادية

واذا جربت حكومتا الحجاز واليمن استثمار المعادن التي في هذين القطرين على أيدي متمولين من المسلمين فلا يبدأ هؤلاء بالربح ولا يتحقق المسلمون ان هذه المشروعات ذات عوائد أكيدة حتى يقبلوا على المساهمة من كل صوب وتجد من رءوس الاموال عند المسلمين مالا يخطر لك على بال . وذلك لان الربح جلاب وحيث تحقق وجود الفائدة وجد المال بلا اشكال

اذن يمكننا أن نستثمر معادن جزيرة العرب برءوس أموال أصحابها مسلمون بل أصحابها مسلمون لاتلي بلدانهم دول غير مسلمة (١) وليس بضربة لازب ان

«١» إن تجار العرب في بمبي «الهند» وأكثرهم من نجد والكويت قد ألفوا شركة بواخر تمخر بين الهند وشط العرب زاحموا بها الشركات الانكليزية فزحموها، ثم كانت الحرب العامة سبب استيلاء الانكليز عليها بصفة قانونية

نستثمر هذه المناجم كلها دفعة واحدة ، بل يمكننا أن نستخرج خيراتها تدريجا، ولكن الذي لايجوز أصلا هو ان نظمأ والماء فوق ظهورنا ، او أن نشكو مزيد الفقر والماء تحت رحالنا

(ثانيا) ان الظن الذي يظنه بعضنا ان الشروع باستخراج هذه المناجم يفتح أعين الاوربيين على الجزيرة لاسيما اذا رأوا الخيرات تدر منها وانهم قد يشنون الغارات على البلاد لاجل حيازة هذه المعادن هو ظن لعمري بغير محله

فان الافرنج يعرفون مواقع هذه المعادن ويعلمون مافيها إن لم يكن تفصيلا فاجمالا . وعندهم علم آخر من طبقات الارض يجعلهم عارفين بما يحتوي من المعدن والفلز كل نوع من هذه الطبقات ، فان كانوا لم يشنوا الغارات إلى اليوم على الجزيرة فليس لجهلهم بما في بطنها من الكنوز والخيرات ، بل لان الامور مرهونة باوقاتها ، والاستيلاء على جزيرة العرب او على بعض أقسام من جزيرة العرب ليس بالامر السهل ، بل دونه عقبات من وعورة الجبال ، وحرارة الرمال، وشجاعة الرجال، فضلا عما بين الدول من التنافس الذي يحمل بعضهن على الوقوف بالمرصاد لبعض مما يخشى منه وقوع الحرب بينهن . وعلى كل حال فالجزيرة إلى الآن سالمة من استيلاء الاجنبي إلا بعض أطراف لابال لها

فليس من الحكمة ولا من الحزم أن نضيع على أنفسنا ثروة نحن في أشد الاحتياج اليها تحت ملاحظات ليست صحيحة وأسباب غير واردة

ومما يدلنا على كون هذه المعادن معروفة عند الافرنج رسالة بالالمانية أطلعني عليها مؤخراً مؤلفها المستشرق الالماني الشهير الاستاذ موريتز واسمها « المعادن في العربية القديمة » die bergwerke in alten arabien

جاء فيها ماملخصه :

يظن الناس إجمالا ان جزيرة العرب هي من افقر بلاد الدنيا ، وحقيقة

الحال انها ليست كذلك ، بل إذا نظرنا إلى ما كانت عليه في القرون الوسطى نجدها كانت ذات ثروة تضرب بها الامثال و كانت تلك الثروة آتية من منبعين (أحدهما) كون الجزيرة طريق التجارة بين الشرق والبحر المتوسط (والثاني) وفرة المعادن التي كانت فيها ، وأخصها الذهب ، فقد كانت هذه المعادن في أواسط عهد الالف سنة قبل المسيح معروفة عند العبرانيين والفينقيين والاشوريين . وقد كان سليمان بن داود أرسل بعثة على حسابه إلى البحر الاحمر ، وعادت بغنائم تدهش العقل

وذكر سترابون (جغرافي يوناني مات في زمان طيباريوس قيصر) وديودور (مؤرخ يوناني يقال له ديودور الصقلي صاحب تاريخ عظيم ، وكان معاصرا لاغسطس قيصر) انهرا في بلاد العرب كان فيها التبر

وقد كانت جزيرة العرب قبل الاسلام وقبل دخولها في الفتوحات النائية ذات ثروة عظيمة بالزراعة والمعادن ، وكانت مكة أشبه بمركز حكومة جمهورية ذي مراكز تجارية عظيمة ذات علاقات مع الآفاق ، وكان الاخذ والعطاء جاريين بقوة بينها وبين سائر البلدان ، وكانت فيها صناعة الحلي بالغة درجة الاتقان ، ولا يزال صاغة مكة ، وصنعاء اليمن ، وعنيزة نجد ، الى يومنا هذا مشهورين باتقان الصنعة

أماكن معدن الذهب في جزيرة العرب

فأما الاقاليم التي فيها معادن الذهب من جزيرة العرب فمنها الاقاليم الغربية والذهب يوجد فيها باسناد الجبال الواقعة بين الداخل والساحل أي أسناد الجبال المتدلية إلى التهائم . وكذلك توجد معادن ذهب في أواسط الجزيرة في الاماكن المجهولة الضاربة إلى الجنوب والشرق . وهذه الجوانب الجبلية متكونة من حجر الغرانيت مع كثير من الرخام السماقي ، وهذه الحرات التي في الجنوب

والتى تمتد إلى مكة وإلى غربيها لا شك انها تولدت تحت تأثير التحولات الجيولوجية التي أدت إلى هذه القفار المحرقة وهذه اليبوسة في الجزيرة ، وان شكل الغرانيت الصواني هذا يظهر في وسط البلاد وتمتد آثاره الى جهة الشرق اي في جبال نجد . واطرافه الجنوبية تظهر في شمالي اليمن الى أن تحاذي صنعاء من الشمال . واما الجنوب الغربي من الجزيرة والجنوب كله فتشكلاتهما الجيولوجية مختلفة عن الاولى ، والذهب انما يوجد في الجهات التي فيها الصوان او الغرانيت وهي ما يأتي :

(أولا) في الشمال الغربي من الجزيرة بأرض مدين القديمة

(ثانياً) في ارض الحجاز الضاربة الى الجنوب

(ثالثا) في الشرق من الجزيرة نحو نجد

(رابعاً) في الجنوب الشرقي إلى جهة اليمامة

(خامساً) في الجنوب المحض بأرض عسير إلى الشمال من اليمامة

فمدين هي البلاد الواقعة بين البحر الاحمر وقمم الجبال المحاذية للبحر الممتدة من نحو العقبة في الشمال إلى وادي الحمض في الجنوب وهي اليوم تابعة للحجاز . وهناك مراكز على ساحل البحر منها (ظبا ، والمويلح ، والوجه)

وفي بلاد مدين معادن مفتوحة من قديم الدهر ، وآثار الشغل في المعدن واضحة جداً . ومعدن مدين هو المعدن الوحيد الذي توصل الاوربيون إلى معرفته جيداً من معادن جزيرة العرب ، فان الكابتن برتون Burton الرحالة الانكليزي قد كان ذهب على رأس بعثة أولى وثانية سنة ١٨٧٧ من قبل اسماعيل باشا خديوي مصر ـ الذي كانت مدين إذ ذاك تحت إدارته . ولكن لم يستصحبوا معهم في تلك البعثات علماء متخصصين في فن المعدن ، ومع هذا فقد أمكنهم أن يحققوا وجود التعدين القديم في نقاط عدة ، وجاءوا بحجارة مأخوذة كيفما اتفق

— الارتسامات

من على سطح الارض . ووجدوا ٤٨ غراما من الذهب في الطن الواحد ، ووجدوا فضة ونحاساً وحديداً ، ولكن النتائج لم تكن بحسب المأمول منها لعدم اعتمادهم في التعدين على أرباب الفن ذوي الاختصاص . ثم ان اسماعيل باشا بلغه ظهور معادن ذهب في السودان ، فانصرف عن معادن مدين اليها . ولم تلبث أن استرجعت الدولة العثمانية مدين إلى إدارتها ، فبطلت كل حركة بحث في مدين[1]

وفي جنوبي مدين معدن يقال له « الحراضة »[2] ثم الى الجنوب منه معدن غير الذي ذكره الجغرافي العربي المقدسي وقال انه بين ينبع النخل ومروة . وهذا المعدن المجهول لم يزل بكراً ، وأصحابه قبائل صغيرة لا يمكن الاوروبي أن يجول في أرضهم

وأما المعادن المهمة في الجزيرة فهي التي في الحجاز واليمن ، ويكثر فيها الذهب والفضة ، وفيها قليل من النحاس ، وفيها الحديد . في جنوبي الحجاز معادن

(١) بعد أن احتل الانكليز مصر بادرت الدولة الى استرجاع سواحل العقبة والوجه وما يليها من يد الحكومة المصرية حتى لا تجعل للانكليز يداً في الحجاز . ولو لم تفعل الدولة ذلك لكان شطر من الحجاز الآن تحت سيطرة انكلترة ، وبرغم هذا فقد أذاق الانكليز بعد ذلك السلطان عبد الحميد عرق القربة من أجل العقبة وما رجعوا حتى الحقوا « طابة » بمصر لتكون العقبة تحت طائلة قوتهم ثم لما زالت الدولة العثمانية بعد الحرب العامة لم يزالوا حتى ألحقوا العقبة بشرقي الاردن بموافقة الملك علي بن الحسين الذي كان سمي ملك الحجاز حينئذ لاخيه الامير عبدالله أمير هذه الجهة ، ويقال بموافقة غيره من أمراء الحجاز . وقد احتج على ذلك المؤتمر الاسلامي الذي انعقد في مكة منذ خمس سنوات ولم يعترف الملك ابن سعود باعتداء انكلترة هذا على العقبة ومعان اللتين كانتا تابعتين للحجاز مع كل مراودتها له على هذا الامر ومع استظهارها باعتراف الملك علي

(٢) في معجم البلدان ذو حرض - على وزن عنق - وادي لبني عبدالله بن غطفان على مقربة من معدن النقرة ولم يقل شيئاً عن هذا المعدن . ولقد جاء ذلك التعريف بعينه في تاج العروس وأما الحراضة - بضم أوله - فقد قالوا انه ماء بالمدينة اهـ . من هوامش الاصل

كثيرة شهيرة ، وكانوا في زمن النبي ﷺ يستخرجون منها بمجرد رفع الحجارة ومما لاشك فيه ان الاستخراج منها وقع بعد المسيح بستمائةسنة وكان حثيثا

ومن معادن الحجاز معدن «بحران»[1] بالضم أو بالفتح - على الطريق السلطاني من مكة الى المدينة .

ومنها معدن القبلية[2] في جبل قدس (بالضم) حيث بويع الرسول ﷺ وكان معدنا عظيم الغلة ، وكانت ثروة الخليفة أبي بكر[3] من هذا المعدن ومن

(١) جاء في معجم البلدان: بحران بالضم موضع بناحية الفرع . قال ابن اسحاق هو معدن بالحجاز في ناحية الفرع وذلك المعدن للحجاج بن علاط الهزي ، قال ابن اسحاق في سيرة عبدالله بن جحش - بفتح الباء - فسلك على طريق الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له بحران: أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقبانه ، كذا قيده ابن الفرات بفتح الباء ههنا وقد قيده في مواضع بضمها وذكره العمراني والزمخشري وضبطاه بالفتح (٢) القبلية (بالتحريك) من نواحي الفرع (بالضم) سراة مابين المدينة وينبع . ماسال منها الى ينبع سمي بالغور وما سال منها الى اودية المدينة سمي بالقبلية، وأقطع رسول الله ﷺ هذه القطيعة بلال بن الحارث المزني وكتب له « هذا ما أعطى محمد رسول الله بلال بن الحارث اعطاه معادن القبلية غورها وجلسيها « غشية » و « ذات النصب » وحيث صلح الزرع من « قدس » وكتب معاوية »(٣) جاء في طبقات ابن سعد: كان ابو بكر معروفاً بالتجارة، ولقد بعث النبي ﷺ وعنده اربعون الف درهم فكان يعتق منها ويقوي المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم فكان يفعل فيها ماكان يفعل في مكة . انتهى

واما من جهة ماكان يعود عليه من المعادن فجاء فيها ما يلي :

وكان قدم عليه مال من معدن القبلية ومن معادن جهينة كثير وانفتح معدن بني سليم في خلافة ابي بكر فقدم عليه منه بصدقته فكان يوضع ذلك في بيت المال . فكان ابو بكر يقسمه على الناس نقراً نقراً - بضم النون وفتح القاف - فيصيب كل مائة انسان كذا وكذا وكان يسوي بين الناس في القسم الحر والعبد والذكر والانثى والصغير والكبير اه كله من حواشي الاصل

معدن آخر في بلاد جهينة . وملحوظ أن كل هذه الجبال التي هناك غنية بالمعادن وقد كانت في زمن الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز يؤخذ عليها رسم من مال الصدقة ثم اخذ منها على وجه الخمس

وأعظم معدن في جزيرة العرب معدن جبل فاران[١] الذي كان لبني سليم[٢] وكان فيه ذهب وحديد ،

ولا نعلم انه تأسست نظارة خاصة بمعادن الحجاز في الدولة الاسلامية إلا سنة ١٢٨ للهجرة . وبعد هذا التاريخ بمائتي سنة خربت هذه المعادن أو انقطع الاستخراج منها بحسب رواية الاصطخري، ولم يذكر ياقوت عن استغلالها شيئا

وليس عندنا عن أسباب ترك العمل في هذه المعادن الا افتراضات ،فيجوز أن تكون نفدت مادتها ، ويجوز أن يكون إهمالها جاء من قبل الفتح الاسلامي الذي فشر العرب في الاقطار، فقد كانت مكة قبل الاسلام مركزا عظيما للاخذ والعطاء ، ولم يكن ذلك بسبب حركة أهلها وحدهم بل بسبب كونها محط رحال القبائل المجاورة، فقد كانت القافلة الواحدة نحو ألف جمل تتقدمها البوادي وتخفرها وتأخذ ٥٠ بالمائة من الارباح ، وهكذا كان البدو متعلقين بأهل مكة تابعين لهم فلما فتح الاسلام البلدان وتفرق العرب لم تبق مكة كما كانت من قبل مركزا كبيرا للاخذ والعطاء لكنها بقيت فيها ثروة غير زهيدة

---

(١) فاران من اسماء مكة المكرمة وقيل هو اسم لجبال مكة وفي التوراة « جاءالله من سيناء ،وأشرق من ساعير واستعلن من فاران » تفسيره : ان الله كلم موسى عليه السلام من سيناء وانزل الانجيل على عيسى عليه السلام في ساعير اى جبال فلسطين وانزل القرآن على محمد عليه السلام في فاران اى جبل مكة

(٢) جاء في المعجم معدن بنى سليم هو معدن فاران وهو من اعمال المدينة ، على طريق نجد اه من الاصل

وفي القرن الاول من الهجرة كان في الحرمين يسار عظيم، يستدل على ذلك من انه لما قتل الخليفة عثمان وجد وراءه من الذهب العين ١٥٠ ألف دينار، يساوى الدينار عشرة ماركات، فاذا ضرب بأربعة ليطابق حساب النقد اليوم بلغ ذلك ما يساوى ٦ ملايين مارك[١] وقد كانت تركة أخرى مقدرة بخمسمائة

---

(١) كان عثمان بن عفان رضي الله عنه تاجراً في الجاهلية والاسلام وهو الذي جهز جيش العسرة - لغزوة تبوك - من ماله، وترك يوم قتل مائة وخمسين الف دينار وثلاثين الف الف درهم وخمسين الف درهم وترك الف بعير بالربذة وترك صدقات كان تصدق بها في براديس وخيبر ووادي القرى قيمتها مائتى الف دينار. فانت ترى أن تركة عثمان كانت أعظم مما قال الاستاذ مورتيز الالماني

وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه موسراً أيضاً باع أرضاً من عثمان باربعين الف دينار، فقسم ذلك في فقراء بني زهرة أقاربه وفي ذوي الحاجة من الناس، ولما مات ترك الف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ترعى بالبقيع في المدينة، وكان يزرع بالحرف على عشرين ناضحا، وقيل انه ترك ذهبا قطع بالفؤوس حتى مجلت ايدي الرجال منه، وكان له نسوة اربع فخرجت كل واحدة بثمانين الف درهم

وكان سعد بن ابي وقاص رضى الله عنه غنياً ترك يوم مات مائتي الف وخمسين الف درهم

ولكن الثروة العظمى كانت للزبير بن العوام رضى الله عنه، جاء في طبقات ابن سعد: انه بلغ ماله قيمة خمسة وثلاثين الف الف ومائتى الف درهم أي ٣٥ مليوناً و٢٠٠ الف، وترك اربع نسوة فأصاب كلا منهن مليون ومائة الف. وحدث ابنه عبدالله بن الزبير انه دعاه يوم الجمل وقال له اني سأقتل اليوم مظلوما يا بنى، بع مالنا واقض دينى واوص بالثلث فان فضل من مالنا من بعد قضاء الدين شيء فثلثه لولدك، قال عبدالله بن الزبير فجعل يوصى بدينه ويقول يا بنى إن عجزت عن شيء فاستعن عليه مولاى، قال فوالله مادريت ماأراد حتى قلت ياأبت من مولاك؟ قال الله، قال فوالله ماوقعت في كربة من دينه إلا قلت يامولى الزبير، اقض عنه دينه، فيقضيه، وقتل الزبير ولم يدع دينارا ولا درهما، الا أرضين فيها الغابة، واحدى عشرة دار بالمدينة، ودارين بالبصرة، ودارا بالكوفة، ودارا بمصر =

ألف دينار اى ٢٠ مليون مارك ، ولكن عند ما ارتفع لواء الاسلام في الآفاق

= واما دينه فكان مليونين ومائتي الف درهم، وكان سبب هذه الديون ان الرجل كان يأتيه بالمال ليستودعه اياه، فيقول الزبير لا، ولكن هو سلف اني اخشي عليه الضيعة وكان الزبير اشترى الغابة بمائة وسبعين ألف درهم فباعها عبد الله بن الزبير بمليون وستمائة الف، ثم قام فقال من كان له على الزبير شيء فليوافنا بالغابة فوافاه اصحاب الديون واستوفوا حقوقهم، وقال بنو الزبير لعبد الله اقسم لنا ميراثنا، قال لا والله لا اقسم بينكم حتي انادى في الموسم اربع سنين : ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضينه. فجعل كل سنة ينادى بالموسم، فلما مضت اربع سنين قسم بينهم قالوا كان للزبير بمصر خطط وباسكندرية خطط وبالكوفة خطط وبالبصرة دور وكانت له غلات كثيرة تقدم عليه الى المدينة

واما طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه فقد ترك يوم قتل في واقعة الجمل تركة عظيمة، جاء في الطبقات قتل طلحة بن عبيد الله - يرحمه الله - وفي يد خازنه الفا الف درهم ومائتا الف درهم وقومت اصوله وعقاره ثلاثين الف الف درهم، وحدث عمرو بن العاص قال ان طلحة بن عبيد الله ترك مائة بهار في كل بهار ثلاث قناطير ذهب ، وسمعت ان البهار جلد ثور «١» وقال ابراهيم بن محمد بن طلحة ، كان قيمة ما ترك طلحة بن عبيد الله من العقار والاموال وما ترك من الناض (المال الصامت العين في اصطلاح اهل الحجاز) ثلاثين الف الف درهم ترك من العين الفى الف ومائتي الف درهم ومائتي الف دينار والباقي عروض، وسأل معاوية موسى بن طلحة كم ترك ابو محمد يرحمه الله من العين ؟ قال ترك الفى الف درهم ومائتي الف درهم ومائتي الف دينار وكان يغل كل سنة من العراق مائة الف سوى غلاته من السراة وغيرها، وكان يدخل قوت اهله بالمدينة سنتهم من مزرعة بقناة كان يزرع على عشرين ناضحاً ، وأول من زرع القمح بقناة هو ، وكان لا يدع احداً من بنى تيم أقاربه عائلا الا كفاه مؤونته ومؤنة عياله وزوج أياماهم وأخدم عائلهم وقضى دين غارمهم، وكان يرسل الى عائشة كل سنة ١٠ آلاف درهم ، وقضى عن صبيحة التيمى ٣٠ الف درهم، وطلحة هو احد اجواد العرب المشهورين، وأحد الطلحات الاربعة المضروب المثل بكرمهم اهمن الاصل

«١» وفي المصباح المنير : والبهار بالضم شيء يوزن به

أخذ العرب يغادرون الجزيرة لينضووا تحته ، ولم يبق في الحجاز إلا قبائل بادية، كبني هلال وبني سليم وحرب - الذين بين مكة والمدينة - فصاروا بخلو البلاد من الساكن إلى فقر شديد حملهم على الارتزاق من نهب الحجاج وقطع السوابل، وعاد معول الحجاز كله - بدوا وحضرا - في المعيشة على موسم الحج

*

* *

وفي نجد معادن أيضا منها المعدن الذي يقال له «الحليت» في «أم البل» أي أم الابل بقرب حمى ضرية[1] وهو مشهور بالتبر . وقد تناقص محصوله من كثرة ما استخرج منه وترك أخيرا، ولو أمكنت زيارة تلك الارض لكان منها فائدة إذ عندها كتابات منقوشة من قبل الاسلام ربما يعرف منها شيء عن استخراج هذا المعدن

ثم في نجد معدن (المحبحة) ومعدن (الهجيرة) ومعدن (القصاص) وهي معادن ذهب . والمعمل في (تربة)[2] وهو معدن ذهب أيضا

---

(١) قال الاصمعي : حليت - بوزن خريت - معدن وقرية . وقال ياقوت ، قال نصر حليت جبال من اخيلة حمى ضرية عظيمة كثيرة الفنان كان فيه معدن ذهب ،وهو من ديار بني كلاب وقال ابو زياد حليت ماء بالحمى للضباب وبحليت معدن اه وجاء في معجم البلدان ذكر معدن بقرب حمى ضرية غير هذا قال ابو عبيدة والخربة (بالتحريك) ارض مما يلي ضرية به معدن يقال له معدن خربة

(٢) جاء في معجم البلدان ذكر « تربة » بضم ففتح - انها واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها يصب في بستان ابن عامر يسكنه بنو هلال وحواليه من الجبال السراة ويسوم وفرقد ومعدن البرم اه

قال محمد بن احمد الهمداني تربة وزبية وبيشة هذه الاودية الثلاثة ضخام مسيرة كل واحد منها عشرون يوما اسافلها في نجد واعاليها في السراة ثم قال وفي المثل عرف بطني بطن تربة قاله عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب ابو براء ملاعب الاسنة في قصة فيها طول غاب عن قومه فلما عاد الى تربة وهي ارضه التي ولد بها الصق به بطنه بارضها فوجد راحة فقال ذلك اه من حواشي الاصل

وأما معادن الفضة فهي اثنان فقط (أحدهما) معدن (ابرق خترب)(١) الذي كان غزيراً جداً، ثم من القرن الحادى عشر (أي الرابع للهجرة) انقطع خبره . ومعدن النقرة «بالفتح»(٢) الذى كان مذكورا كثيرا الى القرن الثاني عشر وأما الحديد فقد ذكر وجوده الرحالة الالزاسي هوبر Huber الذى ساح في بلاد العرب لكنه لم يقل عنها شيئا، وانما أشار إلي معدن حديد في تبوك

واليمامة غزيرة المعادن . ذكر الجغرافي الهمداني (٣٣٤ للهجرة) معدن الحسن (٣) ومعدن الحفير (٤) والضبيب (٥) وثنية ابن عصام والعوسجة وتياس ثم يذكر الهمداني بعد ذلك معدني فضة ونحاس في شمام (٦) وكان يشتغل فيهما ألف رجل يومياً، وإن صح ذلك فيكون تعدين هذه المعادن من أيام الجاهلية

وأما معادن اليمن وعسير فكانت معروفة من زمان الفينيقيين والعبرانيين وهي «شويلة» و «شيبا» و « أوفير» و «فراويم » والمظنون ان « شويلة» هي «خولان» وان «شيبا »هي سبا .وان فروايم هي فروة .وأما «اوفير» فمذكور في التوراة . ويظن انه في المكان المسمى سينبابي

---

(١) ضبطها الاستاذ موريتز ، بضم فسكون وهكذا في تاج العروس انه على وزن قنفذ ، وقد جاء في معجم البلدان «خترب» اسم موضع لكن بفتح فسكون

(٢) جاء في القاموس للفيروزابادي: والنقرة ويقال معدن النقرة وقد تكسر قافهما

(٣) جاء في المعجم: الحسن في ديار ضبة. وسنذكر كلام الهمداني نفسه عن هذه الاماكن

(٤) الحفير كزبير جاء ذكره في المعجم وفي التاج- اسما لعدة مواضع أشهرها موضع بين البصرة ومكة يمر عليه الحاج . ولكن المقصود هنا معدن الحفير بناحية عماية وسننقل كلام الهمداني نفسه

(٥) ضبطه موريتز بفتح فكسر كأمير ولم أجده اسم موضع إلا بضم ففتح كزبير

(٦) سننقل كلام الهمداني عن كل هذه المواضع اه من الاصل

وكثير من المؤلفين العرب لم يكونوا يعرفون من هذه المعادن الا أسماءها ولم يكونوا محققين أماكنها ، ومن ذلك قول ياقوت : ان معدن البرم (بضم فسكون) بين مكة والطائف[١] وفي الوقت نفسه قالوا انه في وادى تربة . كذلك معدن « العثم » الذى جرى ذكره الى القرن العاشر والحادى عشر قد جعلوه في الساحل جنوبي الليث وفي «تثليث» الى جهة الداخل . ويجوز أن يكون المكان الثاني مقصودا به معدن نجران . وعلى ١٨٠ كيلومترا من نجران الى الشمال بالعقيق الأعلى معدن صعاد[٢] الذى بأرض بني عقيل الذى قال فيهم الرسول ﷺ «بأرض بني عقيل يمطر الذهب» وقد كان هذا المعدن غزير الحصول الى القرن العاشر فانقطع ذكره . واشتهر معدن ضنكان (٣) شمالي عسير بجودة التبر الذى يخرج منه، ثم انقطع خبره أيضا. ويجوز أن تتغير الاسماء بكرور الايام فان ناحية « قانونا » صار اسمها في الحديث قنفذة ، وان التي كان يقال لها ليتوس هاما يوم هي « الليث » اليوم

---

(١) قال في المعجم : معدن البرم قال عرام : قرية بين مكة والطائف يقال لها المعدن، معدن البرم كثيرة النخل والزروع والمياه مياه آبار يسقون زروعهم بالزرانيق. قال أبو الدينار : معدن البرم لبني عقيل ، قات وقوله الزرانيق معناه السواني، والزرنوقان حائطان مبنيان على رأس البئر من جانبيها فتوضع عليهما النعامة وهي الخشبة المعلقة عليهما ثم يعلق بها البكرة ، قيل واذا كان الزرنوقان من خشب فهما النعامتان ، والخشبة المعترضة هي العجلة والغرب معلق بالعجلة

(٢) قال الهمداني في « صفة جزيرة العرب » : العقيق عقيقان، العقيق الأعلى للمنتفق، ومنه معدن صعاد على يوم أو يومين وهو أغزر معدن في جزيرة العرب وهو الذي ذكره النبي ﷺ في قوله «مطرت أرض عقيل ذهبا» والاسفل هو في طيء

(٣) قال في المعجم : هو واد في أسافل السراة يصب الى البحر وهو من مخاليف اليمن اه من حواشي الاصل

وفي صعدة من اليمن معدن الحديد ، وذكر السائح « هالقي » انه شاهد بعينه سنة ١٨٧٢ في خولان وسرواح شمالي صنعاء قطعا من الذهب مع الادلاء الذين كانوا معه من العرب ، وعلمت انهم يجدون هذا الذهب بشكل حبات في الرمل وفي مجاري الانهر وفي الاودية ،وفي اليمن أيضاً معادن فضة منها معدن (الرحراح) في أرض همدان »

وختم الاستاذ مورتيز رسالته على معادن بلاد العرب بقوله :

« ان جزيرة العرب هي من البلاد التي عرفها انسياح أقل من جميع أقطار الارض وأكثر ماعرفوا منها السواحل و بعض القسم الشمالي .وفي جوف الجزيرة قطعة يعدل طولها بثمانمائة كيلو متر وعرضها بستمائة كيلو متر لايعرف عنها شيء لامن أي شكل هي ولا إذا كانت صحراء ميتة او مسكونة ؟ وان عدم الاطلاع على حقائق هذه المجاهل ليس ناشئاً من طبيعة الارض كما هو ناشيء من طبيعة السكان » إنتهى ملخصاً

* * *

الدين النصيحة!!

فأنت ترى من هذه الرسالة المنشورة سنة ١٩١٧ أي منذ أربع عشرة سنة ان الاوروبيين يعرفون ما في جزيرة العرب من المعادن ان لم يكن تفصيلا فاجمالا وانه ليس عدم سماعهم بثروتها المعدنية هو الذي ثبطهم حتى اليوم عن احتلالها، بل لذلك أسباب سياسية مرجعها حفظ التوازن الدولي ، وعسكرية مرجعها صعوبة مراس أهلها

فالاولى بنا أن نغتنم هذه الفرصة ونستغل ما أمكننا من هـذه المعادن لنقوي بها جيوشنا ، ونصلح إدارتنا ، ونبث العمارة في بلادنا ، وأن لا نأخذ

هذه الامور بالتسويف والمطاولة حتى يصيبنا ما أصاب تركيا في مطاولاتها باستخراج الكنوز التي كانت تحت يدها إلى أن جاء الاجانب واستولوا عليها، فقد كانت قادرة أن تستفيد من زيت الموصل من عهد طويل، فلم تبدِ في أمره شيئاً، ولم تزل تماطل إلى أن أضاعت بهذه المماطلة ثروة تقوم بالمليارات الكثيرة من الجنيهات لا من الفرنكات، وكان عندها البحر الميت فلم تصنع في استخراج ثروته شيئاً، ولا أبدت ولا أعادت إلى أن جاء الانكليز بعد الحرب العامة فحللوا مياهه وقوموا ما يمكن أن يستخرج منه، فقالوا انه يمكن أن يستخرج منه قيمة خمسة آلاف مليار جنيه، وعشرون الف مليون طن من الفوسفات وهلم جرا مما تعيى العقول عن تصوره، وليس في جزيرة العرب شيء من الخيرات التي تقوَّم بهذه المليارات من الجنيهات ولكنه بدون شك فيها كثير من المعادن التي يمكن كلا من حكومة الحجاز ونجد السعودية وحكومة اليمن الامامية أن ترتفق به وتستعين به على اصلاح بلادها وتعزيز أجنادها، وذلك على شرط أن لا تلجأ في هذا الموضوع إلا إلى رؤوس أموال أصحابها مسلمون ليسوا من تبعة الاجانب وهذا ممكن إذا أرادته هاتان الحكومتان وبدأتا بفحص فني عن هذه الاماكن حتى تعلما ما تحت ارجلهما قبل مباشرة العمل

*
* *

﴿ كلام الهمداني في معادن جزيرة العرب ﴾

ولنذكر الآن ما قاله الهمداني في كتابه المنقطع النظير « صفة جزيرة العرب » المطبوع في « ليدن » من سبع وأربعين سنة وذلك عن معادن الجزيرة

« معادن اليمامة وديار ربيعة التي توطنتها اليوم عقيل بن كعب : معدن الحسن والحسن قرن أسود مليح وهو معدن ذهب غزير ، ومعدن الضبيب عن يسار هضب القليب ، ومعدن الثنية ثنية ابن عصام الباهلي معدن ذهب ، ومعدن العوسجة (١) من أرض غني فويق المغيرا ببطن السرداح ، والمغيرا الماء الذي يقال انه رمي عليه شاس بن زهير بن ثعلبة بن الاعرج الغنوي ، ويقال المغيرا قرن يقال له الوتدة في بطن الوادي ، ومعدنا شمام الفضة والصفر ، ومعدن تياس ذهب مخف بتياس (٢) ومعدن العقيق (٣) معدن العقيق بين العمق وبين افيعية ومعدن بيشة (٤) ومعدن الهجيرة (٥) ومعدن بني سليم (٦) فهذه معادن نجد »

ثم ذكر الهمداني الاملاح وهي مما يجب أن يحلل تحليلا فنيا ليعرف ماذا يحتوي وما يمكن أن يستخرج منه من الاجزاء التي قد تقوم بالذهب كما جرى بالبحر الميت . قال الهمداني :

« الدبيل أملاح من أوله الى آخره . الحذيقة والرابغة وصبيب والهوة ومياه الشرية ، وفيها يقول الحارث بن ظالم :

فلو طاوعت عمرك كنت منهم وما ألفيت أنتجع السحابا
ولا ضفت الشرية كل عام أجد على أبائرها الذبابا
أبائر ملحة بحزيز سوء تبيت سقاتها صردى سغابا

(١) ورد ذكر العوسجة في المعجم انه معدن فضة ببلاد باهلة

(٢) ورد ذكر تياس في المعجم ولم يذكر معدناً بل قال انه جبل بقرب اليمامة

(٣) عقيق عارض اليمامة ذكره ياقوت

(٤) تقدم ذكر بيشة

(٥) لم يذكر ياقوت عن الهجيرة الا انها موضع

(٦) تقدم ذكر معدن بني سليم اه . من حواشي الاصل

ومن أملاح العُصْق المنهلة والنعجاوي ، ومن أملاح العبامة والثعل والبغرة واحساء بني جوية، وينوفة حنتل، وناضحة، والبعرة، والنُجلية، والنقرة، والمجارة مجازة الطريق سوى مجازة اليمامة بين إجلة وبين الفَرعة . مياه الحمادة أملاح ونجيل ونجلة، والاباط، والحفيرة، والحامضة وشعبعب مياه منيم الا الجدعاء وماء يُفاء وبَرك واوان، والخُيَّانية ، والنّهيقة واللقيطة، وما احتازته بذران فقبة إرام الى خلفة وعماية عذاب كله ، والقطانية ملح ببطن السُّرّة . فأما الملح الذي يمتلح فصباح ملح الحاجر ، وملح المطلفية ، وملح القصبية، وملح يبرين ، وملح بناحية البحرين ، وفي رؤوس الجبال ملح بحيث أحمر عروق ، وهذه ملحات أهل نجد ،

فاما ملح اليمن فمن جبل الملح بمأرب ، وملح بالقمة من تهامة بناحية مَور ، والمهجم وكثير من مياه تهامة املاح، فمنها المعجر والجبال والحويتية، وجوحلي، وكل ما قارب الساحل جميعاً املاح الا اليسير »

ثم يعود إلى المعادن في موضع آخر فيقول :

قد ذكرنا معادن الذهب ، فأما معدن الفضة بالرَّضراض (بفتح أوله) فمما لا نظيرله وبها معادن حديد غير معمولة مثل نُقم (بضمتين) وغُمدان (بضم أوله) وبها فصوص البقران (محركة) ويبلغ المثاث بها مالا[1] وهو أن يكون وجهه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود ، والبقران ألوان ومعدنه بجبل أنس (بفتح أوله وكسر ثانيه) وهو ينسب الى أنس بن ألهان بن مالك ، والسعوانية من سعوان (بفتح فسكون) واد الى جنب صنعاء وهو فص أسود فيه عرق أبيض

(١) قال ياقوت في معجمه البقران بثلاث فتحات وقد تكسر القاف وربما سكنت من مخاليف اليمن لبنى نجيد يجلب منه الجزع البقرانى وهو اجود انواعه قالوا وقد يبلغ الفص منه مائة دينار قلت لعل هذا كان قديماً فأما في زماننا فما رأيت ولا سمعت فص جزع بلغ دينار قط ولو انتهت غايته في الحسن الى اقصى مداها اهـ . من هوامش الاصل

ومعدنه بشهارة (بضم أوله) وعيشان (بفتح أوله) من بلد حاشد الى جنب هنوم (بكسر فسكون ففتح) وظُليمة (بضم ففتح) والجمش (بفتح أوله) من شرف همدان ، والعشاري (بضم أوله) وهو الحجر السماوي من عشار بالقرب من صنعاء ، والبلور يوجـد في مواضع منها ، والمسنيّ لذي يعمل منه نصب السكاكين يوجد في مواضع منها ، والعقيق الاحمر والعقيق الاصفر العتيقان من ألهان ، وبها الجزع الموشي والمسيّر وهو في مواضع منها منه النُقميّ وهو نخل العرف والسعواني والضهري منه أجش والخولاني والجرتي (بضم فسكون) من عذيقة ، والشزب (بفتح فسكون) يعمل منه ألواح وصفائح وقوائم سيوف ونصب سكاكين ومداهن وفحفة وغير ذلك ، وليس سواه إلا في بلد الهند ، والهندي بعرق واحد »

ثم ذكر الهمداني معدن الرضراض في موضع آخر صفحة ٨١ من النسخة المطبوعة بليدن فقـال :

وأودية الرضراض وحريب نهم ومشاربها من جبال السرضرع ، وسامك ومساقط بلد عذر مطرة ، وبلديام وهيلان ، وتحت سامك الرضراض ، واليه ينسب معدن الرضراض ، وثم قرية المعدن معدن الفضة وهو معدن لا نظير له في الغزر وخرّب بعد قتل محمد بن يعفر . اه

وقد تقـدم ذكر الهمداني معدن البرام بقرب الطائف ، وقد ذكر أيضاً في كلامه على بلد حرام من كنانة معدن ضنكان (بفتح فسكون) وقال عنه هو معدن غزير ولا بأس بتبره ثم ذكر معدن عشم (محركة) أيضاً

ولقد كان الملك حسين بن علي في أثناء ولايته انتدب بعض متخصصين في الزراعة وفي علم طبقات الارض للبحث في أراضي الحجاز وأبداء آرائهم فيما يمكن عمله لاستثمارها فجالوا في الاراضي ونظروا ودققوا ورفعوا لجلالته تقريراً نشر

الخير الزركلي خلاصته في كتابه « مارأيت وما سمعت » ومنه يظهر ان أراضي المنطقة الطائفية صالحة جداً للزراعة وانه ينبت فيها أكثر الاشياء النافعة كالشوندر والبطاطا والتبغ والقنب والسمسم والارز والقطن والورد وغيرها. فأما عن تشكلات الارض الجيولوجية فقد قررت البعثة الفنية المذكورة مايلي نأثره بحرفه:

تقرير علمي فني في صفة أراضي الحجاز وصخورها

« الاراضي التي في منطقة الطائف هي من أقدم طبقات الاراضي الجيولوجية جميعها من الصخور الاندفاعية الصلبة وهي لا تمتص المياه ولذلك يقل وجود الماء في الجبال إذ تتسرب عنها وترسب في الاودية.

«وهذه الصخور مركبة من « غنايس » رمادي اللون فيه ذرات سوداء ويتركب من « ميقا » و « كوارتس » « وفلدسبات » ثم تليه طبقة صخور « الغرانيت » وهو على الغالب أحمر اللون فيه حبيبات رمادية لماعة وتركيبه كتركيب « الغنايس » وتليه طبقة صخور « البازالت » وهو صخر بركاني كحلي او أسود اللون مثقب كالاسفنج. وقد تتغير هيئة الصخور في منطقة الطائف ويكثر فيها صخر « الميكاشيت » وهو صخر أسود اللون مصفح ذو طبقات بعضها فوق بعض و « الكوارس » وهو صخر أبيض لماع وقد يوجد بصفة متبلورة ويتركب منه « السيليس الصلفي » ويعلو هذه الطبقة القديمة طبقة مركبة من « الكلسيت » اجتمعت في الاودية ومجاري السيول، وعلى مرور الزمان تألفت الطبقة العليا التي هي من تفتت الصخور الممتدة فوق الارض. ومن خصائص هذه الطبقات القديمة انها تحتوي على معادن من الجنس الجيد ومن جملتها معدنان

(أحدهما) رمل مركب من حديد « مؤكسد » ممزوج به قليل من النحاس ويبلغ مقدار الحديد نحو ٦٠ في المائة ولا بد من تحسن المعدن في العمق

(والثاني) حديد مؤكسد أيضاً انما هو صاف من الجنس الجيد يصلح

للاستخراج ويحتوي على نحو ٧٠ في المائة حديداً صرفا ، وفي منطقة الطائف خصوصا مابين عين الخضرة والطائف - مقادير وافرة من المرمر الاحمر الجميل الذي من فوائده انه يعمل أعمدة للابنية الجميلة وتوضع منه أشكال عديدة للزخرف »

ثم جاء في ذلك التقرير :

« وعلى بعد أربع ساعات من الطائف محلة تدعى « المعدن » فيها جبل مرتفع ٥٤٠ قدما به حفريات قديمة تنبيء باستخراج معدن منه، وفيه آثار معدنية تحتوي على شيء من الحديد وقليل من النحاس ، واذا حفر هذا الموضع فلا بد من وجود أشكال معدنية غير الشكل الظاهر على السطح ، ومما يبرهن على استخراج هذا المعدن قديما آثار بيوت مبنية في قمة الجبل وبوادق من حجر يحرق فيها المعدن بنار الحطب أو الفحم ويستخرج منها الحديد ، واذا أريدت متابعة استخراجه الآن لم يكف له الحفر على وجه الارض ، بل ينبغي حفر آبار تتفرع منها سراديب تحت الارض

وفي جبل الوهط جنس صخر يدعى « ميضا » أبيض اللون ، تتجزأ منه صحف رقيقه كالورق، شفافة كالزجاج ، وهو غير قابل للذوبان في النار مهما بلغت حرارتها . ومن فوائده انه يستعمل للآلات الكهربائية ، وللمواقد الحديدية ، المتخذة للدفء . وفيه من الحجر الكلس المتبلور الصافي ، الصالح لاستخراج الكلس ، الصافي اللون » انتهى

(قلت) قد رأيت في بلاد الطائف أشكالا وألوانا من الحجارة وأتذكر اني رأيت في العقبة المسماة « بكرا الصغير » التي يصعد بها الانسان من وادي المحرم إلى الهده حجراً أخضر كثيراً . وقد جاء في معجم ياقوت عند ذكر حرة بني سليم ان بها معدن «الدهنج» وهو حجر أخضر يحفر عنه كسائر المعادن

رسالة قديمة في معادن اليمن

ولقد جرنا ذكر المعادن إلى نقل رسالة صغيرة عن معادن اليمن وجدتها في آخر الجلد الذي فيه الجزء العاشر من كتاب «الاكليل» للهمداني من النسخة التي في المكتبة الملوكية في برلين ، وليس الكلام للهمداني ولاهو من عبارته وانما فيه شواهد أحيانا من كلام الهمداني

قال : « حجري وترابي في الخلقة معدن في الجبل فضة وذهب . وفي خرابة ذي حرب معدن ، وفي أب (١) معدن ، وفي افيق (٢) معدن ، وفي بلد عنس (٣) معدن ذهب في وسط الجروف فوق المزارع ، فوق الجرن معدن رصاص أسود

(١) قال ياقوت أب بالفتح والتشديد هي بليدة باليمن ، ونقل عن عمر بن عبد الخالق الابي أن إب بالكسر وان أهل اليمن لا يعرفون الفتح ، وجاء في تاج العروس عن أبي طاهر السلفي أنها بكسر الهمزة ، وجاء أن إب بالكسر من قرى ذي جبلة باليمن ، وقال الصغاني هي من مخلاف جعفر

(٢) لم نجده في الاصل مضبوطاً فلا نعلم هل هو بفتح فكسر أم بضم ففتح فسكون — وياقوت يذكر «أفيق» على وزن أمير — البلدة ذات العقبة المشرفة على بحيرة طبرية ويذكر بلداً بالتصغير - على وزن سهيل - يقول عنه موضع ببلاد بني يربوع ولا يقول غير ذلك إلا أن تاج العروس يقول إن أفيق - على وزن أمير - بلدة بين حوران والغور ومنه عقبة أفيق وبلدة لبني يربوع أو بلدة بنواحي ذمار . وقد اغفله ياقوت والصاغاني والمفهوم من كلام الفيروزبادي والزبيدي أن جميعها - على وزن أمير - وليس فيها ماهو بالتصغير ولم يذكر منهم أحد معادن لا في أب ولا في أفيق

(٣) بفتح أوله وسكون ثانيه قال ياقوت هو مخلاف باليمن وجاء في تاج العروس أن عنس لقب زيد بن مالك بن أدد أبو قبيلة من اليمن ومخلاف عنس ها مضاف اليه ولم يذكرا بها معدناً (بالحاشية) اهـ كل ماتقدم وما سيأتي في هذا الفصل من حواشي الاصل

في جرشة عنس في الشعب الذي ينزل الى ورقة في الا كمة السوداء على الشمال اذ انت نازل الى ورقة وهي حجارة سود تشبه الكحل ، تكسر الحجارة ويوقد عليه زبل الدجاج إلى أن يصير كالماء ، وفي بلد بني غصين (١) معدن فضة عند خشران بالخرابة العالية عند الخربتين الكبيرتين وهو تراب لونه أصفر مرجح إلى خضرة يؤخذ منه ويخلط عليه فراز الخل وعضة (٢) الكشر (٣) واللبن الحامض ستة أيام ويطبع فانه يصير ماء فيطلع الزبد في أعلاه

ومن المعادن المشهورة معدن فضة جيد في موضع يقال له الرضراض حد مابين خولان وهمدان كان لبني يعفر ، وقد خرب فوقه الآن جبل ذكره صاحب جزيرة العرب (٤) ولعله في حوزة نهم (٥) معادن يابسة من نهم مشهورة منها ماهو رصاص اسود جيد ، ومنها ماهو فضة . معدن فضة في بلد سارع (٦) في المغرب كان يعمل منه الامام شرف الدين عليه السلام ، وربما انهدم عليه جبل على ماوصفه أهل الخبرة

---

(١) قال ابن دريد واحسب أن بنى غصين بطن ، قال الزبيدي قلت وهم اليوم بغزة وشرذمة بالرملة ، منهم الامام المحدث الشيخ عبد القادر بن غصين الغزي الشافعي ولم يذكر ، هل هي بالتشديد أم لا ؟

(٢) العضة القطعة (٣) الكشر الخبز اليابس (٤) يريد أن يقول صاحب كتاب صفة جزيرة العرب وهو الهمداني

(٥) نهم - بالكسر - ابن عمرو بن ربيعة بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل أبو بطن من همدان قال الزبيدي صاحب تاج العروس : ومنهم بقية اليوم بصنعاء اليمن

(٦) لم نجد ذكر سارع في تاج العروس وإنما وجدنا فيه ذكر شارع بالمعجمة وقال بلدة ولم يذكر أين هي أما الهمداني في « صفة جزيرة العرب » فيذكر سارع الاعلى بمخلاف شبام مغرب صنعاء

معادن جبل نقم (١) كثيرة فيه معدن ذهب جيد ومعدن حديد كانت حمير تعمل منه السيوف الحميرية التي تسمى البرغشية، صنعت في زمن الملك برغش المشهور، قال صاحب جزيرة العرب: وفيه معادن الجواهر: الزمرد والياقوت والبلور والزجاج والجزع. وفي سعوان (٢) معدن ذهب ومعادن حجارة منها الحجر المريمي معدن صرواح (٣) ذهب جيد، وفي بيحان في الجوف (٤) معدن ذهب

(١) (نقم) بضمتين قال في القاموس: نقم بالضم بلدة باليمن. قال الزبيدى: قلت قد أجحف المصنف في ضبطها وبيانها إجحافاً كلياً والصواب في ضبطها بضمتين وبفتحتين وكعضد - كما صرح به ياقوت. وأما الضم وحده مع تسكين القاف فلم يذكره أحد، قال ياقوت هو جبل مطل على صنعاء قرب غمدان قال فيه زياد بن منقذ:

ألا حبذا أنت يا صنعاء من بلد ولا شعوب هوى مني ولا نقم

(٢) قال الهمداني جبل عيان وجبل نقم وما بينهما من حقل صنعاء وشعوب ووادي سعوان ووادي السر ومطرة وفيها أودية كثيرة واورد مثلا يمانياً: أحلك الارض مسور (بفتح فسكون) وأخنها بتوعر (بضم فضم) وأحور، فأحور (على وزن افعل) وسعوان لو عطر

(٣) صرواح حصن باليمن ذكره في التاج. وقال ياقوت: والصرواح في اليمن قرب مأرب وأنشد له جملة شواهد من الشعر منها:

أبونا الذي أهدى السروج بمأرب فآبت الى صرواح يوما نوافله

ومنها:

تشتّوا على صرواح خمسين حجة ومأرب صافوا ريفها وتربعوا

(٤) قال ياقوت عند ذكره لفظة جوف والاماكن المسماة بها. قال أبو زياد الجوف جوف المحورة ببلاد همدان ومراد. وقال الجوف من أرض مراد واستشهد عليه بشعر:

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرّت
شهدنا بأن الجوف كان لأمكم فزال عقار الأم منها فعرّت
سيمنعكم يوم اللقاء فوارس بطعن كأفواه المزاد ا...

وقال الهمداني: الجوف منفهق من الارض بين جبل ...
اللوذ وأوبن الجنوبي الموصل بهيلان من بعد، وذكر الهمداني ار

وذكر صاحب كتاب التيجان معادن الجبل الابلق وهو بالقرب من سد مأرب (١)

(١) بهمزة ساكنة وكسر الراء، قال ياقوت: هي بلاد الازد باليمن. وقال السهيلي مأرب اسم قصر كان لهم، وقيل اسم لكل ملك كان يلي سبأ كما ان تبعاً اسم لكل من ولي اليمن والشحر وحضرموت. وروى ياقوت عن المسعودي ان سد مأرب من بناء سبأ بن يشجب بن يعرب وكان سافله سبعين واديا، فمات قبل أن يستتمه فأتمه ملوك حمير بعده، وقال انه حدثه شيخ فقيه محصل من ناحية شبام كوكبان وكان مستبينا متثبتاً فيما يحكي قال له انه شاهد مأرب بعينه وهي بين حضرموت وصنعاء وبينها وبين صنعاء أربعة أيام، وهي قرية ليس بها عامر إلا ثلاث قرى يقال لها الدروب الخ، قال، وسألته عن سد مأرب فقال هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل الى موضع واحد ليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة، فكان الاوائل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر فكانوا اذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة، فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه اذا أرادوا، قال عبيد الله بن قيس الرقيات

يا ديار الحبائب بين صنعا ومأرب
جادك السعد غدوة والثريا بصائب
من صريم كأنما يرتمي كالقواضب
في اصطفاق ورنة واعتدال المواكب

وأما قصة خراب سد مأرب فطويلة، والمؤرخون على ان قبائل اليمن تفرقت في البلدان من بعده، وهم يقولون ان جرذانا حمراً حفرن السد بأنيابها حتى اقتلعت الحجر الذي لا يستقله مائة رجل، ثم أخذت تدفعه بمخاليب رجليها الى غير ذلك من الاقاويل. وما أراه إلا خرب من قلة التعاهد وانقطاع الترميم الذي يجب استمراره لمثله، وان نهاية الامر انه لما وقع فيه الخرق انهار وغرق ماؤه البلاد وأذهب الكروم والجنان والحدائق والبساتين والقصور والدور، وجاء السيل بالرمل فطمها وذهب أكثر عمران اليمن وتفرقت عربه عباديد في الاقطار، وقال الاعشى

ففي ذاك للمؤتسي أسوة ومأرب عفّى عليها العرم
رخام بنته لهم حمير اذا ما نأى ماؤهم لم يرم =

كان كل من بني قحطان وحمير وعاد يعرف معادنه، والابلق جبل متصل بالجبال الزرق، وانما قيل له الابلق لانه في ارض سوداء فيها معادن اللجين متصل بالسد وأرض غبراء فيها معادن العقيان، وأرض زرقاء فيها معادن الزبرجد والجزع، وكان يقال له الباذخ ولمأرب الشامخ، فمأرب متصل بجبال عمان، والابلق متصل ببحر لنجه

قال الحسن الهمداني: وفي بلد الهان بن زيد بن مالك معادن البقران الجيد وكذلك في جبل أبي أنس [١] بن الهان بن زيد بن مالك وهو جبل صوران [٢] الحجر العتيق من العقيق اليماني والبقراني، ويقال ان في بلد يسمى دهم في حد بني قشيب معدن، وفي رأس جبل الشرق معدن فضة. وفي وادي «مونا» بموضع خربة «الساوة» معدن فضة

قال الهمداني في كتاب جزيرة العرب

وفي جبل عشار معادن البقران وهو جيد، وفي جبل هزان [٣] قبلي مدينة ذمار معادن الحجارة النفيسة اليمانية من العقيق الاحمر والابيض والاصفر والورد وفي قرية ملص [٤]

= فأروى الحروث وأغنامها على ساعة ماؤهم أن قسم
وطار الفيول وفيّالهم بيهماء فيها سراب يطم
فكانوا بذلكم حقبة فمال بهم جارف منهدم

(١) الهمداني لايقول جبل أبي أنس بل جبل أنس بن الهان بن مالك، هكذا في النسخة المطبوعة من «صفة جزيرة العرب» ويعيد ذلك مرة ثانية في صفحة ١٠٥ فيقول جبل أنس وفيه معدن البقران

(٢) هذا الجبل مذكور في «صفة جزيرة العرب» للهمداني

«٣» جاء في التاج وهزان بن الحارث الخولاني شهد فتح مصر ولعل هذا الجبل منسوب اليه او الى رجل آخر اسمه هزان

«٤» قال في التاج وملص اسم موضع

من مغرب ذمار (١) معادن العقيق اليماني والجواهر النفيسة وذلك مشهور معاين. وعما رواه بعض حككة العقيق من أهل ملص ان في بلد زبيد ٢) معدن الزمرد العال وانه لما ظهر هدموا عليه أهل البلاد جبلا خشية أن تعيرهم

«١» قرية باليمن قيل على مرحلتين من صنعاء وقال قوم ذمار اسم صنعاء وصنعاء كلمة حبشية اى حصين وثيق قاله الحبش لما تدنوا مع ابرهة ورأوا صنعاء ورواها بعضهم بالكسر. وقال ابن دريد بالفتح قيل انه وجد في اساس الكعبة لما هدمها قريش مكتوب بالمسند «لمن ملك ذمار؟ لحمير الاخيار، لمن ملك ذمار؟ للحبشة الاشرار. لمن ملك ذمار؟ لفارس الاحرار، لمن ملك ذمار؟ لقريش النجار، ثم حار محار» اى رجع مرجعاً. واما الهمداني فقد قال في «صفة جزيرة العرب» عن ذمار ما يلي: مخلاف ذمار قرية جامعة فيها زروع وآبار قريبة ينال ماؤها باليد ويسكنها بطون من حمير وانفار من الابناء (قات: الابناء ابناء الفرس الذين كانوا احتلوا اليمن) ورأس مخاليفها بلد عنس وساكنه اليوم بعض قبائل عنس بن مذحج، ثم ذكر ذمار القرن وقال: قرية قديمة خراب. وقال ان ذمار المخدرغيرها قال واما مخاليف ذمار من غربها فهي مصنعة اثيق للمغيثين -قبيلة- وجمع والموفد وسربة ووادي القصب لبنى عبد كلال -الى ان يقول- ويسكن هذه المواضع من بطون حمير: اوزاعي ومغثي وغير ذلك

«٢» من اشهر مدن اليمن بل مدن العرب، ذكر السيد مرتضى الزبيدي صاحب «تاج العروس من جواهر القاموس» زبيد فقال- كامير- بلد باليمن مشهور اختطه محمد بن زياد مولى المهدى في زمن الرشيد العباسي إذ بعثه الى اليمن فاختار هذه البقعة واختط بها هذه المدينة المباركة وسورها وجعل لها ابواباً، ثم مات سنة ٢٤٥ ثم خلفه ابنه ابراهيم بن زياد واستمر الى سنة ٢٨٩ وخلفه ابنه زياد بن ابراهيم ومات سنة ٢٩١ ثم ابنه زياد وهو طفل فتوزر له حسين بن سلامة وهو باني السور، ثم ادار عليها سوراً ثانياً الوزير ابو منصور الفاتكي ثم ادار عليها سوراً ثالثاً سيف الاسلام طغتكين ابن ايوب في سنة ٥٨٩ وهو الذى ركب على السور اربعة ابواب، قال ابن المجاور عددت ابراج مدينة زبيد فوجدتها مائة برج وسبعة ابراج بين كل برج وبرج ثمانون ذراعاً قال ويدخل في كل برج عشرون ذراعاً فيكون دور البلد عشرة آلاف ذراع وتسعمائة ذراع وقد تكفل بتفصيل اخبارها =

القبائل وتسميهم الحكاكين (١) بلاد برط (٢) كثيرة المعادن يوجد فيهامعادن الرصاص الاسود في مواضع كثيرة صلب صاف جيد ، وفيها معادن ذهب وفضة، ويوجد فيهامعادن المرقيشيا الذهبية والفضية وما شابهها . وفي بلاد صعدة (٣)

= ابن سمرة الجندي في تاريخ اليمن وكذا صاحب المفيد في تاريخ زبيد » اه

قلت اتذكر اني قرأت ان احد خطباء الجوامع كان يدعو لاحد الملوك واظنه صلاح الدين الايوبي قائلا عنه صاحب مصر وصعيدها ، واليمن وزبيدها، والحجاز وعبيدها، والشام وصناديدها. ولعل قائلا يقول هذه جرتها السجعة فاقول له لا يحسن وقع السجعة الا اذا جاءت في محلها

(١) قلت ما احد سلم من التعيير . وقولهم عن اهل زبيد « حكاكون » اهون من قول بعضهم عن اهل اليمن ، دابغ جلد، وناسج برد، وسائس قرد، وراكب عرد ، اي حمار . ولعمري ان دبغ الجلود ونسج البرود لما يتنافس فيه اليوم، وان حمير اليمن لا نظير لها في تسلق الجبال والمشي على الصخور التي قد يزل عنها الماعز ، عرفها في الطائف جيداً، ولما صعدنا الى الجبال المسماة بالشفا التي لا تكاد تسلكها الطير لم يكن لنا حيلة بدون هذه الحمير اليمانية

(٢) برط (محركة) من بلاد همدان قال الهمداني جبل برط ساكنه دهمة من شاكرين بكيل وزروعه اعقار، وعلى المساني واهله انجد همدان وحماة العدوة ومنعة البحار

(٣) قال الهمداني اما حقل صعدة فانه مخزل من بلد همدان ولذلك خبر في كتاب الايام،ومدينة خولان العظمى صعدة واحدثت قرية الفيل من قرب صعدة وصعدة بلد الدباغ في الجاهلية الجهلاء (قلت من هنا جاء دابغ جلد عن اهل اليمن) وهي في موسط بلد القرظ ربما وقع فيها القرظ من الف رطل الى خمسمائة بدينار مطوق على وزن الدرهم القفلة (درهم قفلة بفتح فسكون اى وازن)

وقال ياقوت صعدة مخلاف باليمن بينه وبين صنعاء ستون فرسخا وبينه وبين خيوان ستة عشر فرسخاً قال الحسن بن محمد المهلبي : صعدة مدينة عامرة آهلة يقصدها التجار من كل بلد وبها مدابغ الأدم وجلود البقر التي للنعال وهي خصبة كثيرة الخير ، وهي في الاقليم الثاني عرضها ست عشرة درجة وارتفاعها وجميع وجوه المال مائة الف دينار

معادن الحديد يدخله أهل البادية تراباً الى مدينة صعدة ويخلص فيها ، والكثير منه في بلاد بني جماعة (١) وأجود ما كان من بلاد باقم (٢) معدن الهندوان (٣) والمرقيشيا في الشام (أي الشمال) كثير موجود ، وفي قلعة وادي ظهر (٤) معدن حديد ومعدن فضة . قال الهمداني في كتابه هذا : كان بنو يعفر يحملون الفضة من شبام (٥) سحم الى صنعاء ، وهي بالقرب من صنعاء على ساعتين قريب من ذى مرمر ، فظاهر قوله ان فيها معدن فضة .

وذكر بعض الفقهاء انه وُجد بجبل صبر (٦) معدن ذهب وعمل منه عملا إلا انه كان يقسى عليه ولعله لم يحكم تدبيره

«١» قال الهمداني وادى نجران فروعه من ثلاثة مواضع من بلد بني خيف من وادعة ومن بلد بنى جماعة من خولان ومن بلد شاكر

«٢» ذكر في تاج العروس البقوم قبيلة من الازد وقال ان واحدهم باقم

«٣» لا نعلم ما يريد بالهندوان فلعله مختصر من الهندواني وهذا شيء منسوب إلى الهند

«٤» لعله منسوب إلى ظهر بطن من حمير

«٥» شبام بكسر أوله حي من همدان من اليمن وجبل لهمدان باليمن وبه سميت القبيلة المذكورة لنزولهم فيه على ما في تاج العروس وأيضاً بلد تحت جبل كوكبان وأيضاً بلد لبني حبيب عند ذي مرمر والارجح أن شبام المقصودة هى هذه . والهمداني يقول ان شبام هي أول بلاد حمير وهي مدينة الجميع الكبيرة وبها ثلاثون مسجداً لكنه يذكر أن نصفها خراب خربتها كندة

«٦» قال ياقوت : صبر - بفتح أوله وكسر ثانيه - بلفظ الصبر من العقاقير اسم الجبل الشامخ العظيم المطل على قلعة « تعز » فيه عدة حصون وقرى باليمن وقال ابن أبي الدمينة جبل صبر في بلاد المعافر وسكانه الركب والحواشب من حمير وسكسك

وفي بلاد المعافر (١) من اليمن الاعلى والاسفل معادن كثيرة إلا اننا لم نطلع على شيء من أخبار مواضعها

١) معافر أبو حي من همدان لا ينصرف لانه جاء على مثال ما لا ينصرف من الجمع واليه تنسب الثياب المعافرية ويقال ثوب معافري فتصرفه لأنك أدخلت عليه ياء النسبة ونسب على الجمع لأن معافر اسم لشيء كما تقول لرجل من كلاب كلابي

وجاء في كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمداني مخلاف المعافر أما الجوة من عمل المعافر فالرأس فيها والسلطان عليها إلى آل ذي المغلس الهمداني ثم المراني من ولد عمير ذي المران قيل همدان الذي كتب اليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأماجباً وأعمالها وهي كورة المعافر فهي في فجوة بين صبر وجبل ذخر وطريقها في وادي الظبات ومنها اودية ذخر ونباشعة ويسكنها السكاسك ورسمان ويسكنه الركب وبنو مجيد وجبرة لهم من بني واقد ومن الركب النشورة وملوك المعافر آل الكرندي من سبأ الاصغر ينتمون إلى ولادة الابيض بن حمال منازلهم بالجبل من قاع جبأ، ومشرب الجميع من عين تنحدر من رأس جبل صبر غزيرة يقال لها «أنف» أخف ماء وأطيبه ويصلح عليه الشعر ويكثر، وأهل المعافر وما والاها يستعملون السكينية في الرأس وتحسن في بلادهم (قلت السكينية طرة منسوبة الى سكينة على وزن جهينة وهي بنت الحسين بن علي رضي الله عنهما شهدت مع أبيها الطف ولما رجعت الى المدينة خطبها أشراف قريش فأبت وترفعت وبقيت تبكي على أبيها حتى ماتت كمداً رضي الله عنها) ويفضي قاع جبأ في المنحدر إلى ناحية بلد بني مجيد إلى كثير من قرى المعافر مثل حرازة وصحارة وعزازة والدمينة ويزداد وساكن هذه المواضع من بطون حمير من ولد المعافر بن يعفر اه

(قلت) وكانت معافر كثيرة العدد في جالية العرب إلى الاندلس وقد جاء أمامي ذكر «المعافري» كثيراً في كتاب الصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبار البلنسي وبغية الملتمس لابن عميرة ونفح الطيب للمقري وناهيك أن محمد بن أبي عامر الملك المنصور الشهير الفاتح — المعدود من أعظم رجال الاسلام بل رجال العالم الذي غزا ستاً وخمسين غزوة في الافرنج لم تنكس له في واحدة منها راية — هو معافري ونسبه محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري وعبد الملك جده هو الوافد مع طارق بن زياد على الاندلس

ووصف بعض أهل الصناعة في صيغة الفضة انه وجد معدن فضة فوق مدينة جبلة (١) ومعدن رصاص أسود في الشعب المدني . وذكر أيضاً ان في جبل بني سبأ (٢) قبلي ضرية (٣) عمرو ، وفي رأس نقيل سمارة (٤) مما يلي بني سيف معدن نحاس وقد أخذ منه وعمل عملا وهو بالقرب من الطريق الذي ينزل منها إلى بنى سيف ، وفي مكان يسمى حوبر (٥) قفر حاشد (٦)

(١) جبلة (بكسر فسكون) مدينة باليمن تحت جبل صبر وتسمى ذات النهرين وهي من أحسن مدن اليمن ، وأزهها، وأطيبها . قال عمارة جبلة رجل يهودي كان يبيع الفخار في الموضع الذي بنت فيه الحرة الصليحية دار العروبة وسميت باسمها . وكان أول من اختطها عبدالله بن محمد الصليحي. ويقال لها ذو جبلة أيضاً. وياقوت قال انها مدينة ، وصاحب تاج العروس قال انها قرية ـ ولعلها في زمن الزبيدي أي منذ نحو ٢٠٠ سنة ـ كانت انحطت الى قرية (٢) بفتح أوله وثانيه وهمز آخره وقصره ـ أرض باليمن مدينتها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ـ على قول ياقوت ـ سميت سبأ باسم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وكان اسم سبأ عامراً وإنما سمي سبأ لانه أول من سبى السبي ولما كان سيل العرم تفرق أهل اليمن فقيل ذهبوا ايدي سبا أي طرائق سبأ، فاليد الطريق ومتى قيل تفرقوا أيدى سبا لا ينبغي الهمز لأنه كثر في كلامهم فاستثقلوا الهمزة

(٣) الضرية بفتح فكسر وياء مشددة مأخوذة من الضراء وهو ما واراك من شجر ويقال للارض المستوية إذا كان فيها شجر ضراء فان كانت في هبطة فهي غيضة

(٤) النقيل بلغة أهل اليمن العقبة وفي اليمن نقيل بين مخلاف جعفر وبين حقل ذمار وعمل فيه سيف الاسلام عتباً سهل به طلوعه وفي رأسه قلعة تسمى سمارة قاله ياقوت

(٥) لم نعرف هل هو حوبر بالمهملة أو جوبر بالمعجمة أو هو مصحف عن حوير بالياء أو جوير او عن غير ذلك وقد وجدنا خوير اسم نهر بالخاء المعجمة في ارض حاشد

(٦) حاشد حي من همدان يذكر مع بكيل قال الهمداني أما بلد همدان فانه آخذ لما بين الغائط وتهامة من نجد والسراة في شمالي صنعاء ما بينها وبين صعدة من بلد خولان ابن عمرو بن الحاف بن قضاعة وهو منقسم بخط عرضي ما بين صنعاء وصعدة فشرقيه لبكيل وغربيه لحاشد وفي قسم بكيل بلاد لحاشد وفي قسم حاشد بلاد لبكيل ثم شرح الهمداني أقسام كل من حاشد وبكيل ومدن الفريقين وقراهما وأوديتهما وأسواقهما فمن شاء معرفة ذلك فعليه بمطالعة « صفة جزيرة العرب »

وعتمة (١) معدن ذهب، وفي بلد سماه معدن فضة، وفي وادمن بلد حراز (٢) معدن ذهب وفي ذمار القرن معدن نحاس أحمر جيد، وكذلك اثنان من المعادن في رداع (٣)

(١) حصن من جبال وصاب من عمل زبيد ولفظها بضمتين

(٢) بالفتح وتخفيف الرآء وآخره زاى ـ مخلاف باليمن قرب زبيد سمى باسم بطن من حمير وهو حراز بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن أيمن ابن الهميسع ابن حمير ويقال لقريتهم حرازة وبها تعمل الاطباق الحرازية قاله ياقوت في المعجم وذكر الهمداني أيضا الاطباق الحرازية وربما نقله ياقوت عنه

وأما قول الهمداني عن حراز فهو مايلي: مخلاف حراز وهوزن سبعة أسباع أي سبع بلاد: حراز المستحرزة، وهوزن وكرارا وإليها تنسب البقر الكرارية، وصعفان، ومشار، ولهاب، ومجيح، وشبام، ويجمع الجميع اسم حراز وهوزن وهما بطنان من حمير الكبرى وهما ابنا الغوث بن سعد بن عوف بن عدي

(٣) ذكر الهمداني رداع في وادي اليمن الشرقى وقال ياقوت: رداع بضم أوله ـ وأصله النكس من المرض وقيل وجع الجسد اجمع ـ هو مخلاف من مخاليف اليمن وهو مخلاف خولان بين نجد وحمير الذي عليه مصانع رعين وبين نجد مذحج الذي عليه ردمان وقرن، قال وبه وادي النمل المذكور في القرآن المجيد وخبرني بعض أهل اليمن انه بكسر الراء. ومنها أحمد بن عيسى الخولاني له ارجوزة في الحج تسمى الرداعية قلت هذه الارجوزة استوفاها الهمداني في آخر كتابه «صفة جزيرة العرب» أولها

أول ما أبدأ من مقالي ... فالحمد للمنعم ذي الجلال
والمن والآلاء والافضال ... والملك والجد الرفيع العالي
عد خليلي كم مضت ليال ... من شهر ذي القعدة مع شوال
ثم انم بالكور على شملال ... عيدية او قطم ذيال
قددق منه موضع الحبالي ... ثمت نادى القوم بارتحال

قوله «الجد الرفيع العالى» أي العظمة قال في تاج العروس الجد العظمة وفي التنزيل (وانه تعالى جد ربنا) قيل جده عظمته وقيل غناه وقال مجاهد جد ربنا جلال =

= ربنا وقال بعضهم عظمة ربنا وهما قريبان على السواء وفي حديث دعاء الاستفتاح في الصلاة «تبارك اسمك وتعالى جدك» اه قال لي السيد جمال الدين الافغاني. تعالى جدك أي سريرك والجد هو معرب «ككد» وهو السرير بالفارسية ولكن غاب عن علمائنا أصله

ثم منها

فتيان صدق من بني أبيكا فانهم أولى بما يعنيكا
واسرع القوم لما يرضيكا إني سأصفيك الذي أصفيكا
فاسمع الى قولي إذ أوصيكا أوامراً أضعاف مايوليكا
من بره يرغب ويزدد فيكا ثم ادع رباً مالكا مليكا
فانه أجدر ان يكفيكا وقل صحابي ارتحلوا وشيكا

وهي نحو ٥٥٠ بيتاً مقسومة إلى مقطوعات كل مقطوعة خمسة أبيات يذكر فيها جميع منازل الحج إلى البيت الحرام برجز ساس متين بغاية الانسجام

ويقول عند الوصول الى البيت

بعقبه في الحرم المحرم ألقي به يا ناق رحلي واسلمي
في منزل كان لرهط الاقدم ثم عن الحجون لا تلعثمي
الى جوابيها العظام العظم ثم اشربي ان شئت او تقدمي
منها لردم السؤدد المردم ردم بني مخزومها المخزم
حتى تناخي عند باب الاعظم وتشربي رياً بحوض زمزم

***

والحمد لله الذى قد انعما سيرنا في ارضه وسلما
حتى اتينا بيته المحرما منا فعظمناه مع من عظما
ثم هدانا نسكا وعلما كما هدى قبل ابانا آدما
ثم تطوفنا به محرما وسنة يفعلها من اسلما
ثم استلمنا ركنه المكرما ثم ركعنا ووردنا زمزما

***

ويقول في الافاضة

حتى اذا ضوء النهار ادبرا وغابت الشمس استطاروا حسرا =

واثنان ذهب وحديد في القانع (١) وكذلك معدن في البيضا (٢) نحاس
ومما وجد في بعض الكتب المكتوم سرها وتركيبها من معادن الاجساد
الترابية التي بين بيشة وذمار خمسة وعشرون موضعاً مشهورة ، ولا يصلح منها

= يدعون ذاالعز الذى تحضرا ثم مضى إمامهم وكبرا
افاضة لم يك فيهم منكرا قد لزموا التودة والتوقرا
حتى اتوا جمعاً وجاءوا المشعرا ثم اناخوا ساهمات ضمرا
بها يخافون العذاب الاكبرا حتى إذا ضوء الصباح اسفرا

***

وانجاب ليل ودنا النهار سار إمام الناس ثم ساروا
مع كل مرء منهم احجار سبع لطاف صنع صغار
ثم مضوا عليهم وقار لجمرة من دونها جمار
ثم رموها ولهم كبار وحلقوا وذبحوا وازداروا
يوماً به للبدن مستطار من طول مايشحذها الشفار

***

واخر مقطوعة منها

فالحمد لله على احسانه وفضله المعروف وامتنانه
سيرنا ذو اللطف في بلدانه في رزقه العفو وفي امانه
حتى اتينا البيت في مكانه ثم قضينا شاننا من شانه
من طوفه والمسح من اركانه ثم هدانا الله في ضمانه
كلا الى المحبوب من اوطانه مع الذى يأمل من غفرانه

«١» لم نعثر على ذكر القانع او هي مصحفه

«٢» ذكر ياقوت في المعجم ستة عشر موضعاً باسم البيضاء لكنه لم يذكر ولا بيضاء فى اليمن .

إلا ستة : واحد منها بنجران ، الثاني بشرس (١) في مكان يسمى القروات ، الثالث بسحر من نواحي هجرة عريمان (٢) الرابع في بلاد بني شداد (٣) يسمونه كحال ، الخامس بردمان بني النمري (٤) في سكان يسمى العنقفير ، السادس في جبل الاحزم (٥) في سارع وهو أفضل هذه لكن قد نزل قدر ثمانين ذراعا (وفي الاصل ثمانون وصاحب هذه الرسالة لا يقيم النحو كثيراً) وحلف عليه من عرضه وهو رطب لا يحتاج لدواء

(والثاني) مما يذكر يخرج قاسيه يحتاج إلى ملينات . ثم خرج واحد في

---

١) ذكر الهمداني شرس هذه وضبطها بفتح فكسر وذلك عند كلامه على أسواق حاشد قال: فأولها وأقدمها سوق همل، وهمل (بفتحتين) من الخارف وهي سوق جاهلية. والـكلابح المرانبين من الجبر (بفتحتين) ونارى للفائشين من الجبر. وسوق صافر ، وسوق الفاقعة، وسوق الاهنوم وسوق الظهر، وسوق قطابة « بضم أوله » والعراقة « بفتح فكسر » لقرس بن قدم « بضم ففتح » عيان سوق قديمة من همدان وادران وحجة ونمل وقيلاب « بفتح فسكون » وشرس ، وحملان « بضم فسكون » وينذ الخ

٢ » أورد الهمداني ذكر سحر وهجرة

٣ » ذكر الهمداني بني شداد وقال إن لهم أودية كثيرة النخل مثل البجباجة ولحية والعلوب والمتكا

٤ » ردمان مشرق صنعاء الذي يقع بينها وبين مأرب وهو مخلاف خولان بن عمرو . وهم خولان العالية الذين ذكرهم رسول الله ﷺ فقال « اللهم صل على السكاسك والسكون وعلى الاملوك املوك ردمان وعلى خولان العالية » وقال الهمداني مخلاف رداع القريتان رداع وثاث والعروش وبشران « بضم فسكون » وأذنة « محركة » ورحبتها وبلد ردمان « بفتح فسكون »

٥ » جبل الاحزم قال الهمداني انه الجنوبي من جبلي لاعة في غربي صنعاء

قرب سوق (كذا)(١) فوق قرية الهجر (٢) من بلاد الاهنوم (٣) في زمن الامام شرف الدين عليه السلام وضع منه ولده شمس الدين بن الامام وهو جيد يماثل الذي في أحزم بالصلاح .

وحكي ان في سارع بادية تسمى السواد فيها مكان يسمى بني سعيد فيها مكان يسمى عدة الزعلا مقابل لمكان يسمى المقتال فيها جنس يفرح القلب

ومما حكي ان جبل شايبه جبل الصلب (٤) في شرقيه لون شمسي والمليح الذي ينالهالشمس. والثاني غربي الجبل مشهور كثير بجدوه(؟) يظهر في فضةمليحة طيبة . وأما المواضع التي تكثر شهرتها فواحد بجبل الشرق من بلاد أنس بمكان يسمى الركن ، والاشهر في اسمه ابو صلاح بن علي ، وواحد بمكان يسمى البونين (٥) مستور ، وواحد في اكام بني الاقرعي في مكان يسمى السهر تحت القدرة لونه عجيب يفرح القلب ،وواحدفي ملتقى وادي مزهر ووادي صيحان (٦) يقرب الجود يعرفوه البداوة وبعض المحاددين » انتهى

«١» هنا كلمة لم نقدر ان نتبينهافوضعنا محلها لفظة كذا

٢»الذي عثرنا عليه هوأن الهجر في بلدحكم بتهامة فهل هي هذه أوقرية أخرى بهذا الاسم؟لا نعلم فقد ذكر الهمداني أن معنى هجر القرية بلغة حميروالعرب العاربة فمنها هجر البحريين وهجر نجران وهجر جازان وهجر حصبة من مخلاف مأذن

٣»ورد ذكر الاهنوم في اسواق حاشد وقال الهمداني في محل آخر جبل لاهنوم من همدان ثم من حاشد بطن من خولان بن عمرو بن الحاف وهوقبالة «نخلى»من شماليه وعلى وصفه من جبال السراة وهو أحصن وأتلع واوسع

٤) نظنه الصلب بضم ففتح مشدد أي حجر المسن

٥) قال ياقوت بون مدينة باليمن وزعموا انها ذات البئر المعطلة والقصر المشيد المذكورين في القرآن العظيم قال وحدثني أبو الربيع سليمان المكي والمفضل بن أبي الحجاج انها بونان وهما كورتان ذاتا قرى البون الاعلى والبون الاسفل.ولا يقوله أهل اليمن الا بالفتح وهي مذكورة هنا بالتثنية

٦) وادي صيحان بأرض نجران

عمران جزيرة العرب

﴿ وما يجب على الحكومتين السعودية والامامية من استئنافه ﴾

هذا ما أثرنا ذكره على وجه الاختصار عن معادن جزيرة العرب التي يجب على حكومة الحجاز ونجد من جهة وحكومة اليمن من جهة أخرى ان تبادرا فيها إلى مباحث فنية دقيقة عميقة بدون أن يثبطهما عن ذلك ملاحظات سياسية كالتي تقدم ذكرها . فان هذه الملاحظات غير واردة ، وان استئناف عمران جزيرة العرب متوقف على أمرين

(أحدهما) ترقية أحوال الزراعة باستعمال الآلات الرافعة الحديثة واستنباط المياه وبناء السدود، وحفر الآبار الارتوازية وما أشبه ذلك مما يزيد كمية مياه الري

(والثاني) تعدين المعادن التي في الجزيرة واستخراج افلاذ هذه الارض التي طالما كانت تغني الاهالي في الاعصر القديمة ، وما صلح به أول الامر يصلح به آخره

فاذا دأبت الحكومات العربية المستقلة في هذه السبيل من الآن وسارت تدريجا وجدت من العرب الآخرين الذين بالشام ومصر والعراق والمغرب وغيرها من يأخذ بايديها . وذلك لان جميع العرب في الدنيا يهتمون بتقوية الجزيرة العربية وصيانتها واصلاح أمورها كما يهتمون ببلدانهم ومساقط رءوسهم ، إن لم نقل زيادة، لانها هي دار العروبة، وعقر الأمة الناطقة بالضاد، والمركز الذي تفرقوا منه إلى سائر البلدان ، والملجأ الذي يلجأون اليه اذا نبا بهم الدهر، وأديل من المد بالجزر . وحسبك أنها هي أيضاً دار الاسلام ومبعث الدين ، ومهوى أفئدة المؤمنين ، وان فيها المثابة التي تخفق عليها قلوب ثلاثمائة وخمسين مليون نسمة

من العالمين وهي البيت الحرام ـ حماه الله ـ مركز الحج ومقصد المسلمين من كل فج. فلا يوجد مسلم على وجه البسيطة إلا وقلبه مشغوف بهذا البيت وجواره، مشغول بنصرة حماته وعماره.

ولقد صادفت كثيرين من مسلمي الامم غير العربية ـ أذكر الآن منهم كثيرين من أعيان التتر وفضلائهم لقيتهم في موسكو بعد صلاة الجمعة ـ فرأيت من اهتمامهم بامر الجزيرة العربية والحجاز الشريف واحفائهم في الاسئلة عنه، وتواجدهم الشديد، مالا يمكن ان يكون أكثر منه عند العرب أنفسهم

دحض شبهة على قابلية الجزيرة للعمران

ومما يذهب اليه بعض الناس أن جزيرة العرب لا يتهيأ لها أن تكون ذات مستقبل باهر، وان تكون ميدان عمل للعرب، وذلك لحرارة اقليمها التي تزيد على درجة الاحتمال، وتمنع العرب الذين في الديار الشمالية من الدأب في اطراف الجزيرة ولا رأي أعرق من هذا الرأي في الوهم

لو كانت الحرارة تمنع العمل لمنعت الاوربيين الذين نجدهم في الهند والجاوى ومادغشكر وزنجبار والاوغاندة وموزامبيق، وبلاد الرأس، والكونغو، وغينية والسنيغال وامريكا الجنوبية وغيرها مما لا يحصى، وقد صاروا فيها كالجراد المنتشر، وعمروا فيها أوطانا، وأدركوا أوطاراً، وهم أقل منا تحملا للحرارة، وآلف منا للبلاد الباردة، ولكنهم قاتلوا حمارّة القيظ بالوسائل الفنية، وباسالة المياه، وغرس الاشجار، وبث الخضرة حول المنازل، بحيث تجدهم بواسطة الفن في نعيم مقيم في وسط ذلك السعير

على أن الحرارة الشديدة انما هي في أشهر معدودات من الصيف، وفي سواحل الجزيرة وتهائمها التي إن ارتفع الانسان عنها مسافة بضع ساعات في

الجبال رق الهواء وطاب الاقليم ومن هناك كلما ارتفع صار إلى الاهوية اللطيفة والاماكن التي لا يفضلها في الصيف مكان من المعمور كله

جبال جزيرة العرب أطيب هواء من لبنان وسويسرة

إن في جزيرة العرب سلسلة جبال عالية لا تجد أحسن منها هواء ولا أطيب اقليما لا في جبال لبنان ولا في جبال سويسرة ولا في غيرهما

ولاجل أن تعلم ارتفاع هذه الجبال أريد ان أذكر لك علو بعض المدن والقرى العربية عن سطح البحر مما أمكنني الاطلاع عليه في كتب من تأليف ضباط من أركان حرب الجيش التركي أطالوا الاقامة باليمن وكتبوا عنه

فالطائف تعلو نحو ١٦٠٠ متر عن سطح البحر على حين عين صوفر أبدع مصيف في لبنان لا تعلو أكثر من ١٢٥٠ ولا يوجد في جبل لبنان مكان مسكون يعلو عن سطح البحر أكثر من ١٥٠٠ متر

وان علو « ابها » — مركز حكومة عسير — عن سطح البحر ٢٢٧٥ مترا وأعلا منها « سوغا » فهي تعلو ٢٣٦٠ مترا . وهناك بلدة غامد وعلوها ٢١١٠ أمتار . ومحائل وعلوها ١٦١٠ أمتار

ثم ان صنعاء اليمن تعلو عن سطح البحر ٢٣٤٢ متراً . وجبل نُقُم ـ الذي تقدم ذكره ـ يعلو ٢٩٤٢ متراً ، وكوكبان ٣٠٠١ متر ، وتعز ١٣٤٧ متراً وعمران ٢٣٠٢ وصعدة ٢٢١٦ والروضة ٢٣٠٦ وتلا ٢٨٦١ وذمرمر ـ تقدم ذكرها في بحث المعادن ـ ٢٦٩٨ وشبام ـ تقدم ذكرها أيضا ـ ٢٦٣٥ وذمار ٢٤٣١ وبوعان ٢٩٣٦ وسوق الخميس ٢٣٧٢ ومناخه ٢٢٢١

فارتفاعات مثل هذه مهما يكن من وجودها في منطقة جنوبية لا يمكن الا أن تكون المثل الاعلا في رقة الهواء وطيب المناخ ، والملاءمة للصحة . وهذه الجبال

هي عندي أوتاد البيت العربي لا في منعتها الطبيعية ومواقعها الحربية فحسب، بل في بيئتها الصحية، ونقاوتها الجوية، إذ ذلك من أعظم العوامل التي تعتمد عليها الأسرة العربية في صيانة نفسها

وهذه السلسلة الجبلية العالية ممتدة من بلاد الشام، ومن أهم أقسامها وأطيبها نجعة جبال الشراة التي كانت معمورة جداً في صدر الاسلام، والتي لها مستقبل كبير للعرب ومستأنف باهر لو خلصت من أيدي الانكليز

ولقد أقمت بقصبة معان شيع شهر في أثناء الحرب العامة سنة ١٩١٥ إذ كنت ذاهبا ومعي ١٢٠ مجاهدا من جماعتي إلى حرب الترعة منضما الى الجيش العثماني الحجازي الذى كان يقوده وهيب باشا، وسرنا من معان هبوطا مستمرا إلى قلعة النخل في صحراء التيه. ولقد قطعت في تلك الرحلة جانباً من جبال الشراة وعرفت أيَّ جبال هي وأي نجعة طيبة هنالك

ومن حول وادى القرى في الحجاز جبال وأودية وعيون تقدم الكلام على شيء منها، وفي جهات المدينة المنورة جبل رضوى الشهير، قال أبو زيد وقرب ينبع جبل رضوى، وهو جبل منيف ذو شعاب وأودية، ورأيته من ينبع أخضر، وأخبرني من طاف في شعابه ان فيه مياهاً كثيرة وأشجارا، ومن رضوى يقطع حجر المسن ويحمل إلى الدنيا كلها، قال النبي ﷺ «رضوى رضي الله عنه، وقدس قدسه الله [قدس بضم فسكون جبل بتلك الناحية] وأحد يحبنا ونحبه» (١)

(١) اما جبل احد فحديثه في الصحيحين وأما رضوي وقدس فلا يصح فيهما ما ذكر وقالوا ان المراد بحب احد للنبي ﷺ حب اهله وهم الانصار رضي الله عنهم وجوز بعضهم حمله على الحقيقة لمعنى غيبي واما قوله ﷺ « ونحبه » فجواز الوجهين فيه اظهر فان الناس يحبون بلادهم واوطانهم ويفضلون بعض جبالها ومواقعها الجميلة في الحب على بعض واحب ما يحبون منها اهلها ولا سيما الآل والاصحاب والاحباب قال الشاعر

امر على الديار ديار ليلى ... اقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

قلت وحدثنا من يعرفون رضوى أنه مصيف كأحسن مايوجد من مصايف الشام ماء وهواء ، وهو على مقربة من المدينة ومن ينبع وعلى ليلتين من البحر فلا يلزم لرضوى إلا تعبيد طريق تسير عليها السيارات ليعمر وتسكنه الناس وتقصده في أيام القيظ

وقال الهمداني : الجبال المشهورة عند العرب المذكورة في أشعارها : أجأ وسلمى جبلا طيء ، وابان (بفتح أوله) وتعار (بفتح اوله) وابن (بضم فسكون) وقدس ورضوى وعروان ويسوم وحراء وثبير والعارض وقنان « بفتح أوله » وافرع (على وزن افعل) والنير (بكسر النون) وعسيب ويذبل والمجيمر ولبنان واللكام

ومن أنزه الجبال في الجزيرة :آجأ وسلمى جبلا طيء . قيل ان أجأ اسم رجل وسلمى اسم امرأة ، وقيل أجأ علم مرتجل وقيل بل منقول معناه الفرار ، يقال أجأ الرجل إذا فر

قال الزمخشري :أجأ وسلمى جبلان عن يسار السميراء وقد رأيتهما شاهقان ونقل ياقوت عن أبي عبيد السكوني: أجأ أحد جبلي طيء وهو غربي فيد . وبينهما مسير ليلتين وفيه قرى كثيرة . قال ومنازل طيء في الجبلين عشر ليال من دون فيد إلى أقصى أجأ إلى القريّات من ناحية الشام . وبين المدينة والجبلين على غير الجادة ثلاث مراحل . قال امرؤ القيس:

ابت أجأ أن تسلم العام جارها فمن شاء فلينهض لها من مقاتل

أى أبت أهل أجأ ، حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، مثل قالت انكلترة لفرنسة كذا ، واحتجت ألمانية على كذا ، وعقدت أمريكا معاهدة كذا الخ . وقال عارق الطائي :

ومن أجأ حولي رعان كأنها قنابل خيل من كميت ومن ورد

وقال العيزار بن الاخفش الطائي :

ألا حي رسم الدار أصبح بالياً وحي وإن شاب القذال الغوانيا
تحملن من سلمى فوجهن بالضحى إلى أجأ يقطعن بيدا مهاويا

وقال زيد بن مهلهل الطائي :

جلبنا الخيل من أجأ وسلمى تخب نزائعاً خبب الركاب
جلبنـا كل طرف أعوجي وسَـلهبة كخافيـة الغراب

وكان يحدثني عن هذين الجبلين وما فيهما من الريف والخصب والاودية والعيون الاخ رشيد باشا النجدي الذي كان معتمداً لابن رشيد في الاستانة العلية أيام السلطنـة العثمانية . وسمعت أخبارهما من نجديين آخرين ، وطالما تمنيت لو أمكنتني الرحلة إلى نجد والتنزه فيهما

والسلسلة الجبلية من الحجاز الى اليمن متصلة ،وعن يمين الذاهب من الشام إلى مكة التهائم الواصلة الى سيف البحر الاحمر ، وعن اليسار بلاد نجد وهي من أطيب البـلدان نجعة وألطفها هواء يضرب المثل بجودة هوائها فيقال بلاد نجدية الهواء (١)

واذا سار الراكب من الطائف إلى صنعاء اليمن لم يصل اليها الا في مسيرة شهر كلها في الجبال العالية، والاهوية اللطيفة ، والمناظر البديعة ،والمناهل العذبة،

(١) للشعراء من المـدح لهواء نجد والحنين الى صبا نجد ما يكاد يفوق نسيبهم وتشبيبهم بغواني الحسان ، ولعل أمير البيان لو تذكر هذا هنا لروي لنا من محفوظه الواسع من الشعر الرائع ، هو اشد تشويقا لجزيرة العرب من سرد اسماء المواقع ، فان ذكر تلك الصبا ، يكاد يكون ارق من ذكري ايام الصبا ، وحسبي في هذه الحواشي التي اكتبها باذن الامير لتكون ذكرى لإخائنا الذي لا يلزبه نظير ، قول الشاعر الشهير

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه
وإياكما ذاك النسيم فانه اذا هب كان الوجد أيسر خطبه

ما شاهدنا من الاماكن النزهة بجوار الطائف

وأما ماتيسر لي مشاهدته من الاماكن النزهة بجوار الطائف فهو وادي محرم أى قرن المنازل الذى ينتهي إلى وادي السيل ، ومنه يحرم الحجاج الذين هم آتون من الشرق ، ولا يبعد وادي محرم عن الطائف أكثر من ساعة ونصف وهو على طريق الكرا ، وهو واد يجف في الصيف إلا أن البساتين منتظمة بجانبه على مسافة ثلاث أو أربع ساعات ، تشرب بالسواني وفيها من جميع أصناف الفواكه وألذها ، ولم أصادف عنباً أشهى ولا أكبر حباً من عنب وادي محرم . ومن هذا الوادى يصعد الانسان إلى الهدة مرتقياً العقبة المسماة « الكرا الصغير » وخمنت علوها بثلاثمائة متر ومرتقاها صعب

وقد كان الواجب على الحكومة وعلى أهالي القرى الكثيرة المجاورة ولاسيما وادى محرم أن يصلحوا هذا المرتقى الذي يترجل فيه كل الركبان من وسط العقبة . وإذا وصل الانسان إلى سطح الجبل وجد يفاعا منبسطا ينشرح له الصدر ، وشاهد جنانا ناضرة تشرب بالسواني أيضا يقال لها بستان المغربي وبستان البنّي وغيرهما . ولقد بتنا ليلتين بوادي محرم ، وليلة واحدة في بستان المغربي ضيوفا على صاحب البستان وهو مغربي تونسي الاصل أبوه جاء الى هذا المكان وتمكن به . وهناك جبل عال جداً ربما يعلو ٢٥٠ متراً عن البساتين يقال له جبل الهندي وهو ناتيء من الارض صعداً أشبه بالمئذنة وكان في إحدى ذراه حصن بقيت فيه مدافع وجنود إلى آخر أيام الملك حسين ، وقد طلعنا هذا الجبل إلى قنته فظهر لنا جانب كبير من الحجاز وبدت لنا خضرة ونضرة وأودية لا يأخذها الاحصاء ، وكان منظراً يبهر العقول

وبازاء هذا الجبل جبل آخر أقل منه ارتفاعا اسمه « جبل الكمل » بحذائه قرية بل قرى وبساتين تسقيها النواضح . ومن الكمل الى قرية الهدة مسيرة

نصف ساعة لاغير ، والهدة قرية من أشهر قرى الحجاز تعلو ١٧٦٠ متراً عن سطح البحر، وفيها جنان ومنازه وبعض مصايف لاهل مكة ، ولها منظر على وادي نعمان لامثيل له في بلاد العرب لان الناظر يشرف منها على شفير الوادي المسمى « الكرا الكبير » ذي العقبة الشهيرة التي تأخذ ثلاث ساعات على الصاعد وهي من الوقوف في مثل الحائط ، واذا أشرف الرائي على حافة هذا الشفير لم يكن أمامه العمق الهائل فقط ، بل العمق الهائل والمعرض المدهش، فللنظر هناك مد ليس له حد

وتكتب « الهدة » بتشديد الدال لكن غلب عليها التخفيف ، وقد ذكرها ياقوت في المعجم وقال انها مكان بين مكة والطائف فيه القرود (١)

قلت والقرود توجد في جبل الكمل الذي فوق الهدة وتقدم ذكره وتكثر في بعض جبال الحجاز ولكنها في جبال اليمن أكثر جداً

ومن كثرة ماتوصف اليمن بالقردة صار الذين يريدون أن يتنادروا على أهل اليمن يقولون ان أباهم قرد .

روى ياقوت ان زياد بن عبيد الله الحارثي خال الخليفة أبي العباس السفاح اجتمع بابن هبيرة الفزاري ـ وكان الاول يمانيا وكان الثاني قيسيا ـ فقال ابن

---

(١) اقتصر الامير هنا على هذا خلافا لعادته في الاستقصاء وقد ذكر ياقوت في حرف الهاء ثلاثة مواضع (١) الهدي المقصور قال (الهدى) بالفتح منقول عن الفعل الماضي من هدى يهدي اذا ارشد — موضع في نواحي الطائف (٢) (الهدة) بالفتح ثم التشديد وهو الخسفة في الارض ، والهد الهدم ـ وهو موضع بين مكة والطائف والنسبة اليه هدوي ، وهو موضع القرود وقد خفف بعضهم داله (٣) الهدة بتخفيف الدال من الهدي او الهدى بزيادة هاء ـ بأعلى مر الظهران بعدرة اهل مكة ، والمدرطين ابيض يحمل منها الى مكة تأكله النساء ويدق ويضاف اليه الاذخر يغسلون به ايديهم اه وذكر هذه في التاج وزاد ان بعضهم يزيد فيها ألف فيقول الهداة . اقول ولم أسمع من نطق اهل مكة الا (الهدى) بالفتح والقصر

هبيرة لزياد : ممن الرجل ؟ فقال زياد : من اليمن . فقال ابن هبيرة : فاخبرني عنها . فقال زياد : اما جبالها فكروم وورس ، واما سهولها فبر وشعير وذرة . فتغير وجه ابن هبيرة وقال : او ليس ابو اليمن القرد ؟ فقال زياد : انما يكنى القرد بولده وهو ابو قيس فيوجب أن يكون ابا قيس عيلان ، فاصفر لون ابن هبيرة من هذا الجواب

فمن هنا يظهر ان مذهب داروين كان ملحوظا في الغابرين، وكان خاطر ابوة القرد لابن آدم وارداً ، الا ان ما كان يقال في الماضي مزاحا صار اليوم جداً بحثاً وحقيقة علمية . اقول حقيقة علمية بحسب رأي بعضهم ، والا فليس بصحيح ان الجمهور كلهم في اوربة تلقوا هذا الرأي بالتسليم ، بل العلماء في اوربة لايزالون فيه مختلفين . وقد كثر في السنين الاخيرة العلماء القائلون بنقضه ، والا كثرون على عدم الجزم لعدم كفاية دلائله ، ولوفرة نواقضه ونواقصه ، ومن العلماء من يقف موقفاً وسطا في النظرية الداروينية فيحكم بصحة بعضها ويرد البعض الآخر مما ليس هنا موضعه

ناحية الشفا من جبال الطائف

ومن أنزه الجبال التي عهدتها في حياتي وأبدعها مصيفا وأطيبها نجعة وأنقاها اقليما الناحية التي يقال لها « الشفا » (بفتح أوله) وهي جبال المسكون منها يعلو عن الطائف نحو ألف متر وربما أكثر . وسكان هذه الناحية السفاينة من ثقيف ولا تبعد عن الطائف أكثر من أربع أو خمس ساعات بالسير المعتدل

قصدنا البهامن الوهط والوهيط في رفقة من اخواننا الدكتور محمود بك حمدي رئيس الصحية الحجازية ، وفؤاد بك حمزة مستشار الخارجية ، وفوزي بك القاوقجي قائد القوة النظامية الحجازية ، والسيد الطيب الهزاز من رجال المعية الملوكية ، ورشدي بك ملحس محرر جريدة « أم القرى » فبتنا ليلة في الوهط

وليلة في الوهيط، ثم أصبحنا قاصدين شقرا صاعدين اليها في عقاب، فبلغناها بعد مسير ساعتين من الوهيط ، ومررنا في طريقنا بخربة ذات جبانة متسعة يستدل منها على أن القرية كانت ذات شان. وفي تلك الاودية سدر كثير وطلح وأشجار غيرها، وفي الجبال عرعر كثير

وأما شقرا ففي واد لطيف عن جانبيه البساتين تسقيها النواعير أو السواني وهي حارتان : شقرا العليا وشقرا السفلى . وقد كان نزولنا عند مختار شقرا السفلى ، وشعرنا من النشاط ورقة الهواء في شقرا ما لم نعهده لا في الطائف ولا في مكان آخر . ولغة أهل تلك الديار فصيحة ، سمعتهم يقولون : خصر الماء ، أي برد ، فخطر ببالي قول شاعر قريش في الحجاز عمر بن أبي ربيعة :

رأت رجلاً أما اذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر

ومن شقرا صعدنا عقابا أوعر وأعلى من التي توقلنا فيها بين الوهيط وشقرا ثم انحدرنا من رأس العقبة الى واد هو مبدأ وادي لية الشهير. وكنا كلما تقدمنا في السير رأينا الحراج تزداد ولا سيما العرعر والعفص. ومن ذلك الوادي عدنا الى التصعيد فوصلنا الى قرية صغيرة اسمها (مسيمير) فبتنا فيها وشممنا هواءً عاطراً، وشربنا ماءً خاصراً [1] وشاهدنا منظراً ناضرا

قرية الفرع وموقعها من أفضل مصايف الدنيا

ومن مسيمير تسلقنا في عقبة أوعر من كل ما مضى أخذت أكثر من ساعة ونصف أفضنا في منتهاها الى يفاع أفيح عليه قرية كبيرة متفرقة الحارات اسمها (الفرع) هي من أعلى المعمور في جبال الحجاز ، ومعنى الفرع في اللغة أعلى الشيء

---

(١) خصر الماء وغيره فهو خصر (كتعب فهو تعب) أي برد

ومن محاسن هذه القرية انها مع علوها ـ ولا أظنه أقل من ٢٥٠٠ متر عن سطح البحر ـ واقعة في بسيط من الارض تحيط به الهضاب الخضر المغطاة بالحراج من الارز والعرعر ، وهذا البسيط المطمئن في الوسط منه ما هو مزارع للحبوب ومنه ماهو مباقل للخضر ومنه ما هو جنان للفواكه ، وكل ماينبت هناك يأتي بغاية الزكاء والفكاهة ، والجنان تسقى بالسواني والماء غزير

ولما صرت في الفرع تمنيت أن يكون لي هناك مصيف ، ورجحته على أي مصيف آخر حتى على عين صوفر التي هي أنزه مصايف جبل لبنان مع كثرتها والتي قضيت مدة شبابي أقيظ بها، ولي فيها الاراضي الواسعة والعقارات ، نعم لم أجد أعلى ولا أهنأ ولا أعزل من الفرع

وإلى الغرب من الفرع على مسافة ٢٠ دقيقة فقط شفير عال يشرف منه الانسان على واد عميق قد حزرت انحطاطه عن الفرع بنحو ألف متر، وقد ذكر لي أهل الفرع انهم في فصل الشتاء ينحدرون من الفرع الى هذا الوادي بمواشيهم ويشتون فيه ولا يبقى في القرية سوى بعض الحراس

وأمام هذا الوادي الى جهة الغرب ـ أي الى البحر ـ جبل عال أيضاً لكنه ليس بعلو جبل الفرع ، ووراء هذا الجبل أودية أخرى ثم جبال أقل ارتفاعا وهكذا الى أن تصل الى البحر بين جدة والليث ، وقد سألتهم : كم مرحلة من الفرع الى جدة ؟ فقالوا انهم يصلون الى جدة في ٨ أيام بسير البعير

والى الجنوب الغربي من الفرع جبل متصل بالفرع له قمة شاهقة تعلو نحوا من ثلاثمائة متر عن أرض القرية يشرف منها الانسان على البحر الاحمر، وقد حدثني صديقي الشيـخ عبد القادر الشيبي انه رأى بناظوره من تلك القمة المراكب الشراعية ماخرة في بحر الليث ، وشعفات الجبال هناك كلها شاهقة في السماء أينما وقف فيها الرائي رأى منظراً عجبا

وإلى الشرق الشمالي من الفرع قرية يقال لها «الشرف» (محركة) هي على مساواة الفرع. ولم يقدر لنا الذهاب إلى هذه القرية وما جاورها من القرى التي هي في جبال هذيل. وجبال هذيل ممتدة من هناك الى تهامة أي إلى ساحل البحر

قال الهمداني في (صفة جزيرة العرب)

«منازل هذيل عُرَنة (بوزن همزة لمزة) وعرفة وبطن نعمان[1] ونخلة[2] ورحيل وكبكب[3] (بفتح فسكون مرتين) والبوباة[4] (بفتح فسكون) وأوطاس[5]

«١» عرنة واد بحذاء عرفات وعرفة وبطن نعمان تقدم ذكرهما اه من الاصل

«٢» نخلة واديان لهذيل الشامية واليمانية على ليلتين من مكة يجتمعان ببطن مر وسبوحة والوادى الشامي يصب من الغمير واليماني من قرن المنازل اه من الاصل

«٣» هما كبكبان احدهما من ناحية الصفراء وهو نقب يطلعك على بدر والاخر يطلعك على العرج وهو نقب لهذيل. قاله ياقوت اه من الاصل

«٤» قال ياقوت: البوباة صحراء بارض تهامة اذا خرجت من اعالى وادي النخلة اليمانية وهي من بلاد بنى سعد بن بكر من هوازن. قال رجل من مزينة

خليلى بالبوباة عوجا فلا ارى بها منزلا الا جديب المقيد

نذق برد نجد بعد ما لعبت بنا تهامة في حمامها المتوقد

وكلامه يختلف عن كلام الهمداني الذى يجعلها من بلاد هذيل. ولعل منها ما هو لهوازن ومنها ما هو لهذيل

«٥» اما اوطاس فيقول ياقوت انها في ديار هوازن وبها كانت غزوة حنين وبها قال النبي ﷺ «حمى الوطيس» فارسلها مثلا قال ابن شبيب الغور من ذات عرق الى اوطاس واوطاس على نفس الطريق ونجد من حد اوطاس الى القريتين ولما نزل المشركون باوطاس قال دريد بن الصمة –وكان مع هوازن شيخاً كبيراً– بأى واد انتم؟ قالوا باوطاس، قال نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس، وقال احمد بن فارس في اماليه =

(بفتح فسكون) وعروان [١] (بفتح فسكون)

(قلت) ان جبل الفرع وجبل الشرف وجميع الشعاف والشناخيب التي هناك هي داخلة تحت اسم عروان . ولقد سألت الاهالي عن درجة البرد في الشتاء والربيع في تلك الجبال الشامخة فقالوا: ان الماء يجمد فيها دائماً ، ولكنه لا ينزل

= يادار اقوت باوطاس وغيرها من بعد ما هولها الامطار والمور
كم ذا لاهلك من دهر ومن حجج واين حل الدمى والكنس الحور
ردي الجواب على حران مكتئب سهاده مطلق والنوم مأسور
فلم تبين لنا الاطلال من خبر وقد تجلي العمايات الاخابير

«١» واما عروان فقد جاء في المعجم انه جبل بمكة وهو الجبل الذي في ذروته الطائف وتسكنه قبائل هذيل وليس بالحجاز موضع اعلى من هذا الجبل ولذلك اعتدل هواء الطائف وقيل ان الماء يجمد فيه وليس في الحجاز موضع يجمد فيه الماء سوى عروان قال ابو صخر الهذلي

فألحقن محبوكا كأن نشاصه مناكب من عروان بيض الاهاضب

المحبوك الممتلىء من السحاب و نشاصه سحابه

(قلت) مراده بقوله في ذروته الطائف : بلاد الطائف كلها لأن جميع هذه الجبال يطلق عليها اسم الطائف . واما الماء فيجمد في اكثر هذه الجبال واحياناً في نفس قصبة الطائف . واما ما يرى من الاختلاف بين قول الهمداني وياقوت — والهمداني عاش قبل ياقوت بثلاثمائة سنة — بقول هذا ان ديار كذا لهذيل وقول ذلك انها لهوازن، فلعل السبب فيه تغير الايام، والهمداني نفسه يقول بعد ان ذكر منازل هذيل ان بني سعد اخرجوهم منها في وقته ذاك بمعونة عج بن شاخ ساطان مكة . ثم يقول الهمداني ان عروان امنع الحجاز واكثرها صيداً وعسلا وهمن الاصل

يها الثلج المعروف ببلادنا الشامية(١) وذكروا انه ينزل عندهم صقيع أبيض يجدونه صباحا قد غطى الارض

لغة ثقيف وهذيل في هذا العهد

وأما عربية الاهالي ثقيف وهذيل فنقية ، وكيف لا وثقيف مضرب المثل بفصاحتهم يقال : شاعر ثقفي ، ويقال مثل آخر : أكثر من شعراء هذيل . وكان عمر يقول : لا يملي مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف ، وكان عثمان يقول عند جمع القرآن : اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف

ومررت بسانية في الفرع يديرها شاب لا يتجاوز العشرين فأخذت أحادثه وأسائله عن الفرع فقال لي : سقى الله الفرع فيها من فضول الله ما لا يحصى . أعجبني جداً كلامه ، وقوله « سقى الله الفرع » هذه العبارة الشعرية ثم قوله : فضول الله . ولو كان من أهل بلادنا الشامية لقال : افضال الله . فجمع فضلا على افضال وهو خطأ وصوابه فضول كما قال الشاب الفرعي الثقفي . وحسبك أن أدباءنا وقعوا في هذا الخطأ فضلا عن عوامنا ، وانتقد احمد فارس الشدياق على ناصيف اليازجي — وكلاهما من مفاخر سورية — قوله

مضى يجمع الافضال وهي عبيده

ولكن عند ثقيف وهذيل لغة لم أقرأ عنها في كتاب ولا سمعت بها في مجلس وهي أن يتلفظوا بالضاد والظاء كاللام المفخمة فيقولون مثلا : الليف ، في الضيف وصلاة اللهر ، في صلاة الظهر ، وقرية الليق في قرية الضيق ، وهلم جراً

وقد لحظت أنا ذلك ولحظه جميع الرفاق وقضينا من هذه اللغة العجب ، ولم

(١) السبب في ذلك ان بلاد الشام يكثر فيها بخار الماء المتصاعد من البحر والانهار وجبال الطائف بعيدة عن البحر وليس فيها أنهار كأنهار الشام

نسمع هذه اللغة في بلدة الطائف ، ولا في وادي محرم ، ولا في الهدة ، ولا في وادي لية ، وانما سمعناها من الوهيط فصاعداً اي في الشفا عند هذيل ، وهذا الحي من ثقيف

ولما كنت في التصيف الفائت في الاندلس سمعتهم يقولون في كل بلدة «الرابال» يعنون به ضاحية البلدة فأردت ان أعرف مأخذها فقرأت في كتبهم اللغوية انها لفظة عربية محرفة عن « الربض » ففكرت حينئذ في قلب الضاد لاما عند هذيل ومن جاورهم من ثقيف ، وقلت من يدري ؟ فلعل أول من تلفظ «بالربض» هناك تلفظ بها باللام (١) فقد كان في غزاة الاندلس كثير من هذيل وثقيف

وبتنا ليلة واحدة في الفرع ، ولكن لم نقدر ان ننام إلا بعد ان أشعلوا النار في الموقد وأكبروها وبعد أن التحفنا أسمك الاغطية

وكنا في صلاتي المغرب والعشاء نتوضأ بالماء السخن ، وجلسنا بعد الظهر

(١) مخرج الضاد العربية الفصحى قريب من اللام المفخمة فهو بينها وبين مخرج الظاء فلهذا تشتبه الضاد تارة بالظاء في نطق اكثر العرب الى عهدنا هذا وتارة باللام المفخمة في نطق هؤلاء الهذليين والثقفيين، ومثل هذا الاشتباه يكثر في النطق ولا سيما نطق الذي يعجل بالكلام فيتلقاه بعض السامعين محرفا فيصير التحريف اصلا متبعا

وذكر علماء اللغة انه سمع ابدال اللام من الضاد فقالوا الضجع اي اضطجع كعكسه في قولهم رجل جضد اي جلد . وبعد كتابة ما تقدم راجعت مادة ضجع في التاج فاذا هو يقول قال المازني ان بعض العرب يكره الجمع بين حرفين مطبقين فيقول « الطجع » ويبدل مكان الضاد اقرب الحروف اليها وهي اللام زاد في اللسان وهو شاذ وقال الازهري وربما ابدلوا اللام ضادا كما ابدلوا الضاد لاما قال بعضهم الطراد واضطراد لطراد الخيل اه واورد شاهد الكلمة الطجع

على سطح بيت فلما كان عند أذان العصر شعرنا بالبرد ودخلنا إلى الداخل وكان مبيتنا في الفرع ليلة ٢٢ أغسطس اي في إبان القيظ ، فاذا كان هذا في الصيف فما ظنك بالربيع والشتاء والخريف ؟

ثم انحدرنا من الفرع إلى واد لطيف ملآن بالشجر اسمه « الضيق » (بفتح أوله) او على رأيهم «الليق» بتعظيم اللام ، وتناولنا الغداء في قرية بهذا الوادي ثم انتهينا إلى الوادي الذي ذكرنا انه مبدأ لمياه وادي لية وصعدنا منه عقبة أفضنا منها إلى أراض منبسطة جيدة للزرع وفيها السواني والبساتين والقرى ، وأبنية جميع القرى هناك وفي جميع جبال الحجاز كلها بالحجر وبغاية المتانة ، ومنها مايخاله الانسان أبراجا وحصونا ، وفي كل قرية أو دسكرة برج للحصار مستدير الشكل عال متين البناء معمم الرأس بمدماك من الحجارة البيض

وكانوا في أثناء غزوات بعضهم لبعض والوقائع التي تحصل بينهم اذا هاجمت القرية قوة تفوق قوة أهلها لجأوا إلى هذا البرج واعتصموا به ، وجعلوا يرمون بالبندق من أعلاه

أما اليوم فقد مضى كل هذا وأينما سرت يقولون لك ذلك القول الذي رويناه من قبل وهو : ان الامن في زمن ابن سعود خيم تخييما تاما على جميع البلاد ، وان الدماء والثارات كلها انقطعت ، وصار الجميع يسيرون في كل مكان بدون سلاح . وقيل لنا إن الاودية التي سلكناها ، والفروع التي فرعناها ، لم يكن أحد في الماضي ليسلكها إلا برفقة شائكة السلاح ، وان الحكومة في أيام الاتراك لم تصل ولا مرة إلى الفرع والشفا ، ولا قدر أحد من الترك ان يطأ تلك الأرض .

ومن هناك سرنا إلى قرية يقال لها « الأمت » (بفتح فسكون) هي أدنى قرى الشفا إلى مدينة الطائف لا تبعد عنها أكثر من ثلاث ساعات وقد كان مبيتنا بتلك القرية وهي قرية في واد تشرف عليه حروف جبال كثيرة الصخور والجنادل .

والأمت بالعربي معناه المكان المرتفع ، ومعناه الروابي الصغار ، ومعناه مسايل الاودية ، ومعناه الوهدة بين نشزين ، ومعناه الانخفاض والارتفاع ، ومنه قوله تعالى (لاترى فيها جوعا ولا أمتاً) أي لاانخفاض فيها ولا ارتفاع . وأصح معنى ينطبق على الامت الذي نحن في صدده « مسايل الاودية » او « الوهدة بين نشزين » لان القرية هي في مسيل واد وهي منخفضة بين نشزين ، ويجوز أن يكون من باب الانخفاض والارتفاع لاننا هبطناها بعقبة ثم بعد أن وصلنا اليها وجدنا عقبة ثانية على مقربة منها إلى ناحية الطائف

ومن « الامت » إلى الطائف مررنا بواد كانت فيه سدود عدملية قديمة تجري منها المياه باقنية منحوتة في الصخر إلى بساتين خاوية الآن على عروشها . ثم اننا ملنا إلى بستان اسمه بستان القصر في نفس هذا الوادي عليه سانية غزيرة الماء تخص رجلا من القبيلة التي يقال لها قريش فتناولنا فيها الطعام وبعد القيلولة ركبنا عائدين إلى الطائف

وأقول بالاختصار ان مسافة الانتقال من حرارة مكة بالصيف الى برودة الشفا التي وصفناها للقاريء لاتزيد اليوم على نهار واحد ، فمن مكة الى الطائف بالسيارة الكهربائية خمس ساعات(١) ومن الطائف الى الفرع خمس الى ست ساعات ، ولو كان للشفا طرق معبدة لكان المصطاف يركب السيارة من مكة صباحا فيكون في الفرع وقت أذان العصر

---

(١) بلغنا في العام الماضي انهم وجدوا او عبدوا طريقا آخر يقطع في ثلاث ساعات او اقل

سكان الطائف وما حولها

أما سكان الطائف فهم شتى شماطيط من عرب من ثقيف وعتيبة وغيرهما ومن ترك وهنود وأجناس آخرى

وأما اقليم الطائف فسكان وادي لية من أوسط الوادي الى أسفله الزوران فخذ من عتيبة أي هوازن، ومن وسط الوادي الى أعلاه الفعور وهم أشراف تقدم ذكرهم ؛ وأما الذين هم بأعلى الوادي ـ ونزلنا عندهم لما ذهبنا الى وادي لية ـ فهم عوف بطن من حرب ، حرب من بني هلال

وأما ركبة الشهيرة التي تقع الى الشرق الشمالي من الطائف ففيها عدة أفخاذ من عتيبة أهمها : العصماء ، الشيابين ، الروقة ، المقطاء ، الجعدة ، الوذانين ، السوطة ، العمارة ، القثمة ، الثبتة

وأما وادي محرم فعلوه ثقيف ووسطه النمور وأسفله الى وادي السيل طويرق

وأما الهدة فأهل وادي الاعمق الذراوة ، والزنان ، وآل أبي شذب ، والمعالوه ، وكلهم من ثقيف .

ونفس قرية الهدة فيها الغشامرة والقصران وبنو صخر ومرجعهم أيضاً الى ثقيف

والمرج وهو عدة قرى على واد ينصب الى وادي وج الى الشرق من لقيم سكانه الاشراف ذوو ناصر الذين منهم حمود وشاكر

وكانت ثقيف ممتدة الى ركبة لكن هوازن أرجعتهم الى جبال الحجاز

ثم ان ثقيفا تنقسم الى عدة أفخاذ اكبرها سفيان ونمالة ، ومنها قريش بني سالم والغشامرة والقصران. وبنو سفيان سكان الشفاء ينقسمون الى بني عمر آل حجة والى آل ساعد وآل عيشة وآل حسن

وثمالة تنقسم الى المشاييخ الحدادين (يقال انهم من سلالة الشيخ الحداد) والضباعين والسودة وآل زيد وآل مقبل وآل ساعد وآل عمر

وجميع قبائل الطائف وبلادها ماعدا الاشراف وما عدا العدوان تفزع مع ثقيف ضد هوازن، وتسمى ثقيف يوم الفزعة خندقا، وتسمى هوازن أو عتيبة شبابة ولا تنحصر عتيبة في هوازن بل قد دخلها بطريق الحلف قبائل أخرى

وهذيل يسكنون في جبل برَد وما يليه وتسمى هذيل الطاحات

استطراد

(في قبائل الحجاز بين الحرمين وشمالي المدينة المنورة)

لما كنا قد ذكرنا قبائل هوازن وثقيف وهذيل وغيرها من سكان جبال الطائف فلا بأس بذكر سائر قبائل الحجاز ممن ينزلون بين الحرمين، ومن المدينة إلى الشمال، وقد كنا يوم زرنا المدينة النبوية قبل الحرب العامة بسنة أخذنا جدول هذه القبائل من سجلات الحكومة، واطلعنا على معلومات ذات قيمة بشأنها فرأينا إلحاقها بهذا الكتاب إتماما للفائده

فأهم هذه القبائل حرب . وهم بنو حرب بن هلال بن عامر بن صعصعة من العرب العدنانية وحرب خلف أربعة أولاد : سالم ومسروح وعبدالله وعمرو. فمسروح أكثرهم ولداً، وقد دخلت بطون بني عبدالله وبني عمرو في مسروح. أما صبح الاعشى فيقول نقلا عن الحمداني : انهم ثلاثة بطون : بنو مسروح وبنو سالم وبنو عبيدالله، وقال ان من حرب زبيد الحجاز وذكر ان منهم بني عمرو. ومنازل مسروح من مكة إلى المدينة المنورة وعددهم يزيد على ستين الف نسمة وأما بنو سالم من حرب فمنازلهم من مكة إلى المدينة إلى وادي الصفرا إلى

الجديدة إلى ينبع البحر وهم يزيدون على خمسين الفا . فحرب إذا اجتمعت تزيد على مائة الف نسمة ، وكان شيخ مشايخ حرب خلف بن حذيفة الاحمدي . وكان ناصر بن نصار الظاهر ومنصور الظاهري من مشايخ الراوحة من بني سالم من حرب

وبنو مزينة الذين باطراف المدينة والذين منهم زهير بن أبي سلمى المزني صاحب المعلقة داخلون الآن في بني سالم من حرب . والحل ان مزينة في الاصل هم بنو عثمان وأوس ابني عمرو بن اد بن طابخة واسمه عمرو بن الياس بن مضر على ما في صبح الاعشى . فقد دخلوا اليوم في بني سالم من حرب وكان شيخهم حجاب بن بخيت معدوداً من مشايخ المراوحة من بني سالم

وكان من مشايخ حرب يوم زرت المدينة المنورة أو قبل ذلك بقليل بخيت ابن بنيان شيخ اللهبة من عوف من مسروح ، والشيخ ابراهيم بن فهيد شيخ قرية قبا والشيخ احمد بن معين من مسروح . وكان محارب بن موقد شيخ الصواعد من عوف من مسروح ، ومرزوق بن عمر شيخ بئر الماشي من عوف من مسروح أيضا . وكان أحمد بن مزيع بن ربيق شيخ بني عمرو من مسروح بوادي الفرع ، ومريع بن محمد شيخ قبيلة جهم من بني عمرو بوادى الفرع أيضاً ، وكان عبدالله أبو ربعة شيخ قبيلة السهلبة من عوف ثم قبيلة صبح ببدر وشيخها ابن حصاني الصبحي. وقبيلة صبح تنقسم الى اللبدة ، وبني عبدالله وذوي مرزوق . ويوجد فرقة من الاشراف ببدر كان شيخهم الشريف محمد بن سالم بن عبدالله بن نامي ثم قبيلة زبيد بين ينبع وجدة . ومن زبيد هذه في الجزيرة الفراتية وفي الديار الشامية وفي بلدان أخرى مما نزله العرب . وزبيد بضم الزاي وفتح الباء الموحدة هو ابن معن بن عمرو بن عنيز بن سلامان بن عمرو بن الغوث بن طيء . ومنهم بساحل الحجاز الشمالي عدد كبير يقال ان منهم نحواً من ثلاثين ألف رجل يعملون في البحر ، يجلبون الصدف ويغوصون على اللؤلؤ . وكان الشيخ حسين

ابن مبيريك شيخ رابغ هو شيخ زبيد . ومن مشايخهم الكبار محمد بن حسم والى المشرق منهم بنو سليم وبنو عبد الله والروقة . وبنو سليم (بضم السين) من من أشهر قبائل العرب ويقول الحمداني انهم أكبر قبائل قيس، وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان من العدنانية . ومن منازلهم حرة سليم وحرة النار بين وادي القرى وتيماء . وأكثر عرب برقة والجبل الاخضر من بني سليم بن منصور وهم هم الذين ابتلاهم الله بالطليان في هذا العصر ولم يزالوا يجاهدون عن دينهم ووطنهم منذ عشرين سنة . وفي عرب مصر كثير من بني سليم بن منصور ، ومشايخ الاحامدة الذين هم مشايخ حرب في الحجاز يقال انهم من سليم وإن جدهم العباس بن مرداس السُلمي

ثم قبيلة جهينة المنتشرة من ينبع الى الوجه . وهم بنو جهينة بن زيد بن ليث ابن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة من العرب القحطانية ، وهم من أكبر القبائل، قيل ان إبراهيم باشا بن محمد علي باشا أحصاهم فبلغوا فى أيامه ٤٠ ألفاً ، وسمعت من يحزرهم اليوم بسبعين ألفا وبمائة ألف . وهم فئتان : موسى ومالك .

وكان أمير جهينة من قبل العرب الشريف جابر بن حمد العياشي يقيم بينبع النخل ، ومن جهة الدولة العثمانية لأواخر أيامها بالحجاز الشريف محمد بن علي بن بديوي الهجاري يقيم بينبع البحر . والمروان فرقة تابعة لجهينة . وكان من شيوخ جهينة أحمد بن حماد الشطيري في ينبع النخل وصالح بن حامد الصريصري . وكان حنيشان بن سليم شيخ قبيلة عروة من جهينة . وكان من مشايخهم في ينبع النخل عبد الرحمن أبو رقيبة ومطلق المشرق . وأشهر فرق جهينة العياشي وهم أشراف ، والصبحة ، والعلاوين ، وذبيان ، والعقيبي ، والحجوري ، والمحياوي ، والفايدي ، والمراوين ، والزايدي ، والعامري ، وهم من قبيلة موسى . وعروة وأشراف ذوي هجار ، والموال ، ورفاعة ، والحصينات ، وبنو كليب ، والحمدة ،

والاساورة، والسناني، والصيادي، والريباوي، والقضاة، وغيرهم. وهؤلاء هم بنو مالك

ثم قبيلة بَلي من الوجه الى ظبي ومن البحر إلى مدائن صالح شرقا. وبلي (بفتح الباء) بن عمرو بن الحافي بن قضاعة. وقد ذكر القلقشندي ان من بلي ومن جهينة قبائل في صعيد مصر. وقيل لي في المدينة المنورة أن عدد بلي قريب من عدد جهينة وهم عدة فرق، المعاقلة، والعريفات، والرموث، والهلبان، ووابصة، والسحمة والقواعين، والمواهيب، وذبالة. وكان شيخهم سليمان باشا بن رفادمات في أثناء الحرب العامة

وإلى الشرق من بلي قبيلة الفقير وهم من عنزة، ومنازلهم من المدائن الى تيماء، وهم فرق: الشفقة، والجيعات، والمغاصيب، والحجور، والخماعلة، وعددهم نحو ١٠ آلاف

وولد علي وهم من عنزة أيضا، ومن هؤلاء قبيلة في بر الشام هي فرقتان: (إحداهما) شيخها ابن سمير (والثانية) شيخها الطيار، وأما الذين من ولد علي بالحجاز فمنازلهم بين العلا وخيبر، وقد يبلغون ٢٠ ألفا وهم: المسعد، والسند، والشراعية، والعطيفات، والرميلات، والخالد، والركاب، والطلوح، والدجان، وجبارة، والطوالعة، وكان أشهر مشايخ ولد علي يوم زرت المدينة فرحان الايدة

وأولاد سليمان وهم كذلك من عنزة. ومنازلهم بأطراف خيبر من جهة الشمال والشرق وهم من ٥٠ الى ٧٠ ألفا وهم الشملان، والسبعة، والجعافرة، والبجايرة، والخمشة، والسلمات، وشيخهم العواجي

ثم ان من قبائل الحجاز مطير وهم أربع فرق: الاولى ميمون وهم العيايين، والهويات، والسكان، والوهيطات، والسميحات، والرماثية، والمدخال، والحرشان وغراية، والجعافرة، ويبلغون نحو ١٠ آلاف

ثم الصعبة ومنازلهم بقرب الحناكية الى الشرق وهم: المهالكة، والشطار، والحشوش والشتيات، والعضيلات، والمشاريف، والوطابين، والهجلة، وهم في العدد نظير ميمون

ثم ذوو عوز ومنازلهم من الصفية إلى السوارقية وهم: الحجيلات، وذوو ميزان، والسقايين، وذوو شطيط، وذوو بدير، والحلف، وذوو عزيز، وعددهم كعدد ميمون أو الصعبة

ثم الرياحين ومنازلهم باطراف السوارقية وهم: الوسمي، والعوارض، والعناثرة، والكراكرة، والعفاسي، والعطال، والمطارقة، والهبور، وعددهم أقل من إحدى الفرق الاخرى ومجموع عدد مطير قد يناهز ٤٠ ألفا ويقال انهم أكثر

ثم ان من قبائل الحجاز الحويطات ومنازلهم من ضُبَى إلى المويلح إلى العقبة وكان أكبر شيوخهم ياسين بن عليان. ويبالغ الناس في عددهم فيقولون ١٠٠ ألف ويقولون ٢٠٠ ألف ولهم كثير من المراسي على البحر. ويتصل محلهم ببني عطية الذين في جبال الشراة التابعة اليوم لشرقي الاردن

ومن خيبر الى الحائط، والحويط إلى الحرة قبيلة هتيم وليست من القبائل المعروفة بالاصالة في العرب ولكنها كثيرة العدد تصادم شمّر، وتصادم حرب وتصادم أية قبيلة كبيرة. ويقال إنها نحو ٢٠٠ ألف نسمة. وشرقي هتيم حرب الشرقية أي حرب نجد ومن شرقيهم شمر وهي من أعظم قبائل العرب نسبها في طيء فيما أتذكر

وأما منطقة الجوف فهي تابعة لنجد والجميع الآن في مملكة ابن سعود وعرب الجوف هم من عنزة، والشرارات، والحوازم، ويبلغ عدد أهل الجوف ١٠ آلاف ولكنها تسع أضعاف هذا العدد لكثرة مياهها ونخيلها وخصب أرضها وهي تبعد عن دمشق مسيرة ستة أيام وعن بغداد سبعة أيام وعن المدينة المنورة ثمانية أيام وعن حائل سبعة أيام. فلا يوجد بلدة أوسط منها في بلاد العرب. وعلى مسافة ١١ ساعة من الجوف مدينة سكاكة وقد تكون أكثر سكانا من الجوف وأقرب نقطة إلى الجوف من المعمور الغربي هي الكرك لان من الجوف إلى محطة

القطرانة مسيرة يومين ، ومن محطة القطرانة على سكة حديد الحجاز إلى الكرك مسيرة ست ساعات لاغير

وفي منطقة الجوف الطوير وفيها ٤٠٠ مقاتل وقارة وفيها ٧٠٠ مقاتل ويتبع هذه المنطقة قريات الملح وهي: الكهف، واثرة، والقرقر، والوشواش، والعقيلة ، وأم الاجراس، وفيها كلها نحو ٤٠٠ مقاتل . وهي واقعة في وادي السرحان ومركز عامل ابن سعود فيها قرية كهف . وعلى مسافة ساعتين منها النبك الذي نزل به بقية المجاهدين السوريين لما أجلاهم الانكليز بالاتفاق مع الفرنسيس عن الازرق منذ ثلاث سنوات . وأقام أخي عادل بالنبك نحو سنتين، ولا يزال فيه محمد باشا عز الدين الحلبي ومعه بضع مئات منهم، كما ان سلطان باشا الاطرش ومعه بضع مئات نازلون بالحديثة وعين كرم على مقربة من النبك

وعلى مسافة ثلاثة أيام من مدينة الجوف إلى القبلة بلدة تيماء وهي عن سكة الحجاز الحديدية على مسافة يوم الى الشرق . ويقول ياقوت ان الابلق الفرد حصن السموأل بن عادياء مشرف عليها

وشرقي تيماء قرى متعددة هي: موقد ، وقبة ، وقنا ، وأم القلبان، وطوية، والجذامية ، والوزيد . وبين المدينة وحائل الحائط والحويط

خاتمة الارتسامات

(في صفة موقع الطائف الجغرافي والعسكري ومكانه من البلاد العربية كلها وما كانت شرعت فيه الدولة العثمانية من جعله مركز قوتها في بلاد العرب وما يجب على الامة العربية من ذلك)

ألا إن مدينة الطائف مركز عظيم في بلاد العرب لانها لمكة من قبيل لازم وملزوم، ولان اقليمها من أبدع الاقاليم، وثمراتها من أشهى الثمرات، ولكونها متوسطة في الجزيرة الحجاز محيط بها، واليمن جنوبيها، ونجد والعراق شرقيها، والمدينة المنورة والشام شماليها. فأختم كتابي ببيان ما يجب على الامة العربية في موقعها

لحظت الدولة العثمانية هذه الاهمية لموقع الطائف فكان السلطان عبد الحميد الثاني العثماني عزم على مد الخط الحديدي من الشام إلى المدينة ثم الى مكة فالطائف فعسير فصنعاء اليمن، ولم يقر ذلك بمجرد رأيه، بل جمع الوزراء وكبار رجال العسكرية، وبعد مذاكرات طويلة استمرت عدة ساعات أصدر ذلك المجلس قراره بلزوم انشاء هذا الخط وقاية لجزيرة العرب من عوادي الاعداء، وتقريباً لها من مركز السلطنة (١)

ولقد تمكن السلطان من إيصال الخط من دمشق الى المدينة المنورة، وسارت عليه القطر التي لم يكن في كل أوربة إذ ذاك قطر أجمل منها، وكان المسافر يقطع مابين دمشق والمدينة اي زهاء ألف وأربعمائة وخمسين كيلومتراً في ليلتين، ولولا مصادفة خلع السلطان أيام العمل بهذا الخط لكان أكمله إلى مكة والى الطائف وسار به حتى صنعاء

(١) نزيد على هذا اعتقاد الترك ان سلطانهم على جزيرة العرب لا يتم ولا يدوم الا بذلك فكان اهم غرض لهم منه ان لا يتمكن العرب من تجديد دولة لهم في معقل وطنهم وعقر دارهم

فمن واجبات الامة العربية السعي في اكمال مشروع السلطان عبد الحميد هذا فقد كان السلطان ووزراؤه يرونه ضروريا للوحدة العثمانيـة وكان ذلك حقاً ، ولكن العثمانية قد ذهبت وذهبت وحدتها ، وانطوى بساطها ، وأما العربية فلن تذهب ، ووحدتها لن تزال نشيدة آمال العرب ، وان من أركان هذه الوحدة وأعمدتها الكبرى هذا الخط الحديدي ، الذي لا يقف الانكليز والفرنسيس في وجه استئناف اتصاله بالشام وفلسطين إلا خوفا من نقطة هذه الوحدة

ثم ان الدولة العثمانية كانت قد شيدت في الطائف ثكنة عسكرية من أعظم ثكن الجند في العالم. طولها ثلاثمائة متر ، وعرضها ما يقرب من ذلك ، وأمامها سهل منبسط مستو كخد الحصان لا يجتازه الماشي من باب القشلة إلى آخره في أقل من عشرين دقيقة . وقد جعلت في جانب من هذه الثكنة العظيمة مستشفى متقناً ، وفي وسط ميدان الثكنة الفسيح قصراً لاجتماع أمراء الجيش ، وجميع هـذه الابنية لا تزال ماثلة لا ينبغي لها الا بعض ترميمات غير ذات بال

ولقد علمت من حديث دار بيني وبين سمو الامير المهذب الكامل فيصل ابن عبد العزيز - ثاني أنجال جلالة الملك ونائب جلالته في الحجاز - ان ترميم المستشفى واعادته كما كان من الامور المقررة ، وكذلك ترميم القصر الذي في وسط الميدان بحيث يجلس فيه الملك عند مايجيء الى الطائف ، وانهم ينوون نقل جميع دوائر الحكومة في الصيف الى الثكنة ، وكذلك دوائر امارة الطائف . وهذا لعمري من الامور التي تنبغي المبادرة اليهـا وقاية للثكنة من التداعي ، لأن كل بنـاء مهجور ، محكوم عليه بالدثور ، ولقد كلف بناء هذه الثكنة الدولة العثمانية مبالغ طائلة ، فكلما تأخرت اقامة الحكومة بالثكنة ازدادت على الحكومة الحجازية النجدية كلفة تجديدها

وأما الجند النظامي السعودي الذي في الحجاز فانه يقيم في مكة بالثكنة التي في

جرول في أول البلد الحرام للقادم من جدة ، ويقيم في جدة بشكنة جدة المناوحة للبحر ، ويقيم في الطائف بقلعة الطائف وهي قلعة بنيت منذ نيف ومائة سنة ، قيل لي بناها الوهابيون قدمتهم الاولى في القرن الماضي . ولقد زرتها وسررت بانتظام الجند الذي فيها بقيادة ضابط تركي باق من أيام الملك حسين اسمه تحسين بك من خيرة الضباط ، ولقد ازدادت الثقة الآن بحسن قيادة الجيش الحجازي بعد أن عهد بها الملك عبد العزيز (أيده الله) الى المجاهد المناضل ، والعالم الفاضل ، فوزي بك القاوقجي من نخبة ضباط العرب ، وفقه الله لتحقيق آمال الملك وآمال العرب في القوة النظامية السعودية

ولما زرت القلعة جلسنا في الغرفة التي كان يسكن بها مدحت باشا ابو الدستور العثماني والتي قتل فيها ، وأمامها غرفة كان يسكن فيها محمود باشا الداماد ، وهناك غرفة ثالثة كان يسكن فيها خير الله افندي شيخ الاسلام ، هؤلاء الثلاثة الذين نفاهم السلطان عبد الحميد الى الطائف من أجل خلع عمه السلطان عبد العزيز

صفة قتل مدحت باشا ومحمود باشا الداماد

ولقد استقصيت من تحسين بك المذكور ومن الشيخ محمد بكر كمال رئيس بلدية الطائف ومن غيره من المعمرين فيها عما يعلمونه من كيفية قتل مدحت ومحمود الداماد ، فقيل لي ماخلاصته : جعلوا إقامتهم من البداية في القلعة لكن مع الترفيه والاعتناء ، وكان لهم طاه خاص يصلح لهم طعامهم ، لكن بعد أن مضت على ذلك مدة شرعوا بالتضييق عليهم ، وأبوا أن يطعموهم إلا من غذاء العسكر . وبعد عدة سنوات من حبسهم بالقلعة وفي أيام الوالي المشير عثمان نوري باشا قرروا قتل مدحت باشا ومحمود باشا الداماد ، وكان مدحت في الغرفة التي جلسنا فيها وهي محل استقبال الزائرين اليوم ، فدخل عليه ملازم تركي اسمه اسماعيل قيل لي يوم كنت بالطائف (صيف سنة ١٣٤٧) انه لايزال حياً يرزق وانه مقيم

بجدة ، ولم يكن قتل هذا الضابط لمدحت خنقا كما كنا نسمع ، بل قبض على أنثييه واستلهما بقوة عصبه ، فبرد مدحت في مكانه ، ثم عادوا الى الداماد فحاول أن يحاحش عن خيط رقبته، ولكنهم صرعوه وأزهقوا روحه ، ولم يستسلما للموت بدون صراخ ، بل استغاثا بالجيران الذين بيوتهم مجاورة للقلعة ، فصاح النساء بالذين في القلعة ووبخنهم ودعون عليهم، واشتدت الولولة، إلا أن ذلك لم يمنع قيام القتلة بانفاذ الامر ،

وأما خير الله افندي شيخ الاسلام فلم يمسوه وبقي في القلعة الى أن مات ، وتزوج وهو بالقلعة وولد أولاداً وعاش طويلا، ودفن مدحت ومحمود الداماد بتربة الحبر ابن عباس، ولكن رئيس البلدية قال لي انهم لا يعلمون في أية زاوية من الجبانة كانت مراقدهما، وقد جاء بعض الاتراك بعد اعلان الدستور العثماني وبحثوا عنهما وبنوا لهما قبرين حيث رجح الناس انه وقع دفنهما

وأما قطع رأس مدحت وارساله الى السلطان عبد الحميد في الاستانة كما هو شائع فلا يعلم هؤلاء الرواة شيئاً عنه

ذكرنا هذه الواقعة لانها تاريخية مهمة

وكان الفراغ من تبييض هذا الكتاب بمدينة لوزان من بلاد سويسرة

لأربع خلون من ذي الحجة سنة ١٣٤٩ موافق ٢٢ ابريل سنة ١٩٣١

والحمد لله أولا وآخرا . وصلى الله على سيدنا محمد

وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا

﴿ وقد تم طبعه في شهر المحرم سنة ١٣٥٠ ولله الحمد ﴾

استدراكان

(بعد ان تم طبع الرحلة الا هذه الكراسة (الملزمة) الاخيرة جاءنا من مؤلفها الامير هذان الاستدراكان لاجل إلحاقهما ببحث المعادن فنشرناهما هنا لما فيهما من المناسبة للخاتمة في الحض والحث على المبادرة الى عمران الجزيرة)

الاستدراك الاول

أرجو منكم اذا وصلتم الى بحث المعادن أن تضيفوا الى المتن أو تضعوا بالحاشية الجملة الآتية :

« ومن المعادن المعروفة في الحجاز معادن السوارقية وهي على ثلاث مراحل من المدينة إلى الشرق منها وهي ذهب وفضة ورصاص وهناك طواحينها وافرانها. ومن الغريب اني لم أجدها في معجم ياقوت إلا اذا كان قد ذكرها تحت اسم آخر. وبحثت في القاموس والتاج عن « السوارقية » فرأيته يذكر بلدة بهذا الاسم بين الحرمين الشريفين ولم يذكر ان فيها معادن ويقول انها « بضم أولها »

واذا وصلتم إلى ذكر خيبر أن تضيفوا إلى كلامي عليها الجملة الآتية :

« ولما كنت في المدينة المنورة سنة ١٣٣٢ قيل لي ان خيبر هي عن المدينة على مسافة ثلاثة أيام الى الشمال بسير الجمل وانها كانت آئلة الى الخراب فبعد ان كان ابن رشيد يأخذ منها في السنة ١٢٥ ألف ريال أصبحت الدولة لا تأخذ منها إلا ألف ريال »

واذا وصلتم الى ذكر الفرع أن تضيفوا الجملة الآتية : « وقيل لي في المدينة يوم زرتها سنة ١٣٣٣ ان بالفرع ستين عين ماء

الاستدراك الثاني

بينما نحن مباشرون طبع هذا الكتاب إذ حدث حادثان مهمان يتعلقان بالمعادن وأمر التنقيب عنها في الجزيرة العربية وفقاً للاماني التي تجول في صدور مفكري العرب من استثمار هذه الخيرات العظيمة والاستعانة بها على اصلاح أحوال العرب. وهذان الحادثان أولهما ان الامام عبد العزيز بن سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها قد انتدب المستر توتشل المهندس الاميركي المتخصص بالمياه والمعادن للتنقيب عن المياه التي يقرب انباطها والمعادن التي يتحقق وجودها من ممالك الحجاز ونجد، وان المهندس المذكور قد بدأ بالعمل وسار إلى سواحل الحجاز الشمالية ورافقه في رحلته الاخ السري الفاضل خالد بك القرقني الطرابلسي الغربي من سلالة بني هود الجالين من الاندلس وقد جاء في العدد ٣٣٥ من جريدة أم القرى الرسمية تاريخ ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٤٩ مايفيد ان المهندس المذكور تجول في سواحل الحجاز الشمالية ودأب هناك في الفحص والبحث مدة ثلاثة أسابيع قطع خلالها مسافة ٣٥٠٠ كيلو متر وانه رأى ان المياه في تلك المنطقة لاتقل غزارة عن مياه المنطقة الواقعة بين وادي فاطمة وجدة ، وانها قريبة جداً من سطح الارض لايتجاوز أقصى عمق لها عشرة أمتار كما ان اماهة المياه في هذه المنطقة لايحتاج فيها إلى حفريات ارتوازية

قالت الجريدة وانه عثر على منجم بترول غزير بين اللبانة والمويلح في ساحة لايقل طولها عن ٣٥٠ كيلو متراً تقريباً . وكنا نسمع دائما ان في ذلك الساحل زيت بترول يسيل إلى البحر ، فعسى أن لايبطيء الملك عبدالعزيز في استخراج هذا المنبع الغزير القريب من البحر الذي لايلزم له مد أنابيب على مسافات طويلة جداً كما هو الشأن في منابع باكو ومنابع الموصل مثلا

ثم قالت الجريدة ان هذا المهندس قد عثر أيضاً على منجم ذهب غزير في ضواحي الوجه مؤلف من عروق ذهبيـة عديدة ، وعلى منجم رصاص بالقرب من الوجه أيضاً

فعسى أن يطوف هـذا المهندس في جميع مملكة ابن سعود وأن يردف بمتخصصين آخرين ويبحثوا في الاماكن كلها ممـا سبق العهد بالمعادن والزيوت والاملاح فيه وما لم يعرف عنه شيء إلى اليوم

وأما الحادث الثـاني فهو ان الاخ الفاضل السيد رشدي الصالح ملحس النابلسي محرر جريدة أم القرى أخرج رسالة في المعادن بالحجاز ونجد وملحقاتهما ذكر فيها ما فيهما من مناجم مختلفة واملاح ، ممـا وصفه الهمداني وياقوت والمقدسي والزمخشري وبعض رجال الاتراك الذين سبقت لهم ولايات في جزيرة العرب وغيرهم . وقد أهدى الينا نسخة من هـذه الرسالة التي يقول انه انتزعها من كتاب هو شارع في وضعه تحت اسم « معجم البلدان العربية » فتصفحناها ووجدناها رسالة قيّمة ثمينة كأنها هي بذاتها معدن من معادن العلم والتحقيق ، ورأينا فيها ذكر معادن كثيرة أوردنا الخبر عنها في كتابنا هذا ، وربما جاء فيها ما فاتنا ذكره ، كما ان في هـذا الكتاب عن معادن اليمن ماليس في تلك الرسالة واستيفاء البحث عن معادن الجزيرة العربيـة يستجلب على كل الاحوال أنظار العرب اليها ، ويستثير همم الناهضين منهـم الى استخراجها ، وافاضة خيراتهـا على هذه الامة . فنسأله تعالى تعجيل هذه الامنية . آمين



جدول خطأ الطبع

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤	١٧	يوم	يوما
٢٠	٣	العثلوج	العسلوج
٢١	٦	يتطوفون	يطوفون
٢٩	١	لائمة	الائمة
٣٢	١١	قدف	قذف
٤٦	٢	الي الطل	الى الظل
٥٢	١٢	وقد سعدت	الا وقد سعدت
٥٤	١٦	ذكري	ذكر
١٠٠	٤	كان	كانا
١٠٣	١٩	وتعبرها	وتعبدها
١٠٨	٢	بها	بها
١١٥	٢٤	انها	فيها
«	٢٦	وبثت الجبال بثا	وبست الجبال بسا
١١٧	١٠	الكهرباة	الكهرباء
١٣٦	١٦	الحجار	الحجاز
١٤٤	٢١	القبور	قبور
١٤٥	١	مساحة (برأس الصفحة)	مساجد
«	١٥	بالعين	بالغين
١٤٩	٢٢	طرفيها	طرفها
١٥٠	١٨	الاوزعي	الاوزاعي
١٥٢	٢	رأيت ما احدا	مارأيت احدا
١٥٨	١٥	ائتوني	ائتوني
١٦٥	١٨	لماءكان له ومال عليه بالعرج	لمال كان له بالعرج

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٦٦	١٣	بن	بن
١٦٨	٢	اسماعيلي	اسماعيل
«	٥	قيس بن عيلان	قيس عيلان
١٧٣	٣	لدال	الدال
«	٤	فيها	فيه
«	٢٢	الوديان	الاودية
١٧٤	٢٠	الرقيق	الرفيق
١٧٦	٣	التي	اني
١٧٩	٨	السفانية	السفاينة
١٨٩	١١	خذته	أخذته
٢٠١	١١	يزيد	زياد
٢٠٤	٦	الادعار	الدعّار
٢٢١	٣	الماء	المال
٢٢٣	٥	فتشكلانهما	فتشكلاتهما
٢٢٩	١٠	المجبحة	المجبّجة
٢٣١	٤	العم	العثم
٢٣٢	١	هالقي	هالفي
٢٣٥	٢٢	دينار	ديناراً
٢٤١	١٣	واخنها توعر	وأختها بتوعر
«	٢٧	بيجان	بيحان
٢٤٥	١٦	من ساكرين	من شاكرين
٢٤٨	٣	نقيل	نقيل
٢٦١	٦	المعرض	العرض
٢٧٠	٣	جوعا	عوجا

انتهى ولله الحمد

فهرس الارتسامات اللطاف

﴿ تم الفهرس ﴾

